إدواردو غاليانو

الأغنية التي لنا

رواية



ترجمة : مها عطفة



إدواردو غاليانو



الأغنية التي لنا

ترجمة: مها رفعت عطفة

دار الحوار

الأغنية التي لنا

الكتاب: الأغنية التي لنا

المؤلف: إدواردو غاليانو

المترجم: مها رفعت عطفة

الطبعة الأولى: 2015

الإخراج الضوئي: بتول سامر ديبه

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الإسباني:

La canción de nosotros

By: Eduardo Galeano

ISBN: 978 – 9933 – 523 – 27 -5

❁❁

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية، هاتف وفاكس: 33 422 41 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

الأغنية التي لنا

وُلِد إدواردو غاليانو في مونتيفيديو عـام 1940. ومنـذ عـام 1973 عـاش منفيـاً في الأرجنـتين وفي السـاحل القطلانـي في إسبانيا.عادَ في بداية عـام 1985 إلى مونتيفيـديو، حيـث يعـيش

الآن. له عدد من المؤلفات المترجمة إلى لغات كثيرة. ينتهكُ في أعماله الحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية دون ندم . في أعماله يصبّ السرد والمقالة والشعر والتأريخ، تلمّ أصوات الروح والشارع وتقدّم خلاصة الواقع وذاكرته. منح في مناسبتين جائزة بيت أمريكات كوبا ووزارة الثقافة في أوروغواي. واستلم أبوك — أوورد من جامعة واشنطن وبلّغرينو أستوري وغرينزان كفور وجائزة داجرمان في السويد وميدالية دائرة الفنون الجميلة في مدريد واختير مواطناً لامعاً من قبل بلدان مِركوسور وكان أوّل من منح جائزة ألوَا للناشرين في الدنمرك. كما خُصّ بجائزة كولتورا فريدوم برايز، التي منحتها له مؤسسة لانّان وحصل على جائزة الاتصالات التضامنية في مدينة قرطبة الإسبانية

1. المدينة

هل ستحكين لنا حكايتك؟

هل ستُكلميننا همساً ذات مرة؟

هل ستقولين لنا: إنني خُطِّطتُ في مسار طلقة مدفع،

أهانتني الريح، كنستني،

الريحُ التي تهبُّ من الجنوب،

أنقذتني من الأوبئة ؟

هل ستقولين لنا: إنني

نزفت،

فُرِّغْتُ، حُرِقْتُ، وغُدِرْتُ؟

هل ستُسَلِّميننا سيوفاً كي ننتقمَ لك؟

مرايا كي نضاعفك؟

نبيذاً كي نحتفل بك، أصواتاً حتى نسميكِ؟

أيتها المدينة المقنّعة التي تخفين

وجهكِ عنا نحن أبناءَك:

هل يرقصُ

الأحياءُ والأمواتُ معاً في لياليكِ ؟

هل يخرج الأحياءُ والأموات للصيدِ معاً ؟

لماذا هي طويلة ليلةُ سهرنا على سلاحنا؟

بأيٍّ حبرٍ يُرْسَمُ وجهُكِ؟ بأيٍّ دمٍ؟

أيموت بالخداع الرجالُ الذين يموتون

كي تولَدي أنتِ من جديد؟

ما من إله يُحَبُّنا، ما من إله يَسَمَعُنا.

إلى أين، إلى أي بلد أو سماء غريبة

حملوا روحنا؟

أيُّ طيرٍ سرقها، أيُّ نورس؟

هل ستتركينني أعرف أنّني من هنا، أُحسُّ بأنني من هنا،

مولودٌ هنا؟

يا مدينتي، يا مدينة ما كانت أبداً:

هل سأكون جديراً بأن أغوص برأسي بين نهديكِ؟

هل سأستحق أن أشرب عصائرك المرة، القوية؟

هل سأستطيع أن أغني أغنيتك مستلقياً بظهري فوق العشب؟

أن أغني بصوتِ أعمى أغنيتَكِ؟

2. المدينة

خضَّبَ الليلُ المدينةَ بأنفاسه، بلهاث فم الليـل، ولكـن هـا هي شمسُ الخريفِ تقتربُ، وستكون كافيةً كي تحصر الرطوبـةَ في حوافّ الدروب وأسفل الجدران، جانب القمامة.

بيد أن الشاطئَ لن يجف. ستبقى الآثارُ مطبوعةً على الرمال كما على إسمنت رطب: سيكون بالإمكان تخمين أين مشى الصيادون بفوانيسهم والنوارسُ وحصانُ ليالي البدر. لقد قضى الحصانُ الليلَ وهو يعدو، وعرفه يسوط جانبيه، يُطلق بخاراً من فمه ويرفع سُحُباً من رمال وزبدٍ بحوافره.

جرى الحصانُ طوال الليل على الشاطئ، نحو الشرق ونحو الغرب، أسرعَ من صرخة، جارحاً نفسَهُ بحواف الصخور، واقفاً أحياناً على قائمتين وصاهلاً أمام البحر، حزيناً، جامحاً، لامعاً من العرق والملح، وحوافره طبول تنادي من الأرض شخصاً لا يأتي، وحين يتسربُ أول أضواء النهار الخائنة في الهواء، سيتوغلُ الحصانُ في البحر، ويعود ويتوغّلُ في البحر: حصانُ العينين االمتقدتين، العصيّ على الخيّالة.

3. العودة

بين أصوات الفجر الطقسية في المدينة، جلبة قـوارير وعلـب وكلاب هزيلة تشتمُّ القمامةَ، يسمع ماريانو محركَ حافلةٍ تقترب. يعود أدراجه، جارّاً بصعوبة ساقه العرجـاء، ويصـعد إلى الحافلـة. يتعثر بالدرجة. الحافلة الحديدية مليئة برجـال يتضـاغطون بـدون

كلام. هذه أسوأ ساعة: رائحة هزيمة ورطوبة ودخان السيجارة الأولى البارد. الصمت يقلبُ الأمعاء.

بعد شوارع جانبية قليلة، ينزل ماريانو. شوارع الميناء الحجرية، شوارع ملتوية، تنزلق ملتوية بين الساحل الشمالي والساحل الجنوبي. لا تزال تومض في هواء الرماد، لافتاتُ المقاهي.

شاحنة محملة بجنود تعبر شاخرةً بسرعة بطيئة شارع كاسر الأمواج. شادر الشاحنة المفتوح قليلاً يسمح من الخلفِ برؤية نظرات الجنود السئمَة، وسبطانة رشاش. العجلات ترش بنطلون ماريانو بالطين، ولكن ماريانو لا يجري، ماريانو لا يلتصق بالجدار: يتابع سيره، وكأن شيئاً لم يكن. يغمض عينيه. عندما كان صبيّاً، كان يتمكن من أن يُغمض عينيه ويفكِّر: الآخرون لا يرونني.

فتيات البارات يحتسين المتة المغسولة بعد ليلة طويلة من دون زبائن. نعم، هذه أسوأ ساعة: لها طعم ولون الكذب، والآن لم يعد هناك كلمات تقال، ولا رغبة بالقول، ولا موسيقى تدفق من الآلات بالعات النقود. يدخل ماريانو؛ يطلب قدح غرابّا[1]. الرشفة تتأجّجُ في جسمه، تشعره بالراحة. المدينة المشاهَدَة من طاولة البار، تتمطى على شفرات الستائر البلاستيكية وتتشظى إلى قطع متلألئة. يمكنُ شم رائحة نفاذة في الهواء، إلى الداخل، وهناك دوائر دبقة من البيرة على المشمع الذي يغطي البيانو الذي ساءت معاملته: ذبابة تسير في الدخان، والزيت يبقبق في المقلاة. (في العمق يغطّ البطلُ الذي خاض في الليلة الماضية معركته الأخيرة، في

[1] Grapa مشروب روحي قوي تتراوح درجة كحوله بين 38 و 60 درجة. م.

سكرته، ينام على ظهره طافحاً عن سرير فرديّ، مفتوحَ الفم: كبيرٍ كبلد. ماريانو لا يراه ولا يعرف، ولكن البطل انزلق وسقط ليلاً، حين تفادى ضربة باليمنى من أسفل الذقن، حين كان وجهه منتفخاً من ضربات عدة جولات لعينة، وكانت شفتاه تنزفان وحاجبه مشطوراً. سقط، ونهض الجمهور من مقاعده، وهو لم يعد يستطيع النظر من بين انتفاخات الأجفان، واستطاع فقط سماع هدير الحشود، وعرف بأن كل هؤلاء الناس كانوا ينتظرون منذ الأزل فرصة أن يروه يسقط.)

ثلاثة صيادين يسيرون نحو كاسر الأمواج، وصناراتهم علي أكتافهم. يخرج ماريانو من المقهى. رائحة قطران وسمك تنبعث قريبة. ماريانو يمشي هائماً والحنين كلب مُطارد يعضه من كعبيه. لماذا يعود المرء؟ يتساءل. لماذا يعود المرء دائماً؟ المدينة. في ساعة أخرى، من زمن آخر. القهوة. النافذة مفتوحة علي نسيم البحر، حين يعيدُكَ البحرُ فيَّ أماسي الصيف الزاهية يعيد ريحاً رطبة. السعادة تحدث: الريح المالحة تصفعك على وجهك، دغدغة تجوب جلدك وتجعلك تشعر بالرغبة بمعانقة الجميع. هذا البحر. ليس أيّ بحر: النهر-البحر، النهر الواسع كالبحر: وأنا منذ كنتُ صبيّاً اعتدتُ أن أتحدث إليه. وأنا منذ كنتُ صبيّاً اعتدتُ أن أستمع لأصواته وأحكي له أشياء، وكنتُ أعرف أنه أهم منّا وستكون حياته أطول من حياتنا.هذا البحر. ليس له وقع البحار الأخرى ويتحرك بشكل مختلف. بحر مُبارَكٌ طفلٌ دائماً.

لا يزال هناك بضع ساعات حتى يحين الموعد. يحكُ ماريانو شاربَهُ الجديد، الذي يكرهُهُ كما يكره الاسمَ المستعار والشعرَ المصبوغ. يحسّ من خلال نعلَيّ حذائه المتآكلين بحصى

تخزه، وبالبرد يدخل فيه ويعضُّه من باطن قدميه ويتسلق كلسان من الجليد ربلَتَي ساقيه. لماذا يعود المرء؟ من أجل الثورة؟ أمنَ أجل هذه الطريقة في حبّنا لبعضنا دون أن ننطق به؟ ألأجل طريقتنا في المشي بغنجٍ وفي النظر بحزن؟ ينفث ماريانو نفخة بخار من فمه؛ يمشي مُدخِّناً بَرْداً. هذه المدينة، لم تعرف كيف تكون معسكراً أخوياً بلا حدود؟ تُرى أليست أيضاً مصيدة فئراننا ؟ أليست هي انطباعنا الرقميّ؟ أليست إشارة هويتناحقاً، وفي الوقت ذاته قفصنا الفاسد؟ هذه المدينة. التهديد يتشابك، يترصد: يطاردك وأذنه ملتصقة بالجدران ويراقبك من بين رموشِ نور الستائر. هل المرء مستعد للموت من أجل هذا الخراء وهذه الروَعة؟

تمزق الشمس قناع رمادها. تصيح النوارس يائسة، محلقة في دوائر فوق سمك الشبوط والسلمون والأبراميس المتدلية من القصب، بين مذاري الخشب. تتماوج الطوافات على سطح المياه الساكنة، ماءِ حساء البترول، في دوائر قزحية .

يمشي ماريانو، دون أن ينتبه، كأنّه يبحث عن المقهى اليوناني. على ظهور الحمالين تولد وتتوالد حدبات الخيش؛ فكوك الرافعات تعض وتبصق بضائع. عربة تروح وتغدو صارّة فوق السكّةِ، بين المخازن والصناديق المكدسة. أبعد من هناك، بحار يدخن متكئاً بمرفقه على قيدوم السفينة.

يعلم ماريانوٍ أن مقهى اليوناني لم يعد موجوداً. لكن بالنسبة للوجود، كان موجوداً. هل وجد؟ بلى، كان هو حياً. كان من زجاج وخشب، وفي الصباحات الضبابية كانت تتوقف عند أبوابه زوارق القطر وقوارب الصيد. كان هناك فتاة تدعى كلارا، تجلس أمام ماريانو،

وزجاجة نبيذ مع كأسين على الطاولة، على الرصيف، هنا، على حافة البحر. فتح زورقٌ قَطْر شقّاً طويلاً من الزبد، مزمجراً، نافثاً سحابة سُخام كثيف بين القوارب الراسية. انتفخ شراع أحمر وابتعد. كان النبيذ يترك طعماً حريفاً في الحلق، ولكنه يمنحُ دفئاً للجسم. صفارة تصفرُ ببووو، ببووووووو، فتردّ عليها صفّارة أخرى، وكان لكلارا أنفٌ جيد لإعطاء قُبل إسكيمية وللمُداعبة بأنملة السبابة وجيد أيضاً للتذكر. وهي تتثاءب، فجوةً كانت تفصل بين أسنانها، وتمطت فانفتح بلوزها وبنطلونها مثل جفنين كاشفين عن ارتعاش البطن، انحناءة الورك، والبشرة المشعة. عندها طقطقت كلارا أصابعها وأرجعت رمشاً إلى الخلف، من فوق كتفها الأيسر، وطلبتْ، مُغمَضَةَ العينين، ثلاث أمنيات. لم تقل ما هي. ضحكتْ وأطبقتْ أسنانها ولم تقل ما هي، وحدث كلّ هذا حدث قبل أن يبدأ الخوف.

ينشر ماريانو صحيفةً ويجلس فوقها، مُدلّياً ساقيه فوق الصخور الكبيرةِ، المصقولةِ كالعظام. يسمعُ من حين لآخرَ خطى وراءه، تتشنّج عضلاته: ينظر بطرف عينه، متوتراً، وتمرُّ الثواني، ويعود إلى شأنه. يمرُّ رجلان، بين آخرين. واحد أسود مفتول العضلات، يمشي كسولاً وحنوناً كقط نعس، عيناه صفراوان وصوته أجش؛ والآخر قصير القامة، خفيف الشاربِ، يمشي مُبرزاً صدره ويتعثر كلّ خطوتين وفي الثالثة. ماريانو لا يعيرهما انتباهاً: يمشيان متعانقين، سكرانين قليلاً وقليلاً أيضاً.

أراد ماريانو أن يُفكّر. هو فقط يستطيع أن يتذكر. يتراجع الميناء، تتمدّدُ المدينة. تتقدّم الأزمنة الماضية. تشقّ الأشباح طريقها من منفى الذاكرة الحزين.

4. المدينة

الأشياء أضاعت أسماءها ونحن لم نعد نترك ظلاً.

فرغت أرضنا من الرجال الأحياء، وتحول الأمل إلى مومس عاقر من كثرة ما قتلت أشخاصاً في رحمها.

ماذا فعلوا بالأرض التي مُنِحْنَاها كـي ننمـو ونـؤمن ونكـون أحراراً كما في لعبة؟ تلك التي نراها وتعيد إلينا القدرة على النظـر. تلك التي كانت تومئ لنا مـن الطـرف الآخـر لليـل ومـن الحـزن، الساحرة المسكينة المحظوظة، ما الذي جرى لها؟

هل هي هذه الجثة التي تجرها الخيول؟

ما نحن إن هي ما عادت موجـودة؟ نخـترع أنفسـنا، نولـدُ معاً: هل نستطيع أن نعود كي لا نكون وحدنا؟

أين هي الأجسام التي بحث بعضها عـن بعـض، وترابطـت في ما بينها بـروابط مـن عضـلاتٍ وعجائـبَ، واعتُقِـدَ بعمـىً أنهـا ستبقى للأبد مبللةً بتلك العصائر وميتةً فقط من الضحك؟

كيف كنا؟ هل كنّا أحداً، نحن المغنين، نحـن الوالِـدين: قبل أن يبدأ هذا اليوم الطويلُ ما قبل الأخير؟

تسير الريح كمالك لبقايـا سـفينة غارقـة وتقـذف بنـا أنّـى تشاء. ألن تعود لتجتمع الأجزاء التي جعلتنا ممكنين أبداً؟

5. تسكعات غانابان

يمطُّ بوسكابيدا (الباحث عن رزقه) ساقيه، يُـراقص أصـابع قدميه المتحررين من حـذائهما، الأصـغر بنمـرتين، تتلـوّى أصـابع قدميه وتلعَبُ كديدان سعيدة.

ينظر إليه غانابان (الكاسب لخبزه) وهو يغمر في الماء قدميه، حتى الكعبين. تنزلق الأمواج بفتور بين الصخور. البحر، في جزر، يتراجع، ويُخلّف بمروره مجاريَ وبحيرات صغيرة مليئة بالأشنيات والزبد والأسماك الصغيرة التي تجري كالسهام. يستلقي غانابان على بطنه، جسمه الضخم مرتمٍ على صخرة، يغمر رأسه في المياه المثلجة؛ ينخرُ، ويعاود غمره. بوسكابيدا يقلده، على الرغم من رعشات البرد التي تسري في جسده. هو أيضاً يشعر بالانزعاج من الخمار في بوابة المعدة، من سقف الحلق اللزج، من الذباب الذي يطنّ في الجمجمة. يحتاج إلى مشط؛ لا يجده. يهز رأسه مراراً. يضغط على أجفانه بأصابعه. عندما دخلا ليتناولا القدح الأولى، كان القمر قد ارتسم هائلاً، في جانب من السماء. حين خرجا، كانا قد استهلكا ثلاث زجاجات من النبيذ البرازيلي، والقمر كان لا يزال موجوداً في مكان آخر، ولكن يوماً جديداً كان قد طلع. لم يكن قد ذهب بعيداً، ومع ذلك، في طريق السكرة المتعرّج: ناما على الطاولة حين بدأت لتوها مرحلة شتائم الخالق، التي تلي فصلَ شتائم السلطة، قبل الوصول إلى تمجيد القادة المُطاح بهم أو المنقرضين، وقبل فقدان الاستقرار وإنكار البرهان بوقت طويل.

يستلقيان على ظهريهما، الآن، ليستقبلا أشعة الشمس الشاحبة بوجهيهما. على صخرة عالية، ترتاح حقيبة بوسكابيدا الكرتونية، مغلقة بقفل، وفوق الحقيبة يرقدُ مطوياً بعناية، كيس بذلته، بطيتي رقبتها العريضتين والحادّتين وأزرارها الكثيرة.

– قلت لك بأنه ليس ممكناً — تمتم بوسكابيدا.

-مراتٍ أخرى استطعتُ- يقول صوتُ غانابان الأجش متمتماً. يحكُّ بطنه بالإبهام من خلال ثقب في القميص.

عند مخرج المقهى، حاولا التسلل إلى المخزن، حيث يدفعون جيداً مقابل حمل الأكياس. كانا في الطابور أمام بوابات الميناء، وطردهما رجل. سألهما ماذا يفعلان هناك، ومن هما، وطردهما. لم ينتظر الإجابة. كان الآمر، ولا يرمش أبداً: كان يبدو غاضباً، حتى في التقبيل.

- أنا رأيته وانتبهت – يقول غانابان-. كنا ستة عشر في الطابور ودخلت لدراسة الأمر، لأنني أعلم أنّ بين كل عشرة رجال هناك ابن عاهرة.

" هيه، يا غانابان"، يقول بوسكابيدا، ضاحكاً وحدَهُ فجأة. يسبر بوسكابيدا وقبضته اليسرى أمامه، يستكشف بوسكابيدا دفاعاتِ خصمٍ لامرئي، يقول: " أتتذكر عندما ضربنا الجنود؟"، يوجه ضربة يمنى من أسفل الذقن في الهواء، يضحك: "هل تذكر الضربة القاسية التي كِلناها لهم؟"، يضحك كل مرة أكثر ويسعل: " متى كان ذلك ياغانابان؟"، ويسعل كثيراً حتى ليجلس كي لا يختنق.

-هذه القاعدة لا تخيبني أبداً – يتابع غانابان، أصمَّ، ناظراً إلى ألوان سماء الخريف الكهرمانية المتوهجة. هكذا كان دائماً تاريخ البشرية. هكذا كان يجب أن يكون هناك على الأقل ابن عاهرةٍ واحد. وبالفعل كان.

يمرر غانابان إصبعه على الندبة التي تقطع وجهه: حد أبيض يشطرُ الجلد الأسود المشع شطرين: هو لا يتكلم أبداً عن ندبته، ولكنه يتفاهم معها.

" هل تذكر يا غانابان؟، يُصر بوسكابيدا، وهو لا يزال يضحك ضحكة متلعثمة، على انفجارات بالضحك والسعال متباعدة في كلّ مرّة أكثر، مثل مُحرّك نفدَ منه البنزين: " هل تذكر عندما هرسنا رجال الشرطة أولئك؟"، وينطفئ رويداً رويداً: " أتذكر؟".

لم يعد يهزّه فواقُ الضحك، وينظر بحزن إلى البحر، وذقنه على ركبتيه المرفوعتين، وذراعاه متدليتان؛ ينظر إلى مناطق التيارات الداكنة، رواحُ وغدوّ الموج البطيء بلحى زبده. تؤلمه رئتاه ويؤلمه ضرسه. الضرس اللعين يؤلمه دائماً عندما يتذكر أن ليس لديه نقود، ويجعله يفكر بأن الكلاب تعيش أحسن من المسيحيين، ولا يوجد غرابًا ولا نبيذ متاح للمعدة كي يهدئ الأعصاب. يُخرج مسواكاً من جيب البنطلون الصغير ويخز ثقبَ الضرس المدمَّر.

- لو أنّ للمرءِ سنّاً واحداً على الأقل لكان له ...
- كالسيد إيديولا، أليس كذلك؟

يهزّ غانابان رأسه بالموافقة.

- في كل فمه كان عنده سن واحد.
- كان يملك هذا الحظّ.
- يمكن للمرء أن يعيش من فضيلة أو من عيب.
- لكن يجب أن يكون مهمّاً جدّاً.
- كانوا يدفعون للسيد إيديليو من أجل هذا. كان يضربُ سنُه بملعقة صغيرة فتصدر موسيقى.
- كان يعزف النشيد الوطني كاملاً لمنفعته الحصرية.
- هذا كان يعطيه ما يدبر أمره به.
- كان يعيش جيداً.

-العيش الجيد. العيش!
-العيش أصعب من تقويم قضيب خنزير.
-وصحيح.
-مهنة نادرة هي كسبع مهن.
-لكن...
-أنت، بهذا الناب الذهبي، قد تستطيع أن تعـزف بعـض الكونشرتات البربرية.
-باختصار، بالنسبة لفائدتي منه. كنت أستخدمه كتعويذة. ولكنه لا يحميني.

يداعب بوسكابيدا الزغبَ المُتهدّل على جانبي فمه:

-بيع دم، لا يمكن. أنا كنت هناك الأسبوع الماضي. وأنت؟
-منذ ثلاثة أيام.
-لا يقبلون بك بشكل متتال.
-القوّادون، يتحكمونً.
-وهم ماذا يهمهم؟ هل تريد أن تقول لي؟
-وما أدراني؟ قد يكون دمـك أكثـر شعشـعة. كأنـه كذبـة، هكذا. لا أعلم.

يقف بوسكابيدا على صـخرة. ظهـره للبحـر، يحـرك يديـه مستجوباً المدينة:

-هل نحن غجر؟ ما نحن؟ ألا يوجد أيّ مكان لنا؟

يرمي غانابان حجراً إلى البحر. يطيل الحجرُ في الفضاء خرافة اليد البارعة.

بعيداً، بعض الأطفال يتدحرجون ضاحكين في منحدر التل؛ تسرع السيارات في الشارع؛ عجوز رث يرتدي سروالاً قصيراً مهلهلاً، يزيت مسننات ألعاب المنتزه. حرف رفش يخترق أرض المقبرة الجافة. تسّاقط الأوراق عن الأشجار، تحومُ في الهواء، تسقط بنعومة على الأرض.

-جَمْعُ زجاجات وحديد قديم - يقول غانابان- ما عاد يُطعم. هناك الكثير من المنافسة. يمشي الجميع وأنوفهم غائصة في القمامة. شيء مقرف، أنا تقاعدت. ليس من اللائق حتى بالخنازير أن تنكش في القمامة. إذاً، ماذا؟ أبيع الصحف؟

-كم بقي من الذين يعرفون القراءة بسرعة؟

-إذا، ماذا؟ تلميع الاحذية؟

-لا يمنحك مالاً حتى ما يغطي ثمن الملَمِّع.

-لاقتلاع الأعشاب الضارة، من يدفع؟

-أوراق يانصيب، من يشتري؟

-تأجير سترة عند مدخل الكازينو؟ أي سترة؟

-أنا عندي سترة.

-يتركونها لك على الطاولة الخضراء.

-إجراء سحب على الراتب؟

-أيّ راتب؟

-بيع أشعار عن الأموات المشهورين؟

-الأموات المشهورون ممنوعون.

-وفي الورشات؟

-وفي المصانع؟ وفي المكاتب؟

-كم جبت يا غانابان؟ ألم تكن تذهب لتنتظر الصحف اليومية في الثالثة فجراً؟ ألم تلطخ أصابعك بالحبر الطازج؟

يمشيان باتجاه مكب النفايات. كلب مهجور مثلهما، يُلاحقهما. هو كلب أرمص وأبتر ومصاب في ظهره.

يجلس الكلب على قائمتيه الخلفيتين ويرفع أذنيه: سيبدأ العرضُ. الأرض البور مليئة بالعلب والحجارة والأشواك، تنفع كخشبة مسرح.

بوسكابيدا، واقف مفتوحٍ الساقين فوق صندوق بيرة، وضع على رأسه قدراً مسوداً ومضعضعاً على طريقة القبعة عالية الطربوش، ويستخدم قطعة من عصا مكنسة كسيجار. عند قدميه، غانابان على أربع، يعض الغبار: عدة لفات من سلْسة تربطه من رقبته. يمسك بوسكابيدا بيده اليمنى سيجارَ العصا؛ ويقبض بيده اليسرى على طرف السلسلة، ويهز غانابان ضارباً بها ظهره. يصرخ بوسكابيدا، من هناك من الأعلى، بصوت حاد، بإيقاعات مختلفة، مثل أسطوانة موسيقية تدور وتغير سرعتها وكل سرعاتها خاطئة: يسأل عن الاسم والكنية والعنوان والعمر والحالة الاجتماعية والمهنة والسوابق والأمراض والدين والأفكار السياسية، والميول والتفضيلات والمراجع.

غانابان ينبح و يموء وينعق ويقرقُ وينهق ويقبع ويخور.

كان يدوي مردّداً في المقالع، مطلقاً العنان لِصخَبِ طيور. يرتفع من وراء المقبرة عمودُ دخان أبيض؛ ينبح الكلب باتجاهه ويجري عصبياً، يحومُ دون أن يتجرأ على الهرب. يركل بوسكابيدا مؤخرةَ غانابان وينزلُ بقفزة واحدةٍ عن الصندوق الخشبي. يتحول القدر إلى قبعة من ريش؛ يلقي بوسكابيدا التحية على الكلب بانحناءة. يضحكُ على الفور، فيومضُ الناب في الشمس، لكن غانابان ينتصبُ بوجه غير ودّي. غانابان: طويل

وعريض وأسود. ينظر إليه بوسكابيدا بعين من الريبة: تنثقبُ الإثارُة مثل منطادٍ تعب من الطيران.

يجلسان كلّ على جانب من الكلب الذي كان قد نسي الانفجار الغامِضَK وراح يلعق قدميه بعناية. يدخنان السيجارة الأخيرة المُتبقّية معهما: يتقاسمانها، هذا سحبة واحدة وذاك سحبة أخرى. يفرك غانابان أجفانه. يسأل، لكن لا أحد هناك:

-والسماء، هل ستكون هكذا أيضاً؟ هل سيكون هناك بلدان حزينة في السماء؟

-أيشغلك الأمر؟ - يلقي بوسكابيدا حَصياتٍ على حقيبته، الواقفة على بعد أمتار قليلة من هناك-. تذهب في الماء إلى ميناء جيدٍ. إذا كنتَ لن تطأ السماء أبداً. هناك أيضاً لن يدعوك تدخل.

-بماذايجب أن يتنكر المرءُ ليصوِّب الحظَّ؟

-ما ذنب الأذن في أنّها ُخُلِقَت مُثقَبَة؟

-لعله القدر.

-القدر: المكان الذي يريد الوصول إليه أول أعمى يضيع في الزحام. القدر.

- المدينة الكبيرة. إلى هناك كنت ستذهب الليلة الماضية يا بوسكابيدا وها أنت قد نسيت الآن. إلى المدينة الكبيرة. وإن أنت لم تذهب، فقد كان ذلك بسببي - يقول غانابان، عابساً، وراحتا يديه على نقرته.

يتكئ بوسكابيدا على كوعه:

-وما الذي يجنى من هذا، أتقول لي؟

كل شيء يُجنى منه. انظر إلى من ذهبوا. هناك يوجد احترامٌ آخر. هناك يوجدُ عمل. تنزل من القارب وتبدأ العمل فوراً.

لا يعطونـك وقتـاً ولا حتـى تـترك الحقيبـة. وأسـعار الأشـياء منخفضة، لكن مُنخفضة إلى حدّ أنّ على المرء أن يشتري منحنياً.

يستمرّ غانابان بالكلام، الكلمات ملفوفة بآخر دخان لآخر سيجارة:

-كم عدد الذين ذهبوا يا بوسكا؟ أنـاس علاقـاتهم واسـعة، أطباء وغيرهم. والفقراء؟ جميعهم يذهبون. مدينتنا هي مدينـة أنـاس يقولـون وداعـاً. أنـا لا أقـول لـك أن...، مـع كـل الصـبية ... بوجودي، يأكلون خضاراً مُقلّبـة. إن ذهبـتُ، فسـيكون علـيهم أن يقتاتوا على رحيق زهر العسل.

على جانب الأرضِ البور، على سقف ترام مهجـور، ينـام قـط في الترام، وهو هيكل تأكّـلَ بالريـاح والرطوبـة والملـح، يعـيش أنـاس؛ هناك ملابس منشورة على سياج الأسلاك. ولدٌ حافٍ، مع حقيبة علـى ظهره، يُسلِّمُ من بعيد ملوحاً بيده. للحقل الصغير زهر الوزّال.

-ضاعت البطاقةُ يا غانابان.

-هذه هي الحقيقة القاسـية. علـى الـرغم مـن الـزمن الـذي استغرقه معك جمع تلك النقود.

ينظر بوسكابيدا إلى أظافره، ينفخ عليها ويلمعها بفركها بكم السترة:

-لا أهمية لذلك — يقول.

-ولكـن البطاقــة كانــت لــك. أنــا أخــذتُ بطاقــة أخــي بوسكابيدا. فعلتها معه، فعلتُها، وهذا لا غفران له عند الله.

-ليتذكر، الله، بأنك موجود على الأرض.

-بجدية، أقول لك.

-حسن، من كثرة ما تودعنا راوحنا مكاننا في النهاية.
-علينا ألاّ نكثر من الوداع. في هذه الساعات، كان يجب تكون في المدينة الكبيرة. أمر لا يغتفر. ولم يكن بسبب الضرورة، أن ...

يهزّ بوسكابيدا رأسه، مُصدراً حكماً:

- علينا بالقليل من الوداع، لا أكثر يا غانابان. قليلاً. هذا ما يحصل. وإلا، كأس يذهب وكأس يأتي، لا الوقت يسنحُ ولا المال.

يخلع غانابان نعليه، يقيسُ الثقوب في أرضيتهما. ينحني محاولاً، دون فائدة أن يسدّهما بقطع كرتون أو جلد مرمية هناك. يقول:

-أتريدني أن أقول لك؟ أنا لم أُفكّر في أن أراك. لقد وجدتك. حتى أنّني لم أكن أُعرف أنّني سأشجّك.
-لسبب ما التقينا يا غانابان. لسبب ما فاتني القارب. لا يوجد خزي؛ يوجد فظائع.

يمرر بوسكابيدا لسانه على شاربيه الخفيفين:

-الأعلى والشيطان هما قصاصتان من نفس الجلد. ما أعرفه أنا، هو ما يُرى. ويبدو أنّه قُدّر عليكَ يا غانابان أن ترافقني في مغامرة ما غامضة.
- بلى، ممكن. في الليلة الماضية انتابني إحساس. كان هناك شيء مهم جداً بانتظاري. لم يكن عيد ميلادي، ولكن هذا كان في الهواء.
-موجود يا غانابان. موجود في الهواء — يقول بوسكابيدا، شامراً أنفه ومُغمِضاً عينيه –. يُشَمّ.

عندها ينهضان ويمشيان، صاعدَيْن في الشارع، باتجاه الساحة. يهرول الكلب خلفهما، مُقَوَّس الساقَيْن مثل غانابان، مشتمّاً أشجاراً وأرساغاً.

يختبر الصديقان نفسيهما بتجريب توازنهما على طرف الرصيف: ليلة الجرعات صارت خلفهما، حواسهما الخمس انتعشت: يشعران بالعطش وبالحاجة للإبداع. يحلم غانابان بأنّهما يذهبان ليبحثا عن كنز أخفاه اليسوعيون، منذ قرون، في كهوف الصخور، ويذهبان مسلحين لأن الكنز تحميه أفعى.

-غانابان يا غانابان – يضحك بوسكابيدا، يستمتع بضحكته، يضحك – هل تذكر حين قمنا بضرب رجال الشرطة؟ كيف تركناهم يا غانابان!

يضحك مقهقهاً، حانياً جسمه، ممسكاً ببطنه بكلتا ذراعيه: " لم يكن ليعرفهم ولا حتى أمهاتهم!".

ملفوف في خرق وصحف، ينام طفل محشور بباب السينما. تتنافسُ العصافيرُ علىً فتات الخبز تحت أشجار الموز الوارفة. تُسمع أصوات تُسوِّق فاكهة طازجة وأخبار اليوم.

6. المدينة

تتأخر الريح في سَوْق السحب، وللجوع مخالبٌ تخدشُ نسيج المعدة. يتفحص المتسولونَ عند مصب المجاري فضلات المدينة، وينتظرون أن يظهر، بمعجزة، عائماً في القذارة، خاتم ما من ذهب.

تعج المدينة بمُتسولين وعمال بلا قمصان ولا إيمان، بينما يرفع المُسْتَجْوِبون والجلادون راياتهم والسلطة تتقدم في مكبات النفايات. أقزَام يحيطون بمراوحهم بالسلطة؛ يطوقهم الخيالة الملثمون من فرقة الموت. السلطة قادرة على جميع الجرائم إلا التي تتطلب شجاعة. تفترسُ أبطالاً وتتغوَّطُ مجانين. حتى أعمدة البرق تنحني عند مرورها. السلطة تفتتحُ سجوناً في أول يوم من كل شهر. العدو يريد عالماً بلا مُلاّكٍ ولا محظورات، والسلطة تُحَذِّر: العدوَّ يحاولُ أن يجعلنا نصدّق بأنه غير موجود، ولكن من هو الذي ليس خطراً على النظام العام؟ العدو يتسللُ، يُعَشِّشُ، يُسمِّمُ ويحاصر: له رائحة كبريت، وقرون، هو كائن ليلي وشاب وكثير.

الجوع خنجر بطيء، يمزق الأمعاء.

مجنون يلاحق في الشوارع الصدى الذي أضاعه حين كان طفلاً، وامرأة وحيدة تشعر بالدموع تنقضّ على رموشها وتبحث عن مكان لتبكي ولا تجد.

رجل يركع، يائساً، ويلعقُ الجدار.

7. العودة

يلوح البحر في أسفل الشارعِ، ويبدو أن السفن تبحر على الأسطح. تلامس النوارس الماء، تقتلع منها وَقْع سوطٍ، تعاود الطيران مفتوحةَ الأجنحة. تشرعُ مراوح سفينة بالحركة، بإيقاع

ناعم، المياه وحلٌ؛ تضرب الأمواج العارضة ببطء. حُلَّت في هواء الصباح الجديد خصلاتُ الضباب التي كانت تتموج عند الشروق، كأذيال حصان، بين الصواري. مُتَسَكِّعٌ يجمعُ، خلف مبنى الجمارك، قطع حطبٍ استخدمها لتسخين ماء المتة. يرفع قطعة فحمٍ ويرسم على الجدار خربشات مبهجة.

في أعلى الشارع كادُ مقهى المنعطف يكون فارغاً. نور النهار يرتطم بزجاج الباب ويتكسرَ إلى عدة حزمٍ ذهبية. في دفقات الضوء يهيم ويطفو الغبار والدخان متكاسلين.

يريدُ ماريانو بنظرتهِ المغروزة بقاع الفنجان الفارغ، أن يَفكَّ لغز ثُفْل القهوة، ولا يستطيع. ثمّ يفكر بشيء آخر فيقشط الثقل بالملعقة الصغيرة، ويرسم مُحيطَ وجهٍ، ويطنطن بها على الفنجان؛ بعدها يرفع نظره؛ ثم يراها تصل وتدخل وتأتي: يرى عينيها محولَّتَيْن، تغيّر لونها حسب الضوء أو المزاج وتشتعلان حين تكتشفان أنه جالس هناك، على الطاولة الخلفية، ينتظرها، يرى مطرَ شعرها الأسود التي تفرده الآن. يراها تنسابُ كقارب، ماشيةً، مبحرةً بين الطاولات والمرايا.

تقف كلارا أمام ماريانو وتقول: "مرحباً". هي أرادت أن يكون من الممكن التظاهر بأن الوقت لم يمر، وبأن شيئاً لم يحدث. تجلس بالعكس، معانقة ظهر الكرسي، ذقنها على ظهر الكرسي، فيجيشُ صدرُ ماريانو، ماريانو يفكر: إنه لمن حسن الحظ أنها لا تزال موجودة.

تعض كلارا على إبهامها. تقولُ بعد برهة ليست قصيرة:

-إذن عُدْتَ.

وتقول:

-هذا خطير.

يرفع ماريانو كتفيه:

-مر وقت طويل.
-ليس طويلاً. ليس طويلاً إلى هذا الحدّ.
-بما يكفي.
-أي أحد يـ...

وتقول:

-هل تظنّ أنك تغيرت كثيراً؟ إنك مضحك بهذه الشوارب. وأشقر! عرفتُكَ فوراً.

هذا مكان هادئ. هو ينتظر الكلمات، يُغَلّفها، يسوقها. يجلس ماريانو وظهره للحائط، ويشعر أخيراً بأنه قادر على التنفس دون أن يلهث. على الطرف الآخر من ستائرِ النوافذ الصفراء، هناك بقع تعبر هواءَ صباحِ الخريفِ المنعشَ والمشرق.

على طاولة أخرى، بعيداً، رجل عجوز ينكش في الصحيفة بنظّارته. على طاولة البار رجل يشرب مديراً ظهره ويتحدث هامساً مع كأس بيرة: له ساق منكمشة مثل أبي ريش[2]. ينامُ ماسحُ الأحذية في زاوية.

---

[2] Tero: طائر متعدّ الألوان، طويل الساقين، له ريش في خلفية الرأس ولذلك أسميته بهذا الأسم، المترجمة

يطلب ماريانو كأسي نبيذ أبيض مز وبارد. تشرب كلارا على رشفات، تلعق شفتيها وتقول:

-هل تذكر؟ كنت قد طلبت مني أن أقرأ لك طالعك.

لا تصالب الذراعين ولا الساقين، يُوَزِّع ورق اللعب باليسرى إلى ثلاث مجموعات. ورقة حصان الكوبّا[3] . ماريانو يعتمر قبعةَ ريش ويضع قلادة ويرتّدي معطفاً:

-خمسة كوبّا، وضع خطير. ستة ذهبية[4]، مفاجأة. ورقة خمسة العصا، ضيق. كنت لن أراك من جديد أبداً. كان من الغريب التفكير بأنه أبداً.

الأيادي، يبحث ويشدّ بعضُها على بعض. يُخطئ ورق اللعب. مثلنا. مثل سائر الحشرات الحية.

يقول ماريانو:

-ستكتشفين يوماً ما كم من السهل عليهم أن يمحوكِ. يحرقون أوراقَ لعبك، كتبَكِ وأشياءك. يقتلونك أو يحبسونكِ أو يجبرونك على الرحيل. يوماً ما سوف تلتفتين وتكتشفين أنه لم يبقَ هناك أيُّ أثر. كأن شيئاً لم يكن أبداً. الآن، لي اسمْ آخرَ.

تلفُّ الشمسُ الظلالَ وتحملها. للمكان رائحةُ خشبٍ رطب وقهوةٍ طُحنت تواً. عندما يحل الليل، تسود رائحةُ التبغِ.

---

[3] ورقة من أوراق اللعب الإسباني عليها جواد وفارس ممتشق سيفه. م.

[4] ورقة من ذات الورق السابق عليها ستّة قطع طرّة تحمل وجوهاً كالنقود الهبية، ويمكن تسميتها ستة ديناري. وكذلك يعود كل الورق الذي سيرد لاحقاً إلى ورق اللعب الإسباني. م.

- ألهذا عدت؟ ألهذا أردت رؤيتي؟
- وأنت، لا تريدين؟

هو ينظر إلى وجهها، مضاعفاً بمرايا الجدران الخشبية. يرمش وكلارا عارية تحت معطفه الذي يبدو كخيمة عليها ، وتنتعل حذاءه مفكوكاً، وتمشي في البيت، تمشي مثل شابلن، وهي في غاية الجمال.

يهز ماريانو رأسه:

- مشيت اليوم طوال الصباح بحثاً عن مقهى اليوناني. اعتقدت بأنه انتقل، وأنه...
- أنا عدت، في بعض الأحيان.
- وحدك؟
- ماذا؟
- أسأل إن كنتِ عدتِ وحدكِ.

هي تقرصه في فخده وهو يجفل.

- طبعاً وحدي يا أبله. ظهراً، كما في السابق. عدت على الرغم من أن الأمر كانٍ يخيفني. بعدها، اضطررتُ للذهاب، لكنّ المقهى لم يكن موجوداً.

تلتفتُ كلارا بوجهها. فوق الكساء الخشبيّ تلتف بعض قوالب الجص؛ إلى الأعلى منها ملصق لمصارعة ثيران، مُهمل ومتسخ من الذباب. فجأة، تقول كلارا:

- لا أفهم لمَ عدت.

وتسحب يدها. يد ماريانو تبقى وحدها على الطاولة براحتها نحو الأعلى. لديه خط حياة طويل ولكنه متقطع جداً.

- لا أفهم. كنت قد قلت لي: " لن نرى بعضنا أكثر. نحن أحرار". أصبتُ بالوجوم وأنا أنظر إلى ظهرك وضِعتَ في زاوية المحطة. ماذا كنت تتوقع؟ أن أجري خلفك؟ أن أناديك صارخة؟ لماذا كنت أريد تلك الحرية التي أهديتني إياها؟ من أجل ماذا كنتُ أريدها؟

(كان ماريانو يسمعُ رجعَ خطاه ذاتها، وكان رأسه فارغاً نتيجة انتصار إرادته المؤلم، ولكن عند الوصول إلى محطة القطار دخل أذنيه ضجيج آلة التعذيب تقترب، وعندها عرف بأنه سيحتاج منذ تلك الساعة إلى البحارة الغامضين والذين كثيراً ما كانوا يضيعون، حبّاً خالصاً بالضياع، في شعابِ ضباب الذاكرة أو هذه الفتاة. صعد درجات الحديد وعلم بأنها ستصيرُ، من الآن فصاعداً، نقرةً ملموحةً في الزحام أو وجهاً يهرب، صوتاً مُخمَّناً بين أصوات أخرى. بأنه سيلتفت فجأة ويشرع بالركض وسيأخذ امرأة من ذراعها: بأنه سيخطئ دائماً. دخل عربة المسافرين وجلس على أحد مقاعد القش القديمة من عهد الانجليز، وعلم بأنها بقيت هناك: سمع صوت طقطقة العجلات على السكك، وعرف بأنها لا تزال هناك، باقية: في الصيف، في أنفاق أوراق النباتات، تحولت المرأة في مصح إلى خطيب تقودك من ذراعك، أو في ليالي تموز، مالئة كرسيّاً خاوياً في تواطؤ المقاهي المليئة بالدخان. وصل إلى وجهته ونزل، دائخاً، وعالماً بأنها لا تزال هناك تشمُّ نفسها في ذاكرتها، تتسكع عارية في منطقة السهر من أحلامها: حالمة بأنها قد تصير، ستصير، ندبة تدغدغ أحياناً وأحياناً تنبض وأحياناً تحرق وأحياناً تؤلم. وشعر بالحاجة لأن يعود وعلى الأقل أن يقول: " أبداً، لا شيء". على الأقل يقول: " مثل هذا، لا شيء، أبداً". ولم يعد.)

- كلارا.
- نعم.
- أنا.

ترسم كلارا لوالب من رماد على الطاولة الخشبية. فم ماريانو ينكر عليه اللعاب.

- أنا افتقدتك كثيراً، أتعلم؟ - تقول كلارا-. وكرهتك كثيراً، أو أردت أن أكرهك كثيراً، كي لا تجرح مشاعري. أردت رؤيتك عندما كنتَ سجيناً، ولكن لم يكن هناك من طريقة، وأنا لم يكن لديّ من أسأله. وبعدها... بعدها، كنت أشعر بنفسي مثل طلقة تائهة. كنت أستيقظ باكيةً. لا أحب البكاء. عندما كنت صغيرة، كنت أقرأ كتاباً للفتية، فيه صفحتان كانتا تُبكياني. في كل مرة كنت أقرأ فيها تينك الصفحتين، كنت أبكي. لذلك ألصقتهما باللاصق. أنا لا أحب البكاء.

ماريانو يتشردق، يتنحنح، يقول:

- أرسلت لك رسالة. اثنتين. زوج من إشارات الدخان. اتصلت بك.
- بعد ذلك بكثير - تقول كلارا.
- نعم.
- بعد ذلك بكثير وعن بعد.
- لم تردِّي عليّ أبداً - يقول ماريانو.

تضحك كلارا، بدون بهجة. تشعل سيجارة. لا تشعر بأي طعم، مع أنها ليست مزكومة.

- دائماً تقرر كل شيء بنفسك، أليس كذلك؟ - تقول.

وتقول:

- كنت أعلم أن الوقت سيمر وأننا سننسى بعضنا كفاية أو كلّياً.

لوهلة يشعر ماريانو بالرغبة بالرد بشيء قاس وقاطع، كما لو كي يُساعدَ القدر المزعج على أن يكتمل، ولكنه يُخرج النظارة، يعضّ على ذراعها ويقول:

- لم ألجأ إليكِ. تخليت عنك، كما في روايات القرن الماضي المتحذلقة، أليس كذلك؟ يأتي المريض الذي لا خلاص له من عند الطبيب ويقول للمرأة التي يُحبُّ: " لم أعد أحبك".

عنكبوت صغيرة تمشي على الطاولة؛ تتسلق يد كلارا، تمد جسراً من خيط بين أصابعها. تبحث كلارا عن عيني ماريانو:

- كنت قد قلت لي أشياء فظيعة. من قبل.
- لا.
- كنت قد اتهمتني بالحاجة إليك.
- لا. لا.
- كنت قد قلتَ لي...

تنفث سحابة دخان، تلاحق بها ذبابة.

- لا بدّ أنّ لديك الكثير مما تحكيه – تقول.
- وأنت.
- أنا؟ ليس كثيراً.

-أفترض بأن أشياء حدثت لك — يقول، يستكشف، يسأل ماريانو- في كل هذا الوقت...

- تحملتُ - تجيب، تتملص، تنغلق كلارا- لم أمت في غيابك. بالنسبة لي كان الأمر سهلاً، أليس كذلك؟ أتتذكر؟ كنت تقول لي بأن لي جلداً من قماش مضاد كتيم، وبأن كل شيء كان ينزلق عني و... أنا بقيت هنا. بقيت. بلد يُهدم. أنتظر أن يتهاوى فوقي ويسحقني.

تسمع كلارا صوتها ذاته يتردّدُ جميلاً في داخلها:

" لن تبكي يا كلارا"، صوتها ذاته: " لن تبكي، لا"، رافعاً ومتحملاً إياها كي لا تتعثر وتقع. من عينيها لا يخرج شيء. ولا من فمها. على الرغم من أنه قد يشعرها بالراحة أن تقول: "لا أحب أن أكون وحدي. لم أكن وحدي. لا أحب أن أعاني. محوتُكَ. لست بحاجة إليك".

يُسَمّرُ ماريانو نظره على ألواح الأرضية الخشبية، في قذارة أيام عديدة بلياليها، بقع الكحول أو القهوة، أعقاب السجائر المطفأة بالغبار الدهني.

-أنا لا أريد أن ينتظرني أحد — يقول- لم أكن أريد.

-حتى لا تشعر بأنك مجبر على انتظار أحد — تقول كلارا- لهذا السبب.

-ممكن. لا أعلم. ممكن — يقول ماريانو، ويقول-: لا يهم.

راحتا يد كلارا تشكلان كأساً يمسك ويضغط على عضلات الوجه. ذلك الوجه الذي بدا أنه لم يتغير. لو يستطيع، يفكر ماريانو، أن يكون أقوى من الحزن والنسيان. لا أريد أن أبدأ من جديد مع تلك الحروب

الصغيرة غير المُجدية: قلت لي، قلت لك، لم يكن ذلك، نعم كان، أردتُ أن أقول، لا، لم أردْ، بلى أردتَ، لا. لا أريدُ أن أكون آذيتك. لا أريد أن أدافع عن نفسي. لو أني أستطيع أن أقول لك إنّكِ كنتِ في السجن حريتي الوحيدة التي لم يكن باستطاعتهم أن يقتلعوها مني. لو كان بالمستطاع أن أراك حتى إلي الآن والبهجةُ تُطلق شرراً من جلدك. أتعلمين؟ لو كان بالمستطاع. كان اغتيالاً. أعرف ذلك. أو لا. الحب كان إلهاً بدائياً: كان يوجِب عليّ تضحيات: كان قد مات من الجوع.

- ما زلت لا تخبرني.
- ماذا؟
- لماذا عدت؟

ينظر ماريانو إلى السقف. أقول لك: كنتُ أشعر بأنني سارق. أقول لك: كنت أستخدمُ حرية لم تكن لي. ثمَّ، لماذا يعود الحيوان البري ليشرب من مياه المسيل؟ لكنه لا يقول شيئاً.

- أتريد أن أقوله أنا؟
- لا. لا تسأليني. لا أحب أن يوجهوا لي أسئلة.
- أعرف. تشعر كما لو أنهم يأمرونك، كان عليّ أنا أن أعرف ذلك. لا تزال تعيش مدافعاً عن نفسك. كما في السابق. في السابق أيضاً كنت أحب ذلك. ولكنني تغيرتُ يا ماريانو، تغيرت.

كان بودّ ماريانو أن يُقبلَها أو أن يحطّم وجهها. بالمقابل، يقول لها: " آسف". يضغط على الكأس بين أصابعه. ينظر إليها وهي تنظر إلى أظافرها المأكولة؛ يراها تنظر إليه كما لو أنه شفاف، وودَّ أيضاً لو أن الوقت لم يمر، ولو أن شيئاً لم يحدث. حتى أيّ عمرٍ يمكن الاعتقاد بأن

الليل هو إلهٌ مقاتلٍ وليس نتيجة دوران الأرض؟ يشعل سيجارة: يؤكـد أن نبضه لا يزال سيئاً. يطلب المزيد من النبيذ. يمكنُ القول إنـه عـاد ليفعـل شيئاَ من أجل بلده المسكين، ومن أجل ما يستحق أن يُنقَذَ؛ وهذا سيكون حقيقة. ولكنه سيكون فقط جزءاَ صغيراَ من الحقيقة.

-كان الواحدُ يقول: " لِنَشرب نخبَ المـرة القادمـة"، وكـان في أعماقه يعرف أو يخشى: "لن يكون هناك من مرة قادمـة". مـا نحـن يا كلارا؟ أشـباح سـكرانة تمشـي هنـاك؟ مـا نحـن جميعـاً؟ أيُّ خـراء نحن؟ لماذا ينهار كل شيء دائما؟ ألا نستطيع أن نفعل شيئاً يدوم؟

يشعر ماريانو أنّ في أعمق أعماقه تبـزغُ الحاجـة لأن يـتكلّم، لأن يحكـي لهـا . السجن. الأهمية الكونية للبطانية والتفاحة. ذاكرة وجهـك. كـان فضـاء وجهـك الوجيز يتَّسِعُ لكلّ حريتي، ويفيض منه مكان. يحكـي لهـا: " ولكـن الوجـوه تتحرر وتذهب . في ليلة ما تطلبين مـن الـذاكرة وجهـا والـذاكرة لا تفـرز شـيئاً. هذا هو الموت. عـدم القـدرة علـى التـذكر. هـذا". يحكـي لهـا: "علقوني علـى صليب خشبي، وساقاي مفتوحتان إلى حد الانفلاق". يحكـي لهـا: " أن أحـداً كان قد كتب على جدار الزنزانة: في الخارج دائماً آمنوا بك".

يتكلم معها، يحكي لهـا، يقـول لهـا: يبقـى فارغـاً. ولكـن سيكون له وقع التوسل أو الابتزاز.

- لماذا تفسدُ الأشياء دائماً؟ في أيّ لحظة تفسد الأشياء إلى الأبد؟

تنظر كلارا إليه وهي تعض على بـراجم أصـابعها. فجـأة تطقطـق أصابعها وتفتح الحقيبة، وكأنها منزعجة، وتخرج مفكرةً سوداءَ الغـلاف. يرمش ماريانو: إنّها مفكرتها الممزّقة للهواتف والعناوين. تداعبها بيـدها.

الغلاف مرنٌ ومُشقّق. تقلّب بإبهامها صفحاتها. من الألف إلى الياء. تنظر إليها دون رغبة؛ تفتحها. تغلقها.

-إذن نجت.

-عدة أشياء نجت. إنها مفككة جداً. عليك تبيضها. أنا لم أتحمس للمسها.

-وأنا أيضاَ لم أجرؤ. أخاف.

ويفكر: والاسطوانات، والكتب، ماذا حلّ بها؟ تذمُّرٌ من الساكسوفون، رشقات قيثارات، بصمة ألكترونية مطبوعة على صفحة، التمائم التي أهدتها إليّ النساء اللائي أحببت والرجال الذين كانوا إخوتي: رصاصة عيار 22، حصاة شفافة للضغط عليها بين إصبعين وإبعاد الفاجعة، حلزون ملَوّن، فرس بحر صغير: بلى، قلتُ لك: لا يهم فقدان الأشياء، الأشياء لا تعني شيئاً. ولكني الآن أتساءل: تلك الأشياء التي أحببتها، ماذا حلّ بها؟

هذه المفكرة. هذه المفكرة:

-كلها مليئة بالأموات يا كلارا، وبأناس غادروا. يمكنني أن أقول لك: لقد عرفتهم، وبالتالي ليسوا أمواتاً؛ عرفتهم، وبالتالي ليسوا بعيدين. ستكون كذبة باغية.

إنهما عطشانان. يطلبان المزيد من النبيذ الأبيض، ثمَّ المزيد. كل واحد يحس بركبتي الآخر تحت الطاولة؛ السيقان تتحرك، تتمدد، تتشابك. يدخنان الآن من السيجارة ذاتها. الآن ليسا بعيدين كثيراً عن الزمن الآخر، حين كانا ينامان متعانقين ولا شي كان يستطيع تدميرهما، وهذه الحماقة كانت أفضل من الذاكرة والأيام التالية، وكانا يستيقظان

فتلتقي العيون ويفكران: مسكين الأعلى الذي لا يمكنه أبداً أن يكون هكذا، نظراً لأشغاله.

تُرجع كلارا رأسها إلى الخلف. هو ينظرُ إلى قوس رقبتها الطويلة والمرنة ، الخالية من الأطواق، حافة البلوزة: تحت هذا القماش الأزرق، في الشقوق التي تؤدي إلى الكتفين، هناك بعض النمش. كان من الجميل الطواف والاستغراق فيها.

تلعب سارة بخصلة شعر، تصنع منها شارباً، تعضه. هي كانت منذ نعومة أظفارها بهلوانة: ترتدي دائماً ملابس أشقائها الكبار، وتعتمر قبعةً واسعة الأطراف على رأسها، وتمشي حافية، ودائماً كان ينكسر إبهام قدمها في القفزات القاتلة.

تقول كلارا:

- ماريانو.

وتقول:

- داعبْ وجهي. هكذا. هكذا.

يشعر ماريانو بجلده يفترُ تحت راحة يدها المفتوحة وهي تحني رأسها وتلمس قفا يده بشفتيها. هي تقول:

- كنت أريدك أن تعود. بلى، أردت. أردت، أيها القرصان.

ينهضان بعدها، وبعدها يخرجان. ماريانو يعرجُ بساق واحدة. ظهرها يشعر بالبرد فيرفع لها سحّابَ البلوزة.

8. تسكعات غانابان

يسير غانابان وبوسكابيدا وجيوب بنطلونيهما إلى الخارج، كأعلام احتجاج. الريح التي عصفت من الجنوب وهبت في عصفات مستعرة ، تُلهبُ جيوبهما وتضرب قماش البنطلونين ببطات أرجلهما. الساحة مغطَاة بأوراق جافة متساقطة من رؤوس أشجار الموز. الخريف يخشخش تحت أقدامهما؛ ورقة ترتفع، تُحلّق، تلامس وجهين.

كلا الصديقين يشعران بالحاجة إلى التدخين في جسميهما. حين يصلان إلى الزاوية، يقول بوسكابيدا:

-انتظرني هنا، سأعود حالاً. أنتَ ليس لديك حضور جيد.

الكلب يقضم عظمة؛ يبقى مع غانابان. ترك بوسكا الحقيبة.

عند منتصف كتلة البناء، يدخل بوسكابيدا إلى دكان سجائر. هو ممر ضيق، بطاولة عرض مليئة من أقصاها إلى أقصاها بعلب السجائر والشوكولاتة وأقراص السكاكر الصغيرة وقطع الحلوى الملونة، وسلاسل مفاتيح مع سياط رعاة السهوب، وبطاقات بريدية وأشياء مبتذلة للسياح. المجلات الإخبارية والمصورة معلقة من الأسفل بملاقط غسيل. مالك المتجر يضع إبهاميه في طرفي شيّال البنطلون، وراحتا يديه مفتوحتان على طريقة التقدمة، كمسيح على أيقونة، ولكنه سمين وشكاك: كرتا عينيه تنزلقان من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار، من بين أكياس الجفون البنفسجية: يراقب تحركات بوسكابيدا. إنه رجل بحاجب واحد وشاربين خطّيين؛ لا يرد التحيات. يبتسم بوسكابيدا له بنابه الذهبي: قلب صغير مخروم يسمح برؤية بياض السن. يغمزه، ويسند كوعه على حافة طاولة العرض. يجبره على الانحناء نادهاً إياه بالسبّابة ويسأله سرّاً: " هل هو من حرير، طويل جداً، مُزيغ للنظر، يُلبس على الوجهين، مُقاوِم؟". يحقن بوسكابيدا الكلماتِ في أذنه والسمين يطأطئ أكثر لأنه لا يفهَم، حتى أن وجهه أصبح خارج طاولة العرض وينظر إلى اليمين: " أليس لديك واقيات ذكريّة دنمركيّة؟ هل حقّاً ليس لديك؟ ولكن لا تقل لي هذا! واقي ذكري دنمركي؟"، وحينها كان ذراع بوسكابيدا الأيسر قد تحول إلى صنارة صيد والخطاف قد علق، بسرعة البرق، بضعة علب سجائر من دخان أشقر مفلتر وعلبة فستق بالشكولاتة صغيرة.

في هذه الأثناء، كان أنف غانابان ملتصقاً بزجاج دكان آلات موسيقية معشق. هناك إلى الداخل تستريح، في صندوقها المعدني، موسيقى كالتي يحتاجها هو. تنزلق نظرة غانابان على وركي قيثارة كهربائية لامعَيْن، وتقع على شريحة طبل أكرش محاط بنايات كرؤوس نجمة. بوق كبير وعدة أبواق صغيرة تكمل المجموعة. نشر نَفَسُ غانابان غشاوة ضباب على الزجاج، ويسمع غانابان قرع طبول، المدينة المحاصرة تستسلم، ترررراان- راتران- ترا- تران، الجنرال غانابان يتقدم، يترجّل، جزمته المتسخة بالطين تدوس على أعلام وسجّادٍ قرمزي، يشقّ طريقه، يتعرق بغزارة، الذي لا يقهر، ابن المجد، يمزق ستائر بالسيف، لا يزال يشعر بحرارة الحصان في فخذيه، العملاق غانابان، الخجول، المحبوب، يطل من الشرفة، لباسه العسكري ملطخ بالدم، أزرق لباسه، مزخرف بالفضة وبميداليات ضخمة تثقل صدره، غانابان لامع بنور ذاته، الحشد يهذي، فريق المدفعية يشعل الفتائل، تنفجر هتافات الترحيب، هو يرفع ذراعيه، التصفيق، أزهار بيضاء تتطاير في الهواء، تطير فوق الدخان والناس، هو يبتسم وهو يفهم وهو يسامح ويمسكه بوسكابيدا من كوعه ويقول: " هيا بنا". سيارة تدور حول الساحة؛ يصيح المحرك: " أنت كاذب يا غانابان". يحرك النسيم أوراق الأشجار؛ الخشخشات الجافة تتهمه: " ، أنت جبان، يا غانابان ". يدخل الكلب بين ساقيه، نابحاً ومردّداً صدى: " كذاب، كذاب!". "جبان، جبان!" يركله غانابان على أضلاعه. يزعق الكلب ويركض نحو النافورة وينبح باتجاه الملائكة البرونزية، التي ترقص رقصة الحلقة ممسكاً بعضها بأيدي بعض. تريه الملائكة مؤخراتها الخضراء الداكنة بفعل زنجار الأحوال الجوية.

يجلس بوسكابيدا وغانابان على مقعد خشبي. في يد بوسكابيدا اليمنى لفافة ورقٍ كبيرة. لا يتأخر الكلب في العودة، أذناه إلى

الأسفل، ويتمدد عند قدميه. يفكر غاناباn بأن السماء فارغة. يعرض بوسكابيدا غنائمه؛ يلقي فستقاً في الهواء ويخلطه، فمه مفتوح. يسأل وهو يتلقفه، وفمه ملآن: "وأنت، ألا تحبه؟". ولكنه لا يدعو.

يعرض على ركبتيه لافتة مرسومة بأحرف حمراء دقيقة على خلفية بيضاء: يجري السحب. إنه فخور بغزوه، ينظر إليه غاناباn بطرف عينه ويعلق، بازدراء:

-وماذا يعني هذا؟

يهز بوسكابيدا رأسه:

-خسارة أن أمك أجهضت بك يا غابان. أنت لا تتقن شيئاً. تلك هي نقطة ضعفك.

يمسك به غاناباn بقبضة يده من رقبته ويرفعه نصفَ متر، كما لو كان دمية من الخرق. تصير ذراعا بوسكا شفرتي مروحة ويتلعثم، مختنقاً، وأخيراً يقع بكل ثقله على المقعد. يئن ويمسد نقرتَهُ ومؤخرته. يثني ساقيه، ويمددهما. ثم ينخر، ويضع مسواكاً في فمه.

معافى، يشرح خطته، بصوت مدير عام لشيء ما:

-هذه اللافتة هي لسحب يا نصيب الطلاب. يجرون سحباً على سيارة والجميع يشتري، على الرغم من أنها سيارة مخزية، أنا رأيتها، جئت من هناك. عملنا هو البحث عن سيارة جيدة، أحد أحدث الموديلات تركها أحدهم مصفوفة وسط المدينة. يجب أن تكون سيارة فاخرة جداً، لأنك لن تقدّم

للناس أي نوع من القذارات. وعندها سنعلق اللافتة على الزجاج الأمامي ونبيع أرقاماً تعود لمنفعة أيتام الفيضانات.

يفرك يديه، وكأنه يغسلهما: "تا؟".

تطير الحمامات سرباً على مستوى الأسطح، لامعة وصاخبة؛ ينطلق الكلب خلفها. يُلاحِقها غانابان بعينيه.

- و؟- يلتفتُ بوسكابيدا نحوه.
- وماذا؟
- وماذا إذا ظهر صاحب السيارة؟ أرى الأمر خطيراً كطعنة أعور.
- لكن اسمعني. لا بدّ أنَّ هناك خطراً ما، أليس كذلك؟ - يشعل بوسكابيدا سيجارة، ويدعو للمشاركة-. اسمعني جيداً يا غانابان.
- وأيّ أرقام نبيع؟ أين هي الدفاتر؟ من دون ورقة مختومة، لا أحد يشتري.

بوسكا ينفث سحابةَ دخان، ينظر ويرى الدخان يرتفع ويضيع.

- طيّب. يمكن تحصيله.

فجأة، يحس بوخزة حادة في ضرسه. كانت قد دخلت قطعة فستق صغيرة فيه والعصب يحتجّ. يبقي بوسكا سحبة من الدخان في فمه.

- ثمّ إنَّ - يختتم غانابان-، الفيضانات وقعت منذ خمسة عشر عاماً.

يقترب قس ماشياً، حاني الرأس فوق كتاب لا قيمة له يحمله مفتوحاً بين يديه. يحدق الراهب من فوق العدسات: الريح الخفيفة تلعب بتنورة قصيرة لفتاة،

وكل نور منتصف النهار يتركز في ساقيها الذهبيتين الجميلتين. يتعثر الراهب بحقيبة بوسكابيدا ويترنح ويكاد يقع؛ يحمر ويسعل ويعتذر وينفض الثوب الكهنوتي ويرفع الكتاب عن الأرض. تختفي الساقان الذهبيتان في زاوية.

يمتد ألم بوسكابيدا: يغطي الخد، الصدغ، العين. يمزق بوسكا مُلصقَ السحب الورقيّ ويرمي للريح بقطعه.

-لا يمكن الاستمرار هكذا- يقول غانابان-. ينقصنا...

-...تنظيم - يتمتم بوسكابيدا، ممسكاً خده. كم أدفع كي أتخلص من ألمه اللعين؟ كم يكلف طبيب الأسنان؟

يكتشف الكلب، الذي يتسلى بشم أكعاب الناس الذين يمرّون. الكلب: أرجل ملتوية، قشرة على الشعر، ما من عضلة في الجسم، ولا أي نور في النظرة المتأذية والمُحزنة.

يُخرج بوسكابيدا ببطء حبلاً من جيبه، ويقف ببطء ويفك الحبل، الحبل الثعبان، يمد يديه إلى الأمام، يداه تدلكان خصر زميلة رقص غير مرئية. يرتعش نخاع الكلب الشوكي. يتقوس، ويقفز للخلف. يرفع أذنيه؛ يلوي عنقه في دوائر، كبومة، وينبح، عاجزاً، بينما بوسكابيدا يجول خلسة حوله على رؤوس أصابع قدميه والحبل في يده. فجأة ينطلق الكلب راكضاً بأقصى سرعته، فاتحاً طريقه وسط جلبة أوراق يابسة وخفق أجنحة حمام.

-شقيّ.- يلفّ بوسكابيدا الحبلَ، يخبئه، يعود ليجلس، ويدخل يديه في جيوبه: " لتحل عليه اللعنة، لأنه صديق سيء. سينتهي إلى أن يصير مقدّداً. نقانق. هكذا سيُنهي حياته اللعينة".

-وأنت، ما الذي كنتَ تريده منه؟

- أطباء المعهد يدفعون لك مقابل كل كلب تأخذه لهم. ألم تكن تعلم؟
- وبكم البرغوث؟
- العلم لا يتطلب كلاباً ناعمة. أيّ كلبٍ يفيد في تجارب اختراعات البشرية العظيمة.
- أصاب في الفرار، مسكين الحيوان.
- انظر كم أنت عنيد يا غانابان – يقول بوسكابيدا، ضاغطاً على ذراعه-. أين لديك الآلة التي تصنع الأثقال؟ مدفونة في قعر بيتك؟ هل ستصبح غنياً دون أن تضر أحداً؟

فجأة، يتذكّر وجع الضرس، ويحكّ خده بظفر الخنصر الطويل ويشكو: " آه، آه".

- لو كان السوسورّو (الهمس) هنا، لعالجك.
- سيمرُّ.

هالتا عيني بوسكابيدا السوداوين، اللتين يبرزهما الجلد الشمعي، تنهكان نظرته الرامشة والحزينة.

- جد السوسورّو الذي كان يعيش في البؤس الأخير، أشفى ابن قيصر روسيا، المسكين الذي كان على وشك أن يموت من مرضه- يحكي غاناباب-. السوسورّو كان يستقبل روح الجد، الذي كان ينقل إليه القوى والحكمة من أجل موضوع الأمراض القاتلة.

يقرع اللسانُ الجرسَ مرتين، في برج الكاتدرائية. تُسمع أصوات في بطن غاناباب.

- سنذهب ونرى صديقة لي — يقول بوسكابيدا، ناقراً بإصبع على شفته السفلى-. هي سوف تطعمنا. وأنا بحاجة إلى بعض رشفات الكانيا.

يدخلان حمام مقهى؛ يلقيان التحية على زوج من المعارف بإيماءات صامتة وعن بعد. يمشيان باتجاه منطقة الباب. يشعلان سيجارتين؛ ريح الساحل تدفع بالدخان إلى الأعين.

للمدينة رائحة بحر وطعام يُطهى. يمشي غانابان راكلاً شيئاً هو أي شيء. ذات مرة سيكون لديه مال، وسيحتفل به مع الأصدقاء والجيران والنساء اللائي يعجبنه: سيكون ذلك ليلاً، في ليل سعيد لألاءَ النجوم، يجلسون جميعاً على العشب حول آنية فخارية ضخمة تصدر بخاراً ورائحة. سيمصّ أولادهم أصابعهم وسيزيد الطعام عنهم لجميع أطفال الحي. سترقص السيدة أنونثياثيون فرحاً، محركة وركيها كما في أوقات الرخاء. الروائح التي تتسرب من نوافذ المنازل توسع فتحتي أنفه العريضتين وتملأ رأسه؛ يقطر خيالُ غانابان عصائر ويصدر بخاراً؛ تطقطق النار أسفل آنية الفخار وتنتفخ الفقاعات وتنفجر وتعود لتولد على السطح الزيتي، بينما يَختلط في القعر النبيذُ الأحمر مع دم العجل الصغير ،والبصل المقلي والثوم، والفلفل الأخضر والفلفل الأحمر، والبندورة والزعتر البري، والملح والفلفل الأسود يداعب غانابان كرشه، تحت القميص الصوفي الخشن. يلعق قفا يده، ويُفكّرُ: الجوع أسوأ في الصيف. في الصيف تتوهج المدينة تحت شمس جلّادة، يجف البصاق قبل أن يصل إلى الأرض، وما يأكله المرء ويشربه يذهب عبر المسام برفّة جفن. وفي الشتاء؟ والمعدة فارغة، يقطّعُك البرد ويقتلك.

يمران أمام أرض مردومة ينام فيها المتسكعون تحت الشمس. بعض هياكل أسماك عظمية وعدد من زجاجات مقلوبة

تُحيطُ برماد موقد مرتجل ملاصق لجدار. هم قد استسلموا، يفكر غانابان. أنزلوا أذرعهم. إنهم حفاةٌ وينخرون بدلاً من أن يتكلموا. هم عجزة، يُفَكِّر: أنا لست عجوزاً، ويفكِّرُ: أنا لم أستسلم. أنا قوي، حتى الآن. وماذا حين أصبح عجوزاً؟، يُفَكِّرُ. يشيخ المرء على أجزاء. ما هو أول شيء سيشيخ فيَّ؟ ظهري؟ يتحسس عقد شرايين ذراعه؛ من يده تتدلى حقيبة بوسكابيدا خفيفةً كالقطن. يشعر غانابان بتشنّجٍ يسري في ذراعه. وحين يشيخ كلُّهُ ويصير كلّهُ مهزوماً، يُفكر، من سيتولى رعايةَ أطفالي؟ وأنا، من سيهتم بي؟ هل سأتوسّل، أو سأخاف؟ ليس من عادتي.

غانابان يرفع نظره إلى قباب المباني، العليّات القديمة، والمطلّات المسيَّجة، ويُقدِّر بأن هناك خلف أعمدة السيّاج الإسمنتية المظللة شرفات فيها مغاور وحَمَام. من هناك من الأعلى، يشعر، بأن مراقباً غامضاً يتأمله ويتتبع خطواته. ينظر إلى نعليه اللذين بليا، بلا جوربين، بسبب ترحاله العبثيّ.

كذلك بوسكابيدا يسير إلى جانبه بدون كلام. إنه أسيرُ ألم الأضراس، عارٍ أمام التسوّس الدقيق والقاسي، الذي ما يزال يُنَغِّصُ عليه حياته.

- لو أننا نحصل على نقود... -يقول غانابان.
- نستطيع أن نجرّب حظنا بيانصيب كرة القدم – يقول بوسكابيدا.

تمرّ في الشارع شاحنةُ شرطةٍ صغيرة مليئة بالسجناء تنطّ فوق البلاط. في الميناء تقفز سمكة عالقة يمسكون بها من خياشيمها، ينزعون منها الصنارة والطعمَ نصفَ المأكول. تتلوّى السمكة، تنزلق وتعارك بفمها الهواء.

- يا نصيب كرة القدم يتطلّب أن يكون المرء قد حلم كي يربح – يقول بوسكابيدا ويصكّ أسنانه بأسنانه. حلم: قضيب أو خنجر داخل في اللحم المحمّص، لعب معه بالثمانية عشر، دم، وخسر. خرج على رأسها الثلاثة والتسعون: عاشقة. إنّها مسألة أن تحلم وتعرف التفسير.

- أنا حلمت حلماً –يقول غانابّان- حلماً حسناً، لكي يلعب المرء ويربح يجب أن يكون حلمه حسناً. ليس كما في تلك المرّة التي حلمتُ فيها بأنّني أموت وأقف في الطابور الخطأ إلى السماء.

- احكِ، احكِ – يطلب بوسكابيدا، وهو يصوّت بأسنانه.

- كان هذا حلماً طويلاً كفيلم. كنتُ نائماً نوماً هنيئاً، نائماً مثل مِلفّ، والحالة كانت في سيرْك. كنت ذاهباً لأطلب عملاً. كنتُ أدخل في الخيمة. لا أدري ما إذا كان هذا يصلح.

- سيرْك ليانصيب كرة القدم، لا يصلح. ما من قَبالة للسيرك. هل كان هناك كلاب في السيرك؟

- كان هناك أحصنة خشبية.

- لا، الأحصنة، لا. هذا أمر آخر، فرع مختلف.

- وكان هناك بحر، وكان البحر من كرتون –يتابع غانابان، اليد اليمنى تحمل حقيبة واليسرى غائصة في الجيب-.لكن أكثر ما أدهشني كانت الدجاجة. كان هناك بهلوانات وموسيقيون ومومسات ، لكن أكثر ما كان يُدهش هي الدجاجة. كان صاحبها يحملها بحبل نحيل مربوط برقبتها. نظرتْ إليّ الدجاجة بكراهية. كان الرجل يبحث عن عمل لها. جميعنا كنّا نبحث عن عمل. كانت الدجاجة تعرف كيف تتعهّرُ. كانت ترفع عرفها وترسلك إلى العاهرة أمّك التي ولدتك. تلك هي المهارة التي كانت تتقنها.

- وأسودُ؟ ألم يكن هناك أسود؟

- لم أرَ. كان هناك صينيّ معه فرس بحر وتشيليّ معه برغوث مروّض. آه، وشخص مجبّر الذراع بالجصّ. "وأنت ما الذي تتقن عمله؟"، سأله مسؤول الشركة، وهو رجل بقبعة ونظارة وكلّ شيء. "أنا؟" قال العنصر. "أنا أطير" "وما هذا" سأله المسؤول مشيراً إلى ذراعه المُجبّرة، والعنصر وضّح بشيء من الخجل: "المسألة أنّني لا أُوَفّق أحيانا".

يضحك بوسكابيدا. يربت على ظهر غانابان: هذه حكايات، يا غانابان. ليست أحلاماً ولا من...

ويضحك من قلبه ضحكته الصافرة كالمصاب بالربو.

- كلمة شرف، يا أخي - يتابع غانابان كلمة شرف. اسمعْ. بعدها جاء دوري، والمسؤول يأتي ويسألني. وأنا أذهب وأقول له إنّني ميكانيكي خراطة، لكنّني منذ أربع سنوات أجمع قمامة وعندها يضحك الجميع مقهقهين وأنا أيضاً ضحكتُ. واستيقظتُ.

- حسن وبعدها - يقول بوسكابيدا وقد خفّ وجع أضراسه قليلاً- يمكن أن نُجَرِّب. السيرك يعني ما يشبه العيد. والعيد هو العشرون.

يشعل غانابان عودَ ثقاب. هبّة هواء تُطفئه له قبل أن يُدرك رأس السيجارة: "العشرون" يحمي اللهب الجديد بيديه، يُدَخّن: والنقود للعب، من أين سنأتي بها؟ يتعثّر ببلاطة مكسورة وينسى على الفور عدم وجود نقود: "الريح. اليوم هو آخر فرصة أمنحها للأعلى كي أؤمن به. إذا لم يخرج العشرون أكلها الأعلى " يُفكّر غانابان بحظه: الوجه السابع للزهر الذي يدور على الطاولة.

- يا غانابان - يقول بوسكابيدا، متوقّفاً.

- ماذا؟
-ها قد وصلنا. هذا هو المكان.

يمسد بوسكابيدا السترة الضيقة عند الخصر، ينزع الشعر عن القبّة ويُفتّش أظافره.

في فجوة في الجدار، يبيع الرجلُ ذو الابتسامة الأبدية مفاتيح مستعملة. ينقصه جزء من شفة، والفراغ يسمح برؤية اللثة الحمراء والأسنان. تجثو عند قدميه فوق قطعة من الخيش مفاتيح من مختلف الأحجام ومختلف العصور، مفاتيح أقفال صغيرة ومفاتيح برونزية قديمة، كبيرة مثل سلاح، لبوابات كنائس متداعية.

-هنا؟ -يسأل غانابان.

على بعد خطوة من الرجل ذي الابتسامة التي لا تتبدّل: مدخل البار. نبتة متسلقة لها أوراق دالية، مصنوعة من الخشب، تعرش بين أفاع ذهبية وتتسلق حتى اللافتة الضوئية العالية التي تسود ليلاً المنطقةَ. "داعرة باريس" يترك غانابان الحقيبة على الأرض. يتردّد، السيجارة متدلية عند الفخذ، واليد الأخرى فائضة، مثل سائح فقير على أبواب ولدروف أستوريا.

يعتقد بوسكابيدا أنّه يرى في فراغ الباب الداعرةَ شخصياً متخفيةً خلف ستارة من خرق ملونة، وهي تحرك مروحتها بيدٍ وتضع الأخرى على وركها. لكنّها في الداخل، مشغولة جدّاً، تناقش أعمالاً بحماية إلهةٍ جصيّة هائلة تسهر على حسن سير المحل.

9. المدينة

لمن أو لأيّ شيءٍ يغني الشعراء الجوّالون؟ أحد ما سيبقى، ليتذكره هكذا:

كان هناك من يموتون برداً، عند أبواب الكنائس أو في مقالع المنتزه، أمام الشاطئ؛ كان هناك من يظهرون مهجورين بين الصخور، مكسري العظامِ وممزّقي اللحم بالرصاص. رجل مُكَبَّلٌ يسمع صرخاتِ

ابنتهِ، بينما هم يشطرونها شطرين في الغرفة المجاورة. كان السجناء يميزون جلاديهم من أصواتهم وروائحهم وطرق ضربهم.

كنّا نكتشف أننا نشعر بالخوف، وهذا ما كان يملؤنا بالذهول والخجل. كانت المدينة تعيشُ مقطوعةَ النفس. كان الجوّ مُسمّماً بعدم الثقة: كان الناس يتكلّمون بصوتٍ خفيض، لم يكن للأصوات صدى، الأصوات لم تكن تتطابق مع الوجوه. كان الحرّ مشبوهاً، ولكننا كنا نجد أنفسنا طلقاء وأحياء وتخالجنا رغبة بتبادل التهنئة. كان الأطفال يرسمون أنفاقاً وحيوانات تهرب عبر الأنفاق. كان الحبُّ يُمارَس كما لو أنه لن يتكرّرَ أبداً: " إن سقطتُ ولم يقتلوني فسأرسل لك رسالةً تحت لسان أحدٍ ما". وكان قولُ: " إلى اللقاء في الأسبوع القادم"، حماقَةً. فكرتَ، قلتَ، ارتبتَ: أحد ما يهمس باسمكَ قبل أن يغيب عن الوعي: تتعرف على ساعةِ أفضلِ صديقٍ لكَ في معصم الجندي الذي يدخل لاعتقالك.

لم تكن الأيامُ تأخذُ بأيدي بعضها، لم تشق طريقها بصفّ هندي، بلطف، دَفْقُ زيتِ الوقت البطيء، ذهاباً وإياباً، تروح وتغدو، لا: كانت الأيام تتعثر ببعضها وتتراكم بعضها فوق بعض وتسقط في الفراغ متشابكة السيقان: كانت تئز، ستُهاجم، تُحاصِرُ: وُلِدْتَ غداً، ستموتُ البارحة: قلت ستقول وداعاً: حب أو خوف يتأجّجُ في هذه العيون التي نظرت إليّ في المرة القادمة الأخيرة.

10. تسكّعات غانابان

هي لم يكن ينقصها شيء غير نَفَس وصوتٍ كي تكون وتمشي وتسجق الجميع. كينغ كونغ يركع عند قدميها؛ وجبهته ملتصقة بركبتيها الجصيتين، يتمتم صلاةً وأمنيةً ويرسم الصليب.

الإلهة مومسٌ موسعة، دمية كرنفال ضخمة ترتفع إلى أعلى القبة وتخيف وتصحح أقداراً. تلبس جوربين حريريين مخرّمَين وتنورة قصيرة مفتوحة بشق؛ ثدياها ملونان بالزهري المسعور، يمسكان بقلادات قيمة بعدة لفات وبلوزة تزدهي بدبابيس من فضة وذهب وأحجار كريمة، لا يجرؤ أحد على لمسها. قرطان برّاقان يتدليان من أذنيها. ابتسامتها فسفورية، كعينيها.

كينغ كونغ ينتصب بقفزة واحدة. يأخذُ عن الطاولة أطباقَ العَقَبة مُناوراً بذراعيه القصيرين ولاكزاً الهواء؛ يرفع الصينية بيد واحدة ويقطعُ، بخطو قاطرةٍ لعبٍ، الطريقَ الطويل المؤدي إلى المطبخ. حين يعود، يهمس له بوسكابيدا[5]:

-فرّوج بالنبيذ الأبيض، مع البازلاء، ومسحوق البطاطا، والفلفل والفطر، وقرص بندورة، ونبيذ. ليكن أحمرَ.

كينغ كونغ يومئ بالموافقة، وبنظرته يسألُ غانابان. غانابان يختار:

-سمكة كوربين مشوية على الفحم.

وهنا يصعد كينغ كونغ بقفزة فوق كرسي البار العالي، يرمي خلفاً المنديل الذي يتدلى من ذراعه ويُطلق قهقهة. بعدها يغوص في الرفوف؛ يظهر من جديد مع زجاجة ويسكب جرعات في كؤوس كرشاء، للجميع ما عدا فاسقة باريس، التي تشرب فنجان شاي، وبوسكابيدا وغانابان اللذين يبقيان دون أي شيء. يتأملهما كينغ كونغ

---

[5] كلّ الأسماء في هذه الرواية مشتقة من ألقاب تُطلق على شخصياتها. فأتشا برابا: تعني الفأس الجامحة، وكاراليسا الوجه المترجمة وبوسكابيدا: الباحث عن عيشه، وغانابان: الكاسب لخبزه. وبعض الأسماء ترجمته على امتداد الرواية، مثل فاسقة باريس.

بازدراء معتق، بينما يتخذ وضعية مريحة على كرسي وكأسه في يده. بنطلونه المخطط يتأرجح على مسافة جيدة عن الأرض.

صوت فاسقة باريس المخدوش يكسر الصمتَ كصوت في قدّاس:

-هكذا إذاً تشتكون من حجم العمل – تقول-. ولكن أنا أسألكِ يا كاراليسا. في النهاية من الذي أنشأهم؟ من جهدَ في إطعامهم ومنحهم ثقافة؟

تجلسُ الفاسقةُ، التي تقطع الظلالُ رأسَها، تجلس على أعلى كرسيّ. ثدياها الكبيران يلمعان، لا يزالان مرحين، فوق التقويرة المضغوطة: ينظر غانابان إلى تجويف يده.

بظفر خنصره يجمع غانابان بعض فتات الخبز في طرف الطاولة الخشبية المحفورة، يحملها إلى فمه في نفس اللحظة التي يضع فيها كينغ كونغ فوق الطاولة جبل الأوراق الذي كان يخفي وجهه، ينظر إليه كينغ كونغ متهماً.

يتحقّقُ كاراليسا من الأوراق، مدخناً بمبسمٍ ومسوّياً وضعية النظارة التي كانت تنزلق فوق الحدبةِ التي هي أنفه. ملامح كاراليسا تتلاشى في انتفاخات اللحم الغبي. يستخدم قلم حبر أحمر ليُعلّم الأرقام ويوقع بزخرفة عربية أسفل كل مبلغ. حين يشك، يحك نقرته بغطاء القلم.

تشرب الفاسقة رشفة شاي. صوتها يتأرجح بين الدهشة والاستياء:

-من يتفاهم مع الحكومة حين يودعوهن السجن؟ من يعتني بهنّ حين يمرضن؟ من يضع الطعام في أفواههن؟من لديه الصبر للاستماع إلى قُصصهن التافهة؟ من؟ هه؟ من يأمر؟

يقول كاراليسا: " هِمْ، هِمْ"، ويُتابع ونظارته غائصة في الفواتير وبيانات الحسابات. بوسكابيدا يتململُ بانفعال في كرسيه. وراء طاولة العرض، عالياً جداً، جيش من الزجاجات في صفوف. من أحد جوانب قبة السقف المستعار، زجاجٌ مُعَشَّقٌ يُطلِقُ حزمَ ضوءٍ ملونة. في هبوطها، الأضواء المائلة تخترق الجو المظلم والكثيف بالغبار، تُبقّعُ رزمَ الأوراق المكدسة على الطاولة وترسم موشورات أرجوانية وبنفسجية، قناع مهرج، على رغوة مُخَرّمات فستان فاسقة باريس. الجو مشبع برائحة طعام قوية، وهناك وسنُ هضمٍ جيد يُثقل الجوَّ.

وجه الفاسقة، المقنّع بالماكياج، لا يخرج من الظلال التي تحميه؛ ولكن في الظلمة تتلألأ عيناها بحدقتيهما المستنفرتين. تضرب الأرض بالعصا:

- من يُمْضي الليالي بلا نوم، جالساً هنا، ؟ وفي النهار، من يعمل بينما هنّ ينمن؟ والحسابات، والديون، والضرائب، والرشاوى...

حين يتعلق الأمر بالمحلّ، تتكلم الفاسقةُ بصيغة الجمع، كالصحافة:

- تحملنا الافتراء والخيانة. ولكننا مازلنا نناضل. دائماً.

يرفع كاراليسا النظارة، ينفخ على عدستيها، يغشوهما بالبخار، يفركهما بمنديل حريري. يُرفرف أجفانه الخالية من الرموش ويُشيرُ بإصبعِهِ إلى إحدى الاستمارات: "لولو؟"، يسألُ، مُقطّباً الجلدَ ما بين حاجبيه اللامرئيين. كاراليسا، طائر ليلي، رمادي اللون. ولكن يلاحظ أنّ أشعةَ الشمس ليست عدوه الوحيد.

غانابان الذي يخبئ تحت الطاولة حذاءه من دون جوارب، يتساءل: أي غائطٍ تنتظر كي تذهب. يُفَكِّر "لماذا أتينا؟". يتأمله التمثالُ المقدس من الأعلى، ظلٌّ الظلِّ الهائل الذي يلف الفاسقة، وهو يشعر بالجوع ويُفكِّرُ بأنه يشعر بالجوع. بوسكابيدا يقول لنفسه: " وصلنا في لحظةٍ سيئة. هذه هي المسألة. اللحظة الخاطئة. نحنُ دائماً نصل متأخرين". لا أحد يعيرهما أدنى انتباه.

تتكلم الفاسقةُ وذقنها إلى الأمام، كي تمطّ غببها: " البيتُ يبغض الغموض"، تقول، و خش، خاش خوش، يُخشخِشُ قماش الفستان اللامع، تمد يداً بقفّاز من حرير شفاف، تفرد أصابعها، تجعلها تدور: " جميعهن يبدؤهنّ نفس الوزير"، تشرح، وأصابعها تتراجع، تتشابك في خصلة من شعر الباروكة، خصلة تتدحرج على الكتف: "يبقين لأنهنّ يُردْن. ليس إجباراً. ولكن، أين سيجدن حباً واحتراماً؟ أين سيدفعون لهنّ الضعف للساعات الإضافية؟ ولا حتى في أوروبا! انتبهوا فأنا أعرف، لقد سافرت". وبينما تنزلق الأصابع نحو طرق اللؤلؤ: "في النهاية المرأة تتعب من أن تكون منديلاً لدموع غريبة. ألا تفكرون أبداً بأن الواحدة يمكن أن يكون لها دراماها الخاصة؟ والوقحات ما زلن يشتكين"، كأنها تئن ولكن ساخرة، كأنها تشعر بالإهانة ولكنّها تتدلّعُ، ليس أمام كاراليسا الذي يرفع نظره من حين إلى آخر ويومئ موافقاً برأسه، بل أمام النوع الذكري بشكل عام، وربما بشكل خاص أمام واحدٍ من الاثنين اللذين وصلا لتوهما واللذين يتظاهر بتجاهلهما: " الأشياء التي يجب سماعها، من أولاء الناكرات للجميل"، يقول، مراقباً بتلك الشرارات البعيدة في نظرته ومتكلماً بالصوت والأصابع. الفاسقة لها أصابع كثيرة، إنها عنكبوت من حرير،

مليئة بنتوءات برّاقة تظهر وتهرب لتلتجئ في عرش الظلال. غانابان لا يستطيع أن يُزيح نظرَهُ عنها. لا تُخيفهُ السيدة الأخرى صاحبة المعجزات التي تحكم المنزل، مغطاة بتقدماتِ الفتيات اللاتي دفعن وعوداً، حتى أنه يستطيع أن يرفع يده ويقرص ثديها؛ ولكن تبهره الفاسقة شخصياً بشحمها ولحمها. يتساءل غانابان: " تُرى كم رجلاً أكلت وتقيأت؟" ويتساءل: "كم امرأةً؟".

إلى يمين الفاسقة، الأميرُ الغجريّ، بطلُ المصائب، يُطارد الذبابَ بعين واحدة. رأسه غائر بين كتفيه الوعرين، تظهر عليه علامات صفعة الليلة الماضية: شفة منتفخة ومتدلية، عين متورمة، وضمادة على شكل صليب فوق جرحِ الحاجب. ساءت بدايته. جُنّ في المَخادِع وهو يبحث عن الأيقونةَ ولا يجدها: دخل متلكئاً جداً في ضوء الحلبةِ الأبيض واحتبل بالحبال فنهض الجمهورُ ليصفرَ له. الفاسقة التي تعرف كيف تدير مقبض آلة الوقت إلى الأمام وإلى الخلف، كانت قد توقعته: " الشيطان يأتي خبباً ممتطياً ثوراً وسيسحقك ولن تستطيع النهوض، سترغب بالنهوض ولن تتمكن". الآن أيّ شخص كان سيلاحظُ بأنه رجل منتهٍ من مجرّدِ رؤيتهِ يرمي رمادَ السيجارة في مبشرة الجزر التي تركتها الفتيات هذا الصباح، إهمالاً، على الطاولة.

- ليس هناك أيها الفظّ – تقول أو تهمس الفاسقة، وبعذوبة تحرفُ يدَهُ نحو منفضةِ السجائر. الصوت يتوجه دائماً إلى كاراليسا:

-لقد تعاقدنا مع الأمير الغجري كي يحمينا. منذُ زمن والبيت بحاجة لشيء مثل هذا. هناك أناس لا تفهم الآداب. والآن هو لنا. بما أنّه خسر لا أحد يريده. أليس كذلك، يا حُبي؟

تزلق أصابعها المُقَفَّزة بين خواتم شعر البطل السوداء. هو يرسم شبه ابتسامةٍ ولا يقول شيئاً. أكل جيداً، كرشه مليء وهذا كل شيء. ينهض، بنية الذهاب إلى الحمام، لكنه يصطدم بفخذ الإلهة الجصية، يتمتم اعتذاراً، ثم ينقض فوراً على خزانة ملابس مخبأة خلف الستائر ويدخل فيها. ترفع الفاسقةَ يداً: عود الخيزران يُحدِثُ صوتاً جافاً على الأرض. كينغ كونغ يندفع لإنقاذ الضالّ. يسترد الأميرَ الغجريَّ، يقوده وينتظر مُلصِقاً أذنَهُ بباب الحمام. جميعهم يسمعون صرخة قصيرة مبحوحة: ليس أمراً خطيراً: البطل قرص قضيبه بإغلاقه الصاعق لسحاب البنطلون. يتسلح كنغ كونغ بالصبر. وأخيراً يعود به، جَارّاً إياه من ركبتيه، ويجلسه في مكانه.

يدنو غانابان متأثراً بكدمات الأمير، ويكلمه بصوت خافت، يقول له: "ستمطر، ألا تعتقد؟". ولكن الملاكم ينظر إليه دون أن يرى، عيناه مغطاتان بغشاء كتيم، وغانابان يشعر بالدم يخبّ فيه ويدغدغُ وجهه: يضايقه الشعور الغامض بأن فاسقة باريس تراقبه، و سوف تثبته بإبرة في الجدار. عبثاً يجرب بوسكابيدا بأن يُظهر وجهه الأكثر إثارة للشفقة: ألم الأضراس عاد ليهاجم ويمنعه من أن يدرس بالرصانة والوضوح العقلي الضروري، خطةً لرشوة الفاسقة. هو يعلم بأنها تخبئ أوراقاً نقدية حارة في حمالة صدرها. جوع غانابان يخفق بأجنحة في قاع معدته الفارغة. غانابان يُمِضُ عينيه وبقرة مشوية تطير ملفوفةً في سحابة. غانابان يشعر بأنّه وحيد، زائد، غريق بلا أيّ سفينة: البقرة تخرج طائرة وهو يسقطها بإطلاق النار عليها. غانابان يفتح عينيه. يُفَكِّر بأطفالهِ وبالغذاء الذي عليه أن يحمله إليهم. السيدة أنونثياثيون، كيف تتدبّرُ أمرها؟ السيدة أنونثياثيون لديها بقرة حلوب تنام إلى جانب

سريرها وزوج قاتَلَ في الحروب الأهلية. المحارب القديم يمضي أيامه في كرسي هزاز، هاذياً بمعارك تتحدّد بحَمْلةٍ رمّاحين بين ضوءين. غانابان لا يريد أن يُفكّر، يُفكِّرُ بأن عليه ألاّ يُفَكِّر، الفاسقة تقرأُ أفكاره: هي تزعجه حين تتكلم، وتزعجه أكثر بكثير حين تبقى صامتة، بصمتها المدويّ، صمتِ الكارياتيد[6].

يشعل بوسكابيدا سيجارة، يبتلعُ الدخان، ثم يطلقه في الهواء في حلقاتٍ متعاقبة؛ يوجه إلى كاراليسا أفضل ضحكة لديه ويناديه " مفتش". ينظر إليه كاراليسا دون أن يرمش، عيناه باردتان تقولان: " أنا لم آخذك سجيناً قط. لم أحصل قط على هذه المتعة" ويتابع انشغاله بحساباته. غانابان يقرر: سيطلب معروفاً من الفاسقة بالطريقة الأكثر مباشرة:

-يا ملكتي – يطلب، جسده مائل إلى الأمام، مرفقاه على الطاولة-. أنا... لدي مشروع يا ملكتي.

تبقى الفاسقةُ في الأعالي لا تُطال. مع مرور السنين، نما كبرياؤها وطمس الجمال الأسمر الذي أعطاها شهرة إلى أبعد من حدود القيثارة. الآن ينبعث منها عطر عنيف وسوقيّ. حركة كتفين، خفق رموش: الفاسقةُ تلتفت نحو كينغ كونغ، الذي يتثاءب ويسقط رأسُه الضخم على ذراعيه المتقاطعين:

-يا كينغ كونغ، يا حبي – تناديه، فينتصبُ على قدميه بقفزة واحدة-. ماذا ستهديني اليوم؟ حقيبة وماءً من اسكتلندا؟ أم قارورة مليئة بهواء فرنسا؟ آه، يا كينغ كونغ. لقد هجرتني.

---

[6] المرأة التي تقوم مقام العمود في الأبنية اليونانية والرومانية وتلك التي تُحاكيها. م.

- سيارة رولز رويز سيلفِر شادو. سيارة لينكولن كونتيننتال صفراء ليمونية – يَعِدُ كينغ كونغ، معانقاً كاحلي الفاسقة. تضع في أحد كاحلَيْها خلخالاً فضيّاً.

- هل صحيح أنّك سُجِنت لأنك سرقت فردة حذاء واحدة؟ – تسأل الفاسقة، دافعةً إياهُ بقدَمِها.

كينغ كونغ يسقط على ظهره وينهض فوراً.

- هل صحيح يا كينغ كونغ البائس بأنّك مصاب بالجرب وأمراض كلاب أخرى؟

يركله على مضخّتهِ بكعب حذائها، يُصْدِرُ كينغ كونغ أنيناً، يتدحرج، يستلقي على ظهره، كأنه ميت، وفجأة يتشقلبُ على رأسه إلى الوراء، يسقط واقفاً، ينحني احتراماً إلى مالكته وسيدته ويقبل قصبةَ ساقها.

- هل صحيح أنك قتلتَ من أجل الحب؟

- في مبارزة كريولية يا أميرة.

- كينغ كونغ أيها البائس. أقتلعك من المجاري. من أين ستحصل على المال لتشتري مني قبلة، هل ستسرق؟ هل ستقتل؟

- سأرث يا أميرة.

- من قال لك هذا يا كينغ كونغ؟

- الله قاله لي.

- الله؟ الله شخصيّاً؟

تهزّ الضحكة جسم المخرمات المُريع.

- ظهر لي منذ ثلاثة أيام وقال: " ستصبح سعيداً".

تنفجر القهقهات. " آي، آي"، تقول الفاسقةُ. " من كثرة ما أضحك، ستضرب التجاعيد أطنابها حول عينيّ . آي، إنه بُطولي. إنه بطولي..."

ينهض غانابان حريصاً على ألا يُصدِرَ ضجة وألا يلاحظه أحد، ليغادر. يبحث عن عيني الإلهة الجصية، كما لو أنه يطلب منها الإذن والمغفرة. يُمسكه بوسكابيدا من كتفه خفيةً ولكن بحزم: "لا تغضب"، يهمس في أذنه. " إنها مُدَلّعة. أعرفها جيداً. يجب تليينها قليلاً. دعني أفعل هذا أنا، دعني." هذا هو حالهم، غانابان يريدُ أن يجادله، في الوقت الذي يسمعان فيه صوتاً مدوياً يتردد في المدخل.

-مكانكم! لا أحد يتحرك! هذا سطو!

ظلُّ جسمٍ يُقْطَعُ على خلفية الضوء في فراغ الباب، خلف الستائر.

تسقط نظارةُ كاراليسا على الأرض محدثة ارتطاماً جافاً، في حين ينبثق مسدس من عيار 45 في يده. رأس عصا الفاسقة ينزلق على طول ذراع التمثال ويُنزل كيساً صغيراً مخملياً. تهز الفاسقةُ الكيس، مخشخشةً عظام أزواجها المتوفين. غلوك: يبلع كينغ كونغ ريقَهُ. ينهض الأميرُ الغجريّ ليدخل في الفعل. يُداعِب غانابان الندبةَ التي تعبر وجهه، ليس خوفاً، بل فضولاً. ابتسامةَ انتقامية تلوي شفة بوسكابيدا.

حين ينفتح الستارُ وتقتحمُ آتشابرابا[7] المشهد بخطوة راقصة، هناك عدة رئات تَفُشُّ. تُجْلِسُ الفاسِقَةُ الحراسَ الشخصيين بضغطة طفيفة على الكتف. يخفضُ كاراليسا سبطانة المسدس. الفاسِقةُ تثرثر:

---

[7] لقب يعني الفأس الجامحة أو الثائرة. م.

-يا آتشابرابا، أنتِ تزدادين جنوناً يوماً عن يوم. أنتِ مصدر إحراج وطني يا آتشيتا.

يُحتفل بالانفراجِ بجرعاتٍ للجميع. هذه المرة هناك أيضاً طعام لبوسكابيدا وغانابان. يُسمع ارتطام حجارة الثلج في الكؤوس، يَغضّن بوسكابيدا فمه مع الويسكي الاسكتلندي. غانابان يبدأ رحلة استكشافية إلى الحمام؛ يُفتِّشُ في الغرفة الخلفية ولكنه لا يجد شيئاً يؤكل. النمليةُ مقفلة بالقفل والمفتاح والثلاجة بالمغلاق. في الحمام يلقي نظرة على المرحاض، الذي يبدو له مبتذلاً وبرّياً. كان، بحسب بوسكابيدا، قد باركه رئيس الأساقفة.

آتشابرابا تفتلُ وركيها، رافعة البنطلون المخملي الأسود بإصبعين. تغني: "يحترق! أيْ! يحترق ذيل القشة...!"، ناقرةً بحذائها كمغني فلامنكو. يخرج لسانُ كاراليسا من فمه. ينحني أمام اللعبة الضخمة، حامية البيت، ثم يتنهّدُ تنهيدةَ هيامٍ طويلة حين يُقبلُ يدَ فاسقة باريس المُقَزِّزة.

ينظرُ بوسكابيدا إلى السقف بخدين منتفخين بالكحول ووجهِ شهيد. آتشابرابا تدنو منه. تُحاكي له شدوَ العصافير،صخب العصافير في أوج طيرانها، زاق-زاق الأنثى وهي تستدعي الذكر، أصوات الطيور التي تُعلن أسماءها: قاق - قاق، من أعلى الغيوم، أو وهي تحلق على وجه الأرض: طراو - طراو- طراو، أو وهي تشرع بالطيران: جيداً- أرى -ك، جيداً- أرى-ك، ولكنه غير مجدٍ؛ فبوسكابيدا سمعه منصرف لألم أضراسه الهائل والصاخب. آتشابرابا المتأثرة تفسحُ مكاناً على الكرسي ذاته.

-أرِني هذا المخطم — تقول، وتُفتّش الضرس بقطنة.

قيثار يتحرك خلف طاولة العرض؛ لا يرى شيء سوي الصاري، مائلاً، متحركاً نحو أحد الأطراف. حين يخرج القيثارُ من طاولة العرض ويلتوي منتقلاً نحو الطاولة، تظهر أصابع كينغ كونغ معانقة الصندوق، ويطلّ الحذاء من الأسفل. يضرب كينغ كونغ على الأوتار ويسعل ليجلو حنجرتَهُ.

الجوّ بارد في معدة غانابان، ينتشر البرد في ذراعيه وساقيه.

تغلق آتشابرابا شفتي بوسكابيدا بإصبعين اثنتين، برقّة فائقة، . تفصل الرأس: تعجب برسم ذلك الفم، فم الماجن التامّ.

- أتريحك؟ - تسأل، رامية بالقطنة إلى أيّ مكان.

بوسكابيدا يتأكدُ من أنّ الألمَ يهرب. يشعر بفخذ آتشابرابا ملتصقاً بفخذه، يحاول الانفصال فيقع على الأرض. آتشابرابا تداعب وشاحاً سميكاً، من لون الجلد، تضعه على رقبتها. هاها هاها، تضحك. "ليس وشاحاً"، تقول، والضحكة تنزلق، والأصابع المتسخة بالنكوتين تنزلق على طول هذا النوع من الأفعى:

- رجاءً، رجاء، هناك شيء لا تستطيع أن تُنكره عليَّ، يا عديم الروح.
- حسن. قولي.
- الآن سأُوضّحُ لك. من يستمنيك؟

بوسكابيدا يجد كرسياً آخر. يُسمع صوت دوي، تهتز الطاولة وتقفزُ الكؤوس: الأمير الغجريّ ينظر إلى راحة يده اليمنى: وهناك لا يوجد أية ذبابة ميتة ولا على الطاولة أيضاً. يتمتم بشتيمة ويعود ليغرق في صمته. أنهى كاراليسا مراجعة المبالغ والآن عليه حساب النسب المئوية،

ولكنه لا يتذكر معادلة الثلاثة وليس لديه مَنْ يسأله. كينغ كونغ يدور حول الطاولات بالقيثار وكأنه درع. يتسلَقُ ركبتي الملاكم ومن هناك، يقترب من إذن الفاسقة، يهز الأوتار ويدمدم حميماً:

مرّاتٍ كثيرةً كنتُ أموتُ

ظاناً أني لن أراكِ

ولكن الموت كان يموتُ

في كل مرّة يراك.

تخفق الفاسقة بجناحيها المُريَّشَيْن، تصفق بجنون. ثم تضع يدها على فمها لتقطع عليه مكسباً. وتعيدُ كينغ كونغ بضربة عصا إلى الأرض وتدير له ظهرها.

رأس غانابان الذي يتلقى الضوء من الخلف ملفوف بهالة حمراء. عينا الفاسقة ترمقان وتطلقان شرراً. هذه هي النظرة التي تجعل الأفاعي ترقص. تقول:

-أنت تمشي بخطوٍ مُتبَدِّل وهذا يظهر عليك. ما برجك؟ ماذا قالت لك النجوم؟

غانابان يتعتع: "لاشيء، لا شيء". كينغ كونغ يستشيط غيرة. الفاسقة تفكر: "بكَ شيء. قبيح كضرب الله، ولكن بك غموض. يا للغرابة! أنت فقير ولادةً وقدراً ولكن بك غموض. هو الشيء الوحيد الذي تملكه. غموض وأسى ولا شيء".

آتشابرابا تحكي لبوسكابيدا: "أنا من حي دباغي الجلود، هل كنتَ تعلم؟". بوسكابيدا ينظر بعيداً، يصفر. الرجل يخرج مغلفاً من جيب سترته. يمد الرسالة إلى بوسكابيدا ويأمره:

- إنها رسالة حب. افتحها واقرأها لي. أهديك متعةَ تمزيق المغلف.

يسند ظهر الكرسيّ على الجدار ويستلقي على الكرسي المائل وأصابعه متشابكة خلف رقبته والنشوة تلمع في الابتسامة. بوسكابيدا يتردّدُ. آتشابرابا تقول مغمضةً عينيها:

- لم أكن لأمنحك هذا الامتياز لو أنني لم أُضِع نظاراتي. يا رأس العروس!

آتشابرابا تسمع صوت تمزيق الورقة. يوضح:

- هو أرسلها لي مع حمامة زاجلة في أوّل يوم نزل فيه إلى البحر.

بوسكابيدا يقرأ: **يا دميتي**... طالما أحبّ انتهاك المراسلات الحميمة. وهذا الانتهاك جاء بناء على طلب. كاراليسا يسترق السمع. يمدّ كينغ كونغ الذي لا يزال أبكم من الذعر، رأسَهُ: يُدَبِّر انتقاماً. الملاكم يطلب تفاحة: لا أحد يُزعِجُ نفسه. الفاسقة تعلو فوق الجميع؛ تتجه نحو غانابان، تُكَلّمه عن الحياة والوقت والقدر كما لو أنها هي نفسها محصنة ضد الشيخوخة ومنجل الموت: تنبجس من العدم حزمة من أوراق اللعب، تخلطها الفاسقة في الهواء؛ تضعها بحب على الطاولة ومن ثم تغطيها بيد بينما اليد الأخرى تفتح الأوراق، واحدة تلو الأخرى، بنقرات صفائح الفولاذ. تشعل الفاسقةُ عود ثقاب، تطفئه بنفخة: خيط من دخان يتراقص فَروراً بين المخرّمات. بمطلق السلطة، تصدر حكماً بحق غانابان:

- ظلُّ الخطيئة يرافقك إلى كل مكان، يأتيك من أسلافك، العبيد. تتعقّبك، تنام في سريرك.

ينظر غانابان إلى الخلف ليرى إن كان هناك أحد آخر. لا يفهم ما الأمر. يشعر بأن ركبتيه تهنان. الصور تتقدم على الطاولة.

في هذه الأثناء، بوسكابيدا يقرأ، بصوتٍ لا يكاد يكون مسموعاً، رسالة البحار إلى آتشابرابا: لأنّني أُفكّرُ بك أمام القمر الشاحب، كدتُ أسقطإلى هُوى البحرِ المريرة في تلك الليلة وأنقذني القبطان شخصياً جزاه الله خيراً دونِ أن أُنقصَهُ فضيلة مهما قلتُ لك عنه أنّه زهرة علقة وقذر إضافةً إلى أنه لا يستحم أبداً مهما ارتدى الزيّ الأبيض ومهما وضع من النشا والفخامة التي يعطيها لنفسه كسيد عظيم يظهر عليه كم هو شخص وضيع، ماذا تريدينني أن أقول لك؟ لأني لو لم يشأ القدر ذلك ما كنتِ لتستمتعي اليومَ بقراءة هذه السطور ولما كنتُ ملفوفةٍ بالدموع تبكين احتضار تلك الساعات التي تفرحك كثيراً يا مُدَلّلتي، يا خنزيرتي حبك هو كل شيء بالنسبة لي.

تستمع آتشابرابا ورأسها منحن ودون نفاذ صبر، مؤرجحة ساقها. الرجل يلبس جوربي حرير أحمر.

-كنت أعرفُ أن شيئاً مريعاً سيحدث - يقول- وأعرفُ أيضاً أنه سينجو.

تداعب الخدين، البشرةَ الناعمة والمتوهجة. تشير إلى الإلهة الجصية: "هي من صنعت المعجزة"، تقولُ: "هي أنقذته. أي

شيء تحتاجُهُ، اطلبْهُ منهـا. بمـا أنّـه لا أحـد يعرفهـا، سـتعيرك انتباهاً. لديها القليل من الزبائن وتهتمُّ جيِّداً".

يمسك بوسكابيدا الرسالةَ بكلتا يديه وصوت مـن الـداخل يقـول له: "أنت بلاّع"، والصوت الآخر من الداخل يقـول لـه: "ثـابري عليـه. تابعي فهذا لصالحك. هنـاك شـيء مهـم بانتظـارك". في كـل مـرة يُطلـع فيها كاراليسا، يطـوي بوسـكابيدا الورقـةَ ويصـمت. ثـم يتـابع القـراءة همهمةً: لذلك أطلـبٍ منـك أن تقومي بهـذه التضحية كـي نـرى مـا إذا كنـا سـنتمكن أخـيراً مـن امـتلاك عشـنا الخـاص ولا نمضـي أبـداً مثـل فراشـةٍ علـى غـير هـدى، كمـا لـو أن حبَّنـا رذيلـة أو عـارٌ اجتمـاعي، عذراً على التعـبير. أقـول لـك بـألا تقسِـي علـيّ بـإدانتي بالخـذلان وأن تتذكريني مـن دون أنانيـة كما أتـذكرك، أنـا أحملـك في قلـبي، الوقـت كلّه جرح حب حلو يجعلني أنزف وقبل أن أمشي مـع أخـرى أنـا قـادر يا حياتي على قطع جهازي.

- هنــاك بالتحديــد عنــده وشــم – تهمــس آتشــابرابا في أذن بوسكابيدا، الـذي يـومئ متفهمـاً ويتـابع: تعـرفين جيـداً أنـني لم أعـد أحتمل هذه الحياة التي أعيشـها علـى مـتن السـفينة أعمـل كحيـوان لا أسكر ولا أنامُ، أفضل الموت إذا كنتُ سأتابع العيش أسيرَ هـذه العبوديَـة لهذا ما أطلبه منك ليس توسلاً بل مطلباً: افعلي ما أقول لك وإن نقصـتك الشجاعةُ فكري فيَّ، أنا الذي منحتك الحيـاة كلـها ، كمـا أفكـر أنـا بـكِ لاعقةً إياي كما تعرفين جيداً أيتها المشاغبة وعضـاتك أيضـاً لـو أسـتطيع أن أعبرَ لكِ عن كلّ ما أشعر به بالرغم من البحر الذي يفصلنا.

- أعبـده، أعبـده – تقـول آتشـابرابا. رأس اللسـان شـديد الاحمرار يُطلُّ من بين الأسنان ويرقص.

مذهولاً يقرأُ بوسكابيدا ويعيد قراءةَ الفقرات التاليـة لنفسـه. الحدس لم يخنه. هي ذا هناك التعليمات بكلّ تفاصيلها من أجـل سطو سهل ومجز. إنه مال سهل. ثـروة في متنـاول اليـد، تُطالـب بأن تُسْرَق. بوسكابيدا، ، يفرك جفونه فاغر الفم.

- و؟ – تستجوب آتشابرابا–. ماذا أيضاً؟

يُمرِّر ثالامِرو[8] راحةَ يده الرطبة دائماً على رقبتها:

- لا تكـن هكـذا، غيـوراً. مـاذا تريـد؟ هـذا السـهم مغـروزٌ في صدري، يا عزيزي؟

يقرأُ بوسكابيدا، بلا حراك، غافلاً عن كـل شـيء، الرسـالةَ إلى النهايـة عدة مرات، يحفظها عن ظهر قلب في غمضة عـين. هـذا السـطو لـه. هـذا المـال له. يُقرِّب كاراليسا كرسيه ويدنو بمخطمه. بوسكابيدا يُخبِّئُ الرسالة في جيبه.

-لا تنزعج – تصر آتشـابرابا–. رائحتـك طيّبـة، لـو تعلـم. رائحتُك رائحةُ حديقة مُبلّلة. هيا، قل لي.

بوسكابيدا يقرأ: أقول لك لا تتظاهري بالصّمم إن كان هذا معيباً فألا تعرفي أن تُحبّي معيب أكثر.

-ماذا أيضاً؟ ماذا أيضاً؟

-بعدها يأتي التوقيع.

---

[8] كما يحدث مع الأسماء الأخرى هذا اللقب يعني المتملّق، ماسح الجوخ، لاعق القفا إلخ...م.

في هذه الأثناء غانابان، الذي يريد أن يأكل طبقاً شهياً من المعكرونة مع صلصة البندورة، يتلقى نصائحَ وسحراً.

- اسمع – تقول له الفاسقة-. أوراق اللعب يخلطها الشيطان.

فطيرة لحم. هذا ما يريد غانابان.

-اسمع. موضوع ملامسة القاع كذبة. يبدو أنّك لامست القاع، ولكن دائماً يمكن الوصول إلى ما هو أعمق. اسمع.

شريحة لحم مع بطاطا مقلية. أن تكون لذيذة. هذا ما يُريده.

ترقُّ الفاسقة:

- مسكين يا غانابان، سقطت من السماء ولم يزل عنك ألم السقطة أبداً. سوف تفشل دائماً، لأنك طيب. ستستمر بالعيش وستستمر بالذهاب، وهكذا.

غانابان ينظر إلى الأسفل، الألواح السوداء ممَدّدة على الأرض: لا يعرف ظلّه نفسه. يهرس كينغ كونغ قدمه بقدمه بحجة التقاط عقب سيجارة من الأرض، ويشتمه متمتماً: " عينة مجانية من الرجال"، ويقول: "خسيس"، بينما يختفي تحت الطاولة بسرعة ويتجنب ركلة.

-كينغ كونغ، هيّا إلى طاولة العرض!

تمدّبل الفاسقة ذراعاً، قفازاً يصل إلى كوعها:

-مقدار من النعناع الهندي – تأمر-. ومقداران من الحليب. لا، بل ضع ثلاثة مقادير أفضل، فهو مغذٍ. قطرات من ليكور

الكوانترو. هذا حسن، يـا كينـغ كونـغ. الآن الـثلج. بـيرة مثلجـة جيداً ولكن بالرغوة. هكذا، هكذا. وبتلة قرنفل.

أنهى كاراليسا الحسابات. يجمع الأوراق، يزيل النظارات. يقف.

-هل كل شيء على ما يرام؟ – تسأل الفاسقة.
-ينقص لولو. لا أجد بسو لعيناً واحداً من لولو.

تسعل الفاسقةُ. تتظاهر بالشرود.

- قلت بقي هناك لولو- يصر كاراليسا، بطيئاً، ويداه في جيبيه.

الكوكتيل جاهز والفاسـقة تقدمـه إلى غانابـان: " هـذا لـك. أرجوك أن تقبله". كينغ كونغ يترك الكأس على طبق صـغير أمـام غانابان، ويزمجر من مسافة آمنة: "عديم الجنسية"، ويزمجـر: " مكّار. زنجي رثّ وبائس".

في هذه الأثناء لا تكتفي آتشـابرابا، ولـيس أمـام بوسـكابيدا غير أن يريها الرسالة. يعرضها لها بحماية طية السترة.

-أترين؟ لا يقول شيئاً آخر. هذا التوقيع. أترين هنا؟ يقـول لكِ أن تحرقيها. هنا يقول بأنه بعد قراءتها عليك أن تحرقيها.

يستندُ كاراليسا بكلتا يديه على الطاولة وينحني فوق الفاسقة:

-أنت مدينة لي بشيء – يقول لها- أظنّ.

يُسمع دويُّ العصا على الأرض:

-ماذا عن بيتانغا[9] إذاً؟ أيّ لولـو وأي أربعـة سـنتيمات. لا تهمّني! هل سمعتني؟ صحة! هل طالبتك بشيء عن بيتانغا؟

يدخل هذا الاسم كرصاصة في صدر غانابـان. الكـأس المقـدم لتوه يتشظى على الأرض. ينهض غانابان مُنحيناً وفاغر الفم. يفرك عينيه. بيتنانغا. بيتانغا. بوسكابيدا يطفئ عود الثقاب الـذي كـان قد أشعله ليحرق رسالة آتشابرابا بنفخة واحدة.

الفاسقة، صماء، تقول:

-أنا أسامح. أنا أعرف كيف أنسى. ولكن هناك آخرون...

يضرب كاراليسا، وظهره إلى غانابان، مبسمَ العـاج الموجـود على طرف منفضة السجائر.

-كم من المناجم جلبتُ إلى هذا المكان؟ مـن كـم مـن السـنين نعرف بعضنا؟ من أجل بيتانغا هذه...

عندها يخورُ الثور، المجروح من الخيانة، ويهجم: يرفعُ غانابان كاراليسا في الهواء من طيّة سترته ويفتله بلكمة. مسـدس الـبراونينج عيـار 45 يطلق النار في الهواء وغانابان يتمكن من كل شيء، وكاراليسـا ينبثـق من الأرض ويمر طائراً فوق طاولة العرض ويهتز الكوكب، وتغـرق الأرض، تطير الزجاجات؛ كينغ كونغ يقفز قفزةَ برغوث، يقبض بيديه على عنـق غانابـان، يعضـه بشراسـة مـن أنفـه؛ غانابـان يزيحـه مـن فوقـه ويقلـب الطاولـة، وبضـربة رأس يحطّـم الأمـيرَ الغجـريَّ علـى الحـائط، يُطقطِـق

---

[9] لقبها هذا هو اسم ثمرة استوائية تُشبه البندورة البلدية في بلاد الشام، وتسمى أيضا بكرز كاينا. م.

الجدار، توزع الفاسقة ضربات عصاها دون أن تنظر على من؛ غانابان يحني رأسه ليتفادى الضربة في الوقت المناسب، ولكمة الأمير الغجريّ تحول وجه آتشابرابا إلى لحم مفروم، فتسقط مغمى عليها بين ساقي الإلهة الجصية؛ تترنّح وتنهار محدثةً دويً حربٍ عالمية؛ وابل من الجص والزجاج يسقط من السقف والفاسقةُ تصرخ، تلوح بالعصا وتكسر مرآة؛ يأخذُ غانابان القيثار ويشقه نصفين على الملاكم، الذي يبقى يرمش ويدور حول نفسه بينما بوسكابيدا يأخذ بذراعه ويقفز صارخاً: هيا بنا يا غانابان، هيا بنا أيها المجنون، هيا، ستأتي الشرطة، وأخيراً يتحسّس الحقيبة ويفرُ وغانابان خلفه.

يركض الصديقان حتى تنقطع أنفاسهما. يصعدان إلى حافلة وهي تسير. يقفزان قبل الوصول إلى الموقف، عندما يكتشفان بأنه لم يتبق معهما نقود ولا حتى لدفع ثمن التذكرتين.

- لقد نجونا - يقول بوسكابيدا، ويحكي لِغانابان موضوعَ الرسالة.

جلسا في عتبة دير صغير وغانابان يلوكُ حزناً لعدم وجود شيءٍ آخر. أين يستطيع أن يجِدَ ما يزيل حزنه ويواسيه، يحمله بعيداً عن الأرض قليلاً، ولكن ليس بعيداً جداً، لأنّ البعيدَ جداً عن الأرض هو الموت؟ يسأل نفسه عن هذا. يتساءل عن هذا مرّتين والثالثة.

-افرح يا غانابان. في هذا السطو نحن حجر الأساس. لن يوقفنا أحد يا غانابان.

الهارمونيكا، يمكن أن تكون. لو لم تكن مكسورة. نعزف على الهارموئيكا فيصعدُ الحزن ويمضي في الهواء، دخان الحزن:

بالهارمونيكا، من يفعل ما أفعل؟ أسألها وتجيبني؛ لا أنا أكذب عليها ولا هي تكذب علي.

- ولكن مهلاً يا مجنون، ما بك؟ - يسأل بوسكابيدا.

أنا لا أتكلّمُ، أنا لا أبكي، يُفَكِّرُ غانابان؛ ولكنني أتعب. لم يعد عندي أي رغبة بالتحرك والمتابعة. كل الشوارع في صعود.

- نعم. الآن أعرفُ ما بك - يقول بوسكابيدا، مُطأطأ الرأس-. أنا أيضاً سمعت ما قاله كاراليسا. ولكن اسمعني، يا أخي. أنت هل تعرَف كم امرأة في العالم؟ لقد تحققت من ذلك في ذاك اليوم. ملياران. اسقط على ظهرك.

يطعنُ غانابان بوسكابيدا بنظرةٍ تدخل من عينيه وتخرج من نقرته. بوسكابيدا يبلع ريقه ويسكت.

وسرعان ما يصر:

- ولكن يا غانابان - يقول- في هذا البلد يمكن أن يُسْرَق نعلُ حصان وهو يجري.

غانابان لا يقتنع:

- أنا لا أتدخل في هذا الأمر.
- يجب أن يكون بين شخصين، يا أخي.
- يجب أن يكون، ولكن لا.
- العيش وفقاً للقوانين، إلى أين آخذك؟ ألا ترى بأن الشيء الوحيد الذي تُتْقنَه هو الأكل حين يتوفّر؟ ماذا؟ هل تخاف؟

غاناباان يصفر. يتقدم دوريٌّ قافزاً ويقف على حذائه المهترء.

-شيء من المال، من العمل، أُحصل — يقول بوسكابيدا—. أنا سأتولى ذلك. ما زال لدي بعض الأشياء التي أستطيع أن أُحوّلها إلى نحاس. يستحق الأمر المعاناة حين يكون الأمل كبيراً. أترى؟ مثل كريستوفر كولومبس، أنا هنا مستعد لأن أحرق سفني.

يداعب غاناباان أنفه المصاب. يمرّ بوسكابيدا بذراعه على كتفيه. يعرض لغاناباان خطة عملياته. مخاطرة، لا يوجد. الكنز متدلّ من سحابة.

-ألا تعلم أن القبطان يموت مع السفينة، إنّه مجبر على ذلك؟ هل أنتَ صديقي أم إنّ الراية سقطت على الأرض؟

11. العودة

أكلمك، أحكي لك. لا لأنبش قبورَ الناس ولا الوقـتَ الـذي مضى. أنقل لك الكلمات التي تلاحقني: أقول لـك: أتـذكر ذلـك الوقت لأنني لم أكن وحدي. أقول لك: أتذكّرُ كلّ شيء.

أنا كنت أعمل في الصحيفة. كان الوقت ليلاً، متأخّراً، وكان شتاء والطقس بارداً.كان القمر قد صنع من مطر. في الصحيفة كان لدينا تأخير ساعتين، أي ما يقال إنه دفن ومدفن وكلّ شيء. بقي عدد قليل منا. ننقر على الآلات الكاتبة ونحتسي القهوة، ليترات من القهوة السوداء، بينما كنا نعمل الصفحة الأولى ونُغلقَ الأخيرة. أشياء كثيرة كانت قد حدثت. إذا نشرناها سيغلقون صحيفتنا. أغلقوا صحيفتنا في اليوم التالي.

كان هناك مظاهرة. أتذكرين يا كلارا؟ أنت كنتِ هناك. أنا رأيتك من الشرفة. لا أحب أن أرى شيئاً كهذا من الشرفة، ولكنّني كنتُ هناك، في الصحيفة، ورأيتك. هل تتذكرين؟ الناس كانوا يتسلّقون الدبابات ويهجمون بعنف. كان هناك أمواج من الناس يصرخون ويهجمون. حدث إطلاق نار ورش بالماء وقنابل غاز، وأنتم كنتم تتقدمون جميعاً ممسكين بأيدي بعضكم. كانوا كثراً وغاضبين جداً. ذاك المساء كان قد قتل فتى في السادسة عشرة من عمره. رموه برصاصة على نقرته. عيار 38. كان يكتب بقلم التلوين على الحائط. كتب كلمة " شَعْبيّ" وهذا كان آخر شيء. بعدها غسلوا الجدارَ وكشطوه ومحو الكلمة. وانفجرت المظاهرة. هم ساقوكم إلى الساحة برؤوس البنادق وأجبروكم على الركوع وأيديكم وراء رقابكم ورؤوسكم مطأطئة نحو الأرض. أنا لم أركم يا كلارا ولكنني عرفتُ..

أشياء كثيرة حدثت.. الإضراب العام فشل بلا عودة، وبدؤوا بتسريح العمال والمداهمات. في قصر الحكومة حدث انقطاع في التيار الكهربائي بسبب خفاش. كنا قد حصلنا على أدلّة على

عدة صفقات صغيرة من الآباء المؤسيسن للوطن وقررنا أن نُخاطرَ وننشرها. كان المرتكِبُ يُكشف من خلال البصمات الألكترونية، كما في الروايات البوليسية القديمة. مرتكِب؟ حسناً؛ كانت قوانين النظام، وكنا نعرف ذلك: تجارة حرة، أناس مُعتقلون.

وأشياء أخرى كانت قد حدثت، أتذكّرُها وكأنها حدثت الآن. انتحار رجل رمى بنفسه عن الجسر حين بدؤوا يُنادونه من الأسفل بالجبان. ومبارزة بين اثنين محليين بالخناجر. صبيان، مسألة تتعلّق بالحب. ربطا كاحليهما بحبل، وتركا بينهما مسافةَ متر. الذي فاز، فاز لساعة.. بعدها مات. وزّعت الشرطة صورهما. كان لهما وجها طفلين صغيرين.

تلك كانت ليلتي الأخيرة في الصحيفة. كانت آخر مرة تظهر فيها الصحيفة. أستطيع أن أقرأها لك عن ظهر قلب.أتذكر حتى الأبراج. أنا كنت أحب الصحيفة. أنت تعلمين بأننا كنا نقومٍ بالعمل على حسابنا، دون أن نقبض أي شيء، أو نقبض قليلاً وعلى فترات متباعدة جداً، وكنا نحشر الصحيفة في كل شيء، مخاطرين بحياتنا، بالحبّ الخالص الذي يمنحك قوّة أن تقولي ما تعتقدين وتقولينه مع آخرين يؤمنون بالشيء ذاته. نحن كنا يافعين جداً. كان البلد مختلفاً. هل مرت ثلاث سنوات يا كلارا؟ كلّ هذا الوقت في أقل من ثلاث سنوات؟ لم يكن البلد آنذاك قد شاخ حتى الموت.

كنت أنتهي من عملي كل ليلة، وكنا نركض بين المكاتب ونلعب كرة القدم بكرة ورقية. بعد ذلك كنا نذهب لنشرب ونشاهد

شروق الشمس في الكورنيش، وكان بمستطاع المرء أن يكون سعيداً دون أيّ مقابل.

كما أقول لك، في تلك الليلة كنا متأخّرين جدّاً وتنهال علينا من المطبعة التهديدات والشتائم. كنا في هذا حين قالوا لي:

-يا ماريانو إنهم يبحْثون عنك:

كان التحذير من طرف فيرّو.

كانوا قد سحقوا الإضراب وكان فيرّو مختبئاً. هو كان يريد رؤيتي. في اليوم التالي، صباحاً، أرسل يقول إنني أنا أعرف كيف. كان لدي مفتاح القضيّة الذي لا يزال صالحاً. هو كان بحاجتي لشيء ما ولم أكن لأخذله. هو كان... هل تعلمين؟ لو أن أحداً قال له بأن يحيا حياة تضحية ومخاطرة لأصيبَ بنوبة من الضحك. كان رجلاً قليل الكلام، ولا شيء عن نفسه. كنت أعلم أنّه مرّ بطفولة تعيسة، لأنّ أحدهم قال لي ذلك، لا أكثر. حين تعرفت عليه، كان يدرس الحقوق إضافة إلى أنه يعمل مثل حيوان. كان قد اكتشف صيغة عدم النوم، ويُلاحظ عليه ذلك. كان يقرأ كل الأشياء التي تقع في يده ويحبّ شرب النبيذ وسماع القصص والآراء. كان إسفنجةً تمتص الكلمات، صامتاً دائماً وفضولياً دائماً.

في يوم سعيد اكتشف من يكون. عرف فجأة، كما لو بوحيٍ، لماذا تعلّم كلّ الذي كان يعرفه، ولِمَن سيُعطي كلّ الذي كان بمقدوره أنْ يُعطيه في الحياة التي يمكن أن يعيشها. فجأة

امتلأ بالاشمئزاز والضيق. حدث هذا يومَ طردوه من العمل، لأنه أطفأ عقب سيجارة في رأس المدير، وليلةَ قرّر ترك الدراسة لأنه اكتشف أن الحقوق غير موجودة. الحصانُ يصنع الفارس واللقمةُ تصنع السنَّ: الحقوق كانت حقوق الكثير من البشر في أن يصبحوا هريسة تحت نعل القلة. ترك كلّ شيء وكرس نفسه لتنظيم الغضب، كما كان يقول هو نفسه، ينام في أي مكان ويأكل إن وجد طعاماً. ما كان يجري له، لم يكن يهمه قيد أنملة. كان قد قبل مصيرَه حين عرف ما هو، أو اختاره، لا أعلم، ولكن من دون أن يعمل من هذا أي دراما، كما لو أن الفقر وخطر الموت كانا حفلة. كان قد وهب نفسه لقضيته. وهب نفسه. هو كان يعلم أنه لا يوجد فرح أسمى.

حسن. تلقيت الرسالة وذهبت. في صباح اليوم التالي كانت تمطر. كان علي أن أنتظر في موقف حافلة. كان المطر ينفجر على صفيح سقف المأوى وأنا توترت. السيارة لم تأتِ. كان بجانبي رجل لم يصعد أيضاً إلى أيٍ من الحافلات التي كانت تمر. جاء شرطيٌّ دورية ببطء ولسني وأنا أحسست بأنهم يتجسسون عليَّ من كل جانب. كان المطر ينهمرُ مدراراً وأنا مبتلّ والسيارة تأخّرت. فكّرْتُ في أن أغادر، ولكنني بقيتُ بسبب المطر، وكوني هناك. أخيراً ذهب الرجل المريبُ. هذا هدئني بما يكفي. حين وصلت الحافلة، (فيّات زرقاء)، كنت وحدي ولم يعد يهمني أن أستمرّ بالانتظار. رأيت بلور النافذة ينزل ووجهاً يُطل:

-أبحث عن الشارع المؤدي إلى البحر – قال.

كانت الجملة المتفق عليها. أجبته:

-أنا أيضاً ذاهب إلى هناك.

كان وقع الكلمات مضحكاً في غمرة المطر. حينها كنت قد ارتديتُ البحر.

جلستُ في المقعد الأمامي، دون أن أنظرَ إلى جانبي. تابعنا تقدمنا عدة شوارع . بدا الشارعُ الخالي ضبابياً. أعطاني الرفيق نظارة سوداء. وضعتها ولم أرَ شيئاً. كان على العدستين نتفُ قطن. درنا عدة دورات. كانت رحلة طويلة.

أين سرنا، ليس لدي أدنى فكرة. تعودت على النظارة. كنت أستمتع بالاستماع إلى أصوات الرياح الماطرة. حينها لم أعد أحسُّ بالتوتر. كانت الرياح تجبرنا على التقدم قليلاً وعلى الانعطاف بحذر. حين نزلت من السيارة، شعرت بأنني أغوص في الوحل حتى بطَّة ساقي. الرفيق أخذني من ذراعي، أنا أعمى، وقال لي أن أمشي بشكل طبيعي. مشينا على الرصيف مسافة ما بين شارعين تقريباً، وعندها جعلني أدخل. صعدنا بالمصعد. ثمانية أو تسعة طوابق، كما بدا لي.

ميّزتُ صوت فيرّو. سأله صبيّ الأعمى إن كان يريد منه أن يبقى، وهو قال له بأن يذهب وكفى. أزال عن عينيّ النظارة فرأيته يبتسم، هكذا، ابتسامة امتدّت ما بين الأذنين.

-ماريانو — قال لي.

أنت لم تعرفيه. تلك الابتسامة الصريحة، الأسنان المعوجة... كان له وجه كأنه مصنوع من الطين، وحشيّ، أُنهي

بشكل سيء، وجه فارٍ عبوس متباعد اللّحيين، كبير العينين، نظرة ماء نظيف: كان قبيحاً، ولكن عند النظر إليه وهو ينظر كان يبدو رجلاً حدثت له أشياء كثيرة، ولم يدع أحداً يُعهِّره. فالمرء يفقد هذا شيئاً فشيئاً، أليس كذلك يا كلارا؟ أعني : هذه القدرة على الإدهاش والمطالبة بكل شيء أو لا شيء، كما في أول مرة. هذا ينحسر كما ينحسرُ الشَّعْرُ. يُطَوِّع المرءَ شيئاً فشيئاً. ولكن الرجلَ ذاك كان ينظرُ ويقتلع ممّن ينظرُ إليه الشكَّ والخوفَ اللذين نموَا بطريقة سيّئة، وكان يفعل ذلك كمن لا يقصد.

أشعرني بالراحة تناول كأسُ النبيذ، الذي تدبَّر فيرّو أمره للحصول عليه. لم أكن أعرف لماذا دعاني. ما زلتُ لا أعرف.

كل الأبجورات كانت مُنزلة، ولكن في الظلمة الدامسة كان يلمع بياض الملاءات. كان هناك ملاءات منشورة في كل مكان. كانت شقة صغيرة جداً وكل شيء مقطوع بحبال تتدلى منها ملاءات.

-أتغسل للخارج أيها البائس؟- سألته.

12. الآلة

كان الواشي مصعوقاً من الضرب والأصوات. أين ستزجّ بنفسك؟ يمكننا أن نعثر عليك دائماً. دائماً. نحن نعرف كل شيء. أكنت تظن أنك ستختبئ؟ لا يوجد أيّ مكان. لن تُفلح بالإفلات منّا أبداً. لا يوجد كهف لا يمكننا الوصول إليه. لا كهف في أي

مكان من العالم. إذاً أنتَ لم تكن تريد أن تتعاون. وكنا نظن أنـك ذبابة حقيرة. مـا عـاد صـديقنا. مـا عـاد يُحبّنـا. أنـا صـديق هـذا المنحطّ؟ دعونا نكسر مؤخرته. المسْ، المـسْ. لنـرَ إن كـان سـيخرج منه دم . هل هي ليلتك الأولى، أيها الوغد؟ انظر، رزْهُ.إنـه حلـو. يبكي، إنه يبكي. أتبكي، أيها الملاك الصغير؟ إنه لاَ يسـتحق مـا نفعله له. زبالة. أنتَ زبالة، أنا أُكلّمك. انظـر إلـيّ حـين أكلّمـك. قلْ لي سَيّدي، هل سمعـت؟ سيدي! هـل نـرى كيـف يقـول يـا سيدي؟ آه، نعم. هكذا، هكذا. إنّه يبكي. هذا الوغـد يبكـي. هـذا الجبان. اسمعوه كيف يبكي. إذن كنتَ ستقوم بثورة، أنـت. الآن لا تجرؤ على أن تتفوّه بحرف، صحيح؟ لكنّه سيصير خراء. كفاك ضرباً له، لا تستنفد يديك. هو سيأخذنا إلى مكان صديقه. لا تكن بلاّعاً. اشرب، اشرب قهوة. أليس صحيحاً أنّـك سـتأخذنا؟ أنـت من جماعتنا. نعـم، نَعـم، ستأخذنا. خـذ، لا تبـكِ. لا، غـداً لا. الآن. لكن ارتحْ قليلاً. اِهدأ. لكن إذا كان كلّ شيءٍ قد انتهى. لماذا تبكي؟ نحن أصدقاء، كما في السابق، ستصيرُ طيباً وستساعدنا، يا ابن العاهرة.

الواشي وشى. ثم فكّرَ: من يستطيع إجباري علـى أن أدمـر حياتي؟ وحسناً. لا أصلح لأن أكون شهيد سراديب الموتى. وبهذا، ماذا؟ لا أحب أن أكون سجيناً. لا أحب أن أكـون ميتـاً. أريـد أن آكل كل يوم. هل من شرّ في ذلك؟ لدي أطفال. إذا لم أطعمهم، من سيفعل؟ الخبـز لا ينمـو علـى الطرقـات. الحليـبُ لا يخـرج مـن الصنابير. كنت سـجيناً. هزّونـي وكسّـروا كـلَّ شـيءٍ فيّ، ولم أقُـل شيئاً تقريباً. هل حرّك أحدهم ساكناً من أجلي؟ هل من أحد فعـل شيئاً من أجلي؟ أنا لم أكنْ مهماً، ها؟ ثوارٌ هؤلاء ؟ ألأنّ زوجـاتهم

تركنهم أم لأنّ آباءهم كانوا يضربونهم؟ أم لأنهم كـانوا يريـدون أن يكون عندهم سيارة ولم يستطيعوا؟ هؤلاء ساخطون. جبناء. يُقلّدون الأبطالَ كالقرود. يكررون العبـارات كالببغـاوات. يعرفـون الكـثير، أليس صحيحاً؟ الكثير من الكُتَيّبات. لديهم وصفة السعادة العامـة. يعتقدون بأنهم الأفضل. وإذا كـانوا الأفضـل، فلمـاذا لا يكسـبون؟ لـماذا يخسـرون دائمـاً؟ سـينقذون البشـريّةَ وهـم لا يصـدّق بعضـهم بعضاً. هل كانوا لا يثقـون بـي؟ لم يكترثـوا بـي؟ عقوبـات، لـي؟ اللعنة عليهم. الشعب يتـبرّز مـن الضـحك. إضـافةً إلى ذلـك، أنـا أصنع معه جميلاً. أصـنع جمـيلاً مـع سوسـة الأرض هـذه. حـر، سيصبح جثّة بين لحظة وأخرى. أسلمه وأنقذُ حياتَه. لـن يقتلـوه. سيلقون عليه القبضَ حيّاً. لقد أعطاني الضابط كلمته. لأنـني قلـت له إنه إن لم يكن كذلك، فلن أقول شيئاً. وهو أقسم لي.

الوشـاية: طُعـم، خفّاقـة، إصـبع اتّهـام، ثـور طيـار.
الواشي: يريد أن يصرخ فيتقيّأ، يريد أن يبكي فيتبوّل، يريـد أن ينامَ فيموت. يريد أن يريد وليس عنده مِن سبيلٍ إليه.

13. محاكم التفتيش المقدس

كان نائب الملكِ[10] توليدو يشكو من قلّة السلام وكثرة الاضطرابات التي وجدها لدى وصوله إلى البلد في أغلب الأماكن

10 نائب الملك توليدو: فرانسيسكو الفاريز دي توليدو حاكم البيرو ١٥٦٩ حتى ١٥٨١. المترجمة.

والبقاع: النزاعات التي تسبَّبَ بها غوميث دِ توردويا [11]، وخيمينيث وأوسوريو عكرت صفو مدينة السلام. في محافظة فيلكابامبا ثار الإنكيّ تيتو كوزي يوبانكي. طريق الكوثكو بات غير آمن بالمرّة بسبب السرقات والسطو كان يقوم به الهنود؛ مقاطعات توكومان وسانتا كروز كانت مضطَربة؛ في منطقة تشاركاس كان التشيريغوانيون يقومون بأعمال السطو مع كلّ قمر تقريباً؛ وأخيراً مملكة تشيلي، ومن شدة الخناقُ عليها، راحتً المحكمة العليا ترسل بحثاً عن إغاثة، لأن الهنود كانوا سيُحاصِرون الإسبان في مدنهم ذاتها.

قلّة هم من كانوا يحترمون العدالة الملكيّة أو يخشونها: الغني يعتقد بأنها لا تطاله، ولا هي تُعطى؛ والقضاة ليس لديهم النزاهة الكافية لتطبيقها، ويخشون أن تثورَ بعض البلدان التي اعتادت على الحريةَ السيّئة والانحلال. العدالة الملكيّة تُرشّ مع الزوفا، مثل ماءٍ مقدس.

وعلى هذا النسق تماماً أخذت الأحداث تظهر في تلك الأماكن، حيث كان هنالك حاجة جليّة لمزيدٍ من الصرامة في قمع الشرور ومعاقبة مثيري البلابل والمتمردين وألسنة السوء من الأشرار، لا سيّما أولئك الذين حاولوا تخريب المنشآت العامة، خدمةً كبيرة لله ودينه وولاءً لجلالتكم المستحقّة. أقول ذلك، يختم توليدو، لأنه وفي كل يوم هناك انتفاضات في هذه المملكة، في كلّ مكانٍ وكلّ ساحة يتجاسرون بالحديث عن ذلك، هناك بعض

[11] غوميث دِ توردويا: كان واحداً من المستكشفين الإسبان الذين شاركوا في غزو البيرو. م.

أعمال تمرّد تُثبت وتتحقّقُ ولم أر أحداً يُعاقَب عليها، في حـين أنّ الأفكار يجب أن تلقى العقاب الشديد.

اختصاراً لتلك الشّرور، كان أسقف كيتو، دون فـران بيـدرو دِ لا بينيا، يقول إن وقف هذه الشرور مناسب، خدمةً اللهِ ربنا أن يكون هناك محاكم تفتيش استثنائية في كـل مدينـة فيهـا مجلـس ملكي مـن هـذه الممالـك، ترسـي الأمـور المتعلّقـة بالإيمـان، تنـزل الخوف وتشكل رادعاً للسفلة ومن يسببون الكثير من البلبلة بحرّيَةِ لسانهم وعيشهم.

14. العودة

تجاذبنا أطرافَ الحديث في شبه العتمة، وتعب فييرو[12] من كونه يبدو شبحاً. رفعنا الستائر. كانت لا تزال تمطر في الخارج والرياح تعصفُ بقوة. حينها خفضتُ رأسي ورأيتهم. قفز

[12] لقب معناه الحديد. م.

قلبيّ من صدري. جاءوا مهتاجين جداً، يتصادمون ويقفزون من الشاحنات بخوذات وأقنعة غاز ورشاشات وبكلّ الترسانة. رؤيتهم من هناك من أعلى، جعلتهم يبدون كائنات من المريخ تغزو الأرض. شعرت بأنّني أنكمش؛ وبأن الأكمام صارت فضفاضة عليّ؛ وبأنّني أعودُ صغيراً. ماذا لو أنّهم كانوا يتعقبونني؟ ماذا لو أنّهم استخدموني كطعم؟ ماذا لو أنّهم كانوا قد تبعوني دون أن أنتبهَ؟ أصابني في تلك الثواني هلعٌ جعلني أتصبّب عرقاً. كان ذلك غصباً عني. ولكن، بماذا يفيدني هذا العزاء؟ وبالنسبة لفييرو، بماذا يفيده؟

صاح بي بأن أنجو بنفسي. أنا أردت أن أبقى. طردني، دفعني، رفسني، وأنا كنتُ أريد أن أبقى، يا كلارا، أردت أن أبقى. هل تصدقين بأني كنت أريد أن أبقى؟ أخبرني بأنهم سيقبضون عليه حيّاً وبأنه كان سيسلم نفسه، وأنه لا فائدة من المقاومة، وطلب مني أن أغادر، وبقيتُ أسألُ نفسي وأتهمها لوقت طويل وأعيد صياغة هذه المسألة بكل تفصيل، لأنني أعرف جيداً أن الذاكرة تعمل صنيعاً مع الضمير لتريحه، والآن أنا متأكد، يا كلارا، من أني كنت أريد أنِ أبقى حتى النهاية. وضع فييرو بين ذراعَيّ صندوقَ قرصان صغيراً كان موجوداً هناك، صندوقاً خشبياً صغيراً، وقال لي إنه لا بدّ من أن أنقذه بأي طريقة. خذه، صاح بي. هذه الوثائق يجبُ ألاّ تقع بيدِ أحد، خذها وغادرْ. كان يصرخ بهذه العبارة في وجهي، وأنا واقف كالأبله. تعاركنا ودخلنا في نزاع بين تلك الملاءات الضخمة. أطبق عليّ لوهلة وألقى بي على الباب المفتوح.

أُفكِّرُ الآن بأننا كنا نضحك لأمور سخيفة ونتفوّهُ بهذه العبارة البذيئة أو تلك، مغرورَين، ساخرَين، دون أن يذكر أيٌّ منا فرحةَ العودة للقاء من جديد أو أي شيء من هذا القبيل. فهذه هي الموضة، أليس كذلك؟ الموضة الوطنية. ما نسميه الرصانة. وأنا أعلم أنّه تكفي معرفة أنّ هناك أحداً يؤمن بك حتى تُنقذ نفسك، وأن الأمور الهامة تموت حين تُذكر بالاسم، وأنه يجب عدم الثقة بالكلمات المستنفدة بالاستخدام. أعرف هذا كله. إنه لمن المخزي أن تنفعل ويظهر عليك الانفعال. أنا أعلم. هي أشياء أقولها أنا نفسي دائماً. ولكن بسبب الموضة الوطنية، كان آخر ما أتذكره من أفضل صديق لي شيئاً مخزياً.

نزلت الدرجَ بسرعة إلى طابق أسفل وارتميت بكل ما أوتيت من قوة على أول باب وجدته. لم يكن فيه مفتاح، لذلك أغلقته وظهري إليه، مرتمياً عليه وكنتُ أرتعش حتى النخاع. الخوف والعار جعلاني أتبرّز في ثيابي.

في هذه الأثناء سمعتهم يصعدون الدرج. سمعت جلبة الأحذية وسيل الشّتائم البذيئة التي كانوا يطلقونها للتحريض. انتظرت الطلقات، لكنني لم أحسّ سوى بالضوضاء المختلطة ورائحة الغازات النفاذة التي كانت تصل عبر الشقوق وصوت فييرو يصرخ: أنا أستسلم، لا تطلقوا النار. ضربٌ وضجيجُ أجسادٍ ترتطمُ وتسقطُ، وصراخ. صعد الدمُ كله إلى رأسي. انحلّت مفاصلي. وكنت أقول في نفسي: كل شيء ضاع الآن بسببك، أيها الخائن الوضيع. لكنّني أعرف أنَّ خروجي كان غير ذي فائدة. انتظرت قروناً. كان لخوفي رائحةٌ وأشعر بها.

بعد برهة عرفت أنّ فييرو ظهر وذراعاه إلى الأعلى عند أول الدرج من بين ضباب الغازات القذرة. وحين أحاط به الجنود، سحب فتيل القنبلة التي كانت في قبضته ورماها على قدميه. يمكنك أن تتخيله وقد أغمض عينيه وصرّ على أسنانه بانتظار الانفجار. لكن القنبلة نطّت على الأرض مثل الكرة وهو رآها تتدحرج، دينغ، دونغ، وأعتقد أنّه امتلك وقتاً في أقل من ثانية مُطبقة وكلّ شيء كي يُفَكّر مذعوراً بأن النابض لم يكن مزيتاً وأن القادح لم يصل إلى الصاعق، ووقتاً ليشتم مصنع القنبلة وسوء الحظ، قبل أن يتلقى الرفسة الأولى بأخمص البندقية على قفا رقبته.

حينها رأيت الصبيّ الصغير. في الشقة حيث دخلت كان هناك طفل وأنا لم أره.أنا لم أر شيئاً. كان الطفل الصغير وحده، واقفاً في الزاوية ينظر إليّ، وقد تخشّبَ من الذهول من بعيد. لم يصرخ. لم يتفوه بحرف. لكنّ ربّةَ المنزل لم تكن لتتأخر كي تعود. كان عليّ أن أتراجع عن الباب. نهضتُ بصعوبة. وبقيت هناك، منهاراً، أُحس بالدوار وأتعرَّقُ وأشعر بأنني قمامة، وصندوق الخشب على ركبتَيّ.

فتحت الصندوق، وكان فارغاً.

15. محاكم التفتيش المقدّسة

نحن مدينون للمفتّشين، حراس شرف الله، بالفضل الأكبر الذي تنعم به الملكة والممالك المسيحية، فليس هناك من شيء معروف ونظيف من البدع والأفكار اليهودية والمذاهب

والأعشاب الأخرى الضارة التي تزرع الجهلَ، وتقتلعها أو تحرقها هذه المحكمةُ التي تمتد سلطتها من باستو، وهي مدينة بالقرب من خط الاستواء، على بعد درجتين من مدار السرطان، وحتى بونوس آيرس والبراغواي، وحتى أربعين درجة أو أكثر جنوباً، مما يجعل سلطتها تشمل ما تفوق مسافته الألف ميل شمالاً وجنوباً، وعلى ما يزيد عن مائة ميل بين شرقاً وغرباً، في أضيقها، وثلاث مائة في أوسعها. كلّ هذا يحرث ويزرع رقابة هذه المحكمة الكريمة ورعاية مُفتّشها الدؤوبة، الملائكة السريعين الذين يُرسَلون كي يضعوا حدّاً للناس الذين يطمحون إلى هتك القوانين والشقاق.

16. الآلة

أراد فـييرو أن يتحـرك، لـوى جسـده. مـا هـذا؟ أيـن أنـا؟ الأصفاد تؤلم معصميه والأسلاك الشّائكة تدمي كاحليه، لكنه لم يَرَ شيئاً. كانت تؤلمه مواضع الضرب بأعقـاب البنـادق والركـل. شـعر كأن رقبتَه مكسورةٌ بضربة فـأس. قـوّس ظهـره فطقطقـت فقراتـه؛

ثنى ساقيه فتمزقت عضلاته واضطرمت. في الرأس، كانت تؤلمه الأسئلةُ أيضاً. لماذا لم يرموا بي في سجن أو ثكنة؟ كان صاحياً، صحوةً يائسة، وكانت الأسئلة تشقّ طريقاً، سكاكينُ ساخنة حامية: لماذا أنا هنا؟ ماذا سيفعلون بي؟ كان رأسه يغلي وجسده يرتجف برداً. هل أنا في غرفة؟ في بيت؟ في مدفن؟ ما هذا؟ لماذا لم يأخذوني مع الآخرين؟ لا يستطيع أن يلمس نفسه، لا يستطيع أن يتحرك. لا يستطيع أن يرى. جرّ نفسه على الأرض؛ اصطدم بجدار. ما هذا؟ كانت هناك جدران وسقف وأرضية. شفرة الأسئلة الحارقة. هل سيتركونني أموت من الجوع والعطش؟ العرق بارد كالجليد. كم الساعة؟ متى سيأتون؟ ودّ لو يأتون وينتهي. وكانت الرّيبة أسوأ من أي شيء. وماذا لو تركوني مهجوراً لأموت؟ ورق صنفرة في حلقه. كم من الوقت يحتملُ المرءُ أن يبقى دون ماء؟ عليّ أن أتذكر كم من الوقت. كنت أعرف. علي أن أستعدّ. لا، لن يدعوني أموت. غثيان مؤلم لاذع صعد من كبده إلى أسنانه: سيقتلونني. سيقتلونني رمياً بالرصاص في نقرتي.

هل سيتركونني أموت أم أنهم سيقتلونني؟ ماذا أُفضّل؟ اختَرْ. هل أنا خائف؟ خائفٌ، أنا؟ أتبرّز من الضحك. خائف لا؛ مذهول. مذهول مِمّ؟ أطلّ من سطح الذاكرة الأملس رأسُ شيءٍ كان يدفعُ ليخرج. عمري سبعة وعشرون عاماً الآن.هل انتهى حبل حياتي؟ ألم تكن حياتي قصيرة كيلا تستحقّ كلَّ هذا الموت الذي ينتظرني؟

ليس خوفاً. هو غضب وذهول. عمري سبعة وعشرون عاماً. عمري خمسة. أو ستة؟ أنا على حافة الطريق مع صديقتي. نحن مختبئان في الأيكة، بين زهور الشمرة الصفراء وأزهار الشوك

الليلكية. نرى قطيعاً من الخيول القويّة يمرّ قربنا. دون وداع نراها تمرّ وخلف الارتجاجات صندوق خشب الصنوبر. هناك تسافر الجدة، في الصندوق ، وفي الخلف موكب من عشرين سائراً، موكب صغير متشح بالسواد من الأقارب والأصدقاء والجيران.

- الجميع هنا؟

- اسكت.

- ألا تعرف؟

- ماذا؟

- إذا عددت سبعةً وعشرين وقلت الرقم، فإنك ستموت في السابعة والعشرين.

يسري بنا الخوف. نمشي إلى الوراء، أنا وهي. تخزنا الأشواك، نتعثرُ **بجحور البوم**، نسير إلى الوراء ونركض. لكننا لا نلتفتُ. ننظر إلى أقدامنا وأصابع أيدينا تتشابك مجدولة في عقد لا نهاية لها.

فيبرو لم يسمع الدرّاجات الناريّة. أصوات الجداجد والضفادع بعيدة. أهو الريف؟ أهناك غرف أخرى؟ هل هناك شخص آخر هنا؟ صرخ فيبرو. أطلق شتيمة طويلة ملءَ رئتيه. اكتشف قوة الصراخ. انتظر، وقد فوجئ بدويّ صوته. وصرخ من جديد. شَتْمُ الصراخ يشعره بتحسن. انقضت الدقائق. أم ساعات؟ قوَّة الصمت. ما هذا؟ اهتزّت يداه في اندفاعة عمياء لأن ينتزع

العصبة عن وجهه، لكن حدّ القيود جعل أسنانه تصرّ من الألم وأعاده إلى الواقع. كان منهكاً. الحركة لا تفيد. كان عليه أن يُفَكِّر. لا. لقد عصبوا عيني كي لا أتعرّف عليهم: لن يقتلوني. لا. لن يفعلوا. وإلاّ لكانوا أطلقوا عليّ النار حين أحضروني. لم يحضروني لهذا السبب. لا. أم نعم؟ الأمر ليس متروكاً لي؛ هم يقررون. أنا وحدي. أنا في جب عميق. أكتشفُ الذعرَ من الموت وقوةَ الصراخ. وحدي. في قاع الجبّ العميق. أنا والخوف. الخوف من أن أُترَك . صرختُ؛ أصرخُ. بصوتِ آخرَ. كم كان عمري؟ الجبّ حارٌ جدّاً في الداخل. لا يُرى أي شيء. لا بدّ أنه قريب من الجحيم. حشراتٌ تمشي على جسدي. في البداية لا أستطيع أن أصرخ، بسبب الغصة في حلقي. أشعر بجسدِ أفعى زلق باردٍ يُلامسني. أم هو ذيل الشيطان، المماثل له. أريدُ أن أصرخَ ولا أستطيع. أُريدُ أن أتسلقَ فأسقط. وهناك درجات على جدران الجبّ. اكتشفتها باللمس.ولكن الأرض ترشح فأنزلق وأعود إلى القاع. قدماي الحافيتان تغوصان في القاع الطيني. لا أقدر على تحريك إحدى ساقيَّ؛ لا بدّ أنها كسرت عندما وقعت. أخشى أن أستخدم يديَّ. أنا وحدي تماماً في قاع الجبّ دون هواء أو ضوء. أخيراً أستطيع أن أصرخَ وأصرخُ، ولكن الجدة لا تأتي، لا أحد يأتي. كم كان عمري؟ كان فجراً. قبل الفجر. كذلك كانت السماء مظلمة. والآن، كم الساعة؟ لا بدّ أن المساء يَحلُّ. سينهالون عليّ ضرباً. هذا هو. هذا ما سيفعلونه. سيوسعونني ضرباً. لهذا أنا هنا. في المأزق، أنتظر. سيأتون ويقطّعونني إرباً. إنني أسمعهم. يشحذون أدواتهم. لا، أنا لا أسمع شيئاً. أهو جدجد أم زيز؟ في البعيد. لا أسمع شيئاً، لا أرى. لا يوجد شيء. أنا محاط بالعدمِ

والبرد. في أية ساعة سيأتون؟ سبعة فرسان. قادمون من الأفق، متلألئين، لا يعرفون الشفقة.

لا بدّ أنّه لم يبق كثير كي تشرق الشمس. توقظني جلبة حوافر الأحصنة. أرى المشاعل تتقدّم. أرى الخيول واللهب يكبرانِ في السواد، بين هبّات الضباب والغبار. تأتي الخيولُ عابرةً الحقلَ المجاور، بخبب سريع، وتحاصرُ المنزل. حصان القائد يقف على قائمتين. ضربة بأخمص البندقيّة على رأس أبي. أخي الكبير يتدحرج بدفعة قوية. أنا أهرب. يلحقون بي؛ أدخل الجبل. العشب مُبَلَّل. أقع. أضيع. أرى من الجبل، مُختبئاً في أعلى شجرة، ألسنةَ اللهبِ ترتفع في السماء المطبقة ظلمةً وأرى بيتي ينهار.

كان فييرو يشعرُ بأن مثانته ستنفجر. يبول تحته. هل ستبول تحتك؟ عزّة النفس تنشرخُ، تتأذى إلى الأبد: جزء من العلاج أن أتحول إلى شيء؛ إلى شيء مسكين بائل مرتعش، لن يكون جافاً بعد الآن. سوف أحتمل. أنسى نفسي. لن أبول على نفسي، أنا لن.... ما عدتُ أرغبُ. أقرِّرُ أنّني لا أرغبُ. يريدون أن يُحَطّموا ضميري. لهذا أحضروني إلى هنا. لذلك أنا عندهم هنا، مربّطاً كالمُقددات. يكسرون إرادتي، لن يقتلوني، ميتاً لن أفيدهم بشيء.كان باستطاعتهم أن يقتلوني ساعة قبضوا عليّ، حين تعطّلت قنبلة الخراء تلك أو بعدها. لا. لن يقتلوني. جبان. في النهاية، ماذا يهم؟ يا ماولا. ألم تكن مُصمِّماً من أعماقك على الموت؟ ألم تكنِ غير مكترث بالموت؟ حماقة تحدث لأي شخص. أن تكون جديراً بالآخرين، جديراً حتى النهاية، ألم يكن الأمر

يبدو سهلاً؟ أحدٌ يقول لـي: "يكفيني أن أعـرف أنـك علـى قيـد الحياة في مكان ما من العالم". أحدٌ يحكي لي أشياء. وأنـا أحكـي له أشياء من الماضي. نحكي لبعضنا. نتكلم بينما تساقط عنّا ثيابنـا شيئاً فشيئاً ونتكلم. لا نخلع ثيابنـا. الثيـاب تختفـي شيئاً فشـيئاً ونحن نحكي لبعضنا أشياء من طفولتنا. الفتاة الجميلة التي تتعرى هي بيتي الحقيقيّ الوحيد. أنا دبّ أخرق: هي وجاري.

كان فـييرو يتشـاجر مـع ضـميره السـليط؛ أراد أن يسـاعدَه ويُدافع عنه. هو يعرف أنه كان أفضل ما لديه: هـذا الـذي يطلـق عليه الآخرون الروح. هذا الوجهُ تحت الوجـهِ: الحقيقـيُّ، المليءُ بالجروح، الذي لا يُغْمَضُ له جفن.

كان يعلم أنَّ السلطةَ متخصصة في هذه المطاردة تحت الجلـد وبين العضلات، وأنّها لهـذا وُجـدت، تُنكّـلُ بالأجسـاد في غـرف التعذيب. كم مرة سمعه؟ هذا ما يريده التعذيب، هو موجود لأجل هذا. كم مرة قال هذا؟ يريـدون أن يحوّلونـا إلى حشـرات ليتمكنـوا من سحقنا. هل سأخسرُ الاحترام؟ أنا قوي. نحن أقوياء. لعلني لم أتعلمه عن ظهـر قلـب؟ الـذاكرة. حمايـة الـوعي. الإحاطـة بهـا، حمايتها. أنا مسجون، لكنني أهرب بتمامي، سالماً، ظافراً. مفـاتيح الـذاكرة. أهـدأ: أسـترخي. أتـذكر: أحـيطُ نفسـي بالنـاس الـذين أحبهم. أناديهم فيأتون من أسفل ومن أعلى ومن بعيد. أمـرُّ بيـديّ على وجوههم. يدي مطلقـة الحريـة. أُداعـب وجـهَ النـاس الـذين أحبُّ. لا أدعو الله. هل سبق لي أن دعوتـه مـرّة؟ مسـيح منكسـر. أصلّي راكعاً أمام مذبح الصفيح في كهفي السريّ. يحلق سـرب مـن العقبـان في الخـارج، تنفجـر ومضـات ضـوء سـيء؛ تعـوي كلبـةٌ

مهتاجةً، تنبح الكلاب وتتشاجر كرمى لها. بنيتُ هذا المذبح المتواضع عالي القداسة، صنعتُه بيديّ اللتين لا تزالان متعثّرتين، يديّ الصبيّ، الصبيّ جدّاً، اللتين لا تعرفان بعدُ أن تكتبا أو تضربا. أُشعِلُ أعوادَ ثقاب، هي شموعي. أدعو الله بعينين مغمضتين، كما علمتني الجدة. لديّ هناك شخصية من جص، مسروقة، صغيرة، مقشورة برمتها، تأتي لتكون المسيح. ذراعه التي تسامح مخلوعة، لكني لطالما تخيلته (...) على هذه الشاكلة: طير له ذيل ملوّن وجناح مكسور من معركته مع الشيطان. أدعو الله لأنني محتاج له. لا لأجلي؛ لأجل أحبائي. أسأله أسئلتي وأنتظرُ راكعاً ويداي مطبقتان بشدّة. لا أحد يقول لي شيئاً. أُفكِّرُ أنه قد يكون نائماً، هذا السرغوف، تاتا ديوس وأُكلِّمُه بصوت عال. صمتُ الفضاءِ المطلق احتيالٌ. العدم المقدس، خيانة. اتضح أن له، وهذا ما قدّمه لي. لا أتقيّأ. أخرج مثل الرمح، كمُلاحَقٍ، ولا أعود.

يهدأ فييرو. كانت الذاكرة مصدراً للشجاعة. أنا أنا. أنتمي لذاتي، ولن أنسحب. كانت السماء ثقباً هائلاً، لكن الرأس راحٍ يملؤها بالأحداث والأسفار. لن يحطموني. سيأتون، عاجلاً أم آجلاً أو لن يأتوا أبداً، لكنهم لن يقدروا عليّ. أنا ملكٌ في هذه المملكة. فيها لا أحتاجُ لأن أكون سعيداً. أتذكر؛ أنا حصين. مستكشفٌ لكوكب لا يعرفه أحد: عالم ثقوب: حبات ثخينة من العرق تتدلى من حاجبيْ والدي الكثيفين. حركة الرفش. أبي العجوز يحفر حفراً وسْطَ مشهدٍ قمري. القدم تضغط على حافة الرفش (المرّ)؛ جبل من تراب يزداد اسوداداً يكبر على حافة الحفرة التي تزداد عمقاً. حفر عميقة لدفن آخر محصول للبصل،

للدجاج الذي نفق من الطاعون، للفاكهة التي أفسدتها غزارة المطر، وللفاكهة التي جففتها ندرته. لعبة الحجلة أو الديك الأعرج في دروب الأرض الجافة الضيّقة المغبرّة بين الحفر . أُساعِدُ أخي في تحميل التربة في العربة. عند العودة نجلب حزماً ونقلبها في الحفر. المنزل على حافة الوادي. بيت محاصر بالحفر والعواصف والسنين العجاف. كيف للبيت أن يبقى منتصباً؟ الكون ثقب محاط بالثّرى. العديد من الثقوب المحاطة بالتراب وسحب من الغبار الأحمر. لا تأتي الطيور لتنقر الديدان. لا أحد يأتي. متاهة: أعثر على الخط الذي يفضي إلى البيت. أبي بمرفقيه المسنودين على الطاولة الخشبية العارية. مصباح الكيروسين يحفر عضلات وجهه. الظلال العنيفة على وجه العجوز الذي يقول: "لم يبقَ من الحياء إلا القليلَ القليل". نأكل أكواز الذرة. صامتون. العواصف أتلفت سقف البيت. أرى النجوم تتلألأُ من بين الدعائم المكسورة وثقوب قرميد السقف المتطاير. كذلك أرى القمرَ يمرُّ مُبَخِّراً. أستيقظ وأخرج راكضاً، مقطوعَ النفَس، لأتفقّد الحفرَ. رأيت طائرة بيضاء صامتة وصلت منتصف الليل تهبط منها رويداً رويداً مظلةٌ. يهبط من المظلة سيّدٌ طويل القامة، وساحر. الساحر طفا، لامس الأرض. من جيوب الساحر راحت تسقطُ آلاف الألعاب الملفوفة في صناديق كبيرة بشرائط ملونة، الحفر كلّها امتلأت بالألعاب. بعد ذلك، وبهبة ريح، حامَ وغادر. أخرج راكضاً ولم أستيقظ جيّداً. أصل حافة أوّل حفرة عميقة وأُطل عليها. من السواد هناك في أسفلها، تُناديني قوّةٌ لا أعرفها ولها سطوة كبيرة. ضباب أو ذراعٍ غامضة تقبض علي من نقرتي وتحملني إلى الأسفل. أسقط جالساً في قاع

الجب، متوجّعاً، مكسراً تماماً، باكياً. شلّني الذّعر والقرف والألم. عندما أستطيع أن أصرخ أخيراً، أنادي الجدّة.

كان فييرو قد أسند ظهره على الحائط، وشعر بأنه أحسن حالاً. كانت الخرقة السوداء تضغط على عينيه وتخنقه، لكنها لا تمنعه من أن يرى وجوهاً وأقاليم ظهرت في السنين الخوالي، ولا من أن يتنفس هواء أزمنة أخرى. تذكّرْ، هروبُ فَرُور، لا يُنجي؛ لكنه يساعد. كان كمن يلمس جسده؛ وسيلة للتحقق: أنا حيّ: أنادي الجدة، ألفّ نفسي، عالم مثل جرس: يحلُّ المساء. الجدة جالسة عند مدخل الظلّة. ليس للهواء رائحة الياسمين. قضت الجدة يومها، مثل كل يوم، تغزل الكتان بأصابعها. عندها مروحة من حرير أبيض، مزيّنة بالأصداف وعروق اللؤلؤ، مفتوحة فوق ثدييها الكبيرين، لكنها لا تستخدمها أبداً لتحريك الهواء. تضغطها عليها، وفوق المروحة الساكنة التي تعكس طابعها الأرستقراطي، تتأمل الفراغ بعينيها، عَيْنَيّ العجوز العمياوين، بقرنيّتين منطفئتين وبؤبؤين طامسين. فستانُها جرسٌ ضخم بلون الطين. أدخل هناك، بين طيات القماش الخشن متكوّراً بين فخذيها، وأنا أحب أن أكون هناك، أقدّم لها المتة أو أنتظر أن تقولَ، بين حين وآخرَ، شيئاً، وتناديني حشرة قبيحة. الجدة لا تبتسم. شفتاها غائصتان في لثّتَيْن بلا أسنان والكلمات تخرج كما لو كانت ضوضاء رياح تشتدُّ. هي من علمتني أن أصل إلى القطب الجنوبي عبر طريق النجوم. تطوي المروحة لتدلني بطرفها، على الماريّات الثلاث و الأمعاز السبعة في خريطة السماء. هي لا تراها؛ تعرفها. وتعرف أيضاً القصةَ السرّيةَ لكل نجمة وأسفارها الطويلة في بحار الليل، لكنها قليلةُ الكلام. الجدة تشع دفئاً في الشتاء.

تُخبّئ أحفادها تحت جناحيها. هي لا تحب والدي، وهو يعتقد بأنها أصبحت بكماء بفعل السنين.

كان فييرو قد نجح في أن يجعل الماضي يتحرك على سير دوّار: كل صورة تخرجُ من سابقتها، وتصبّ في التالية. لا العطش ولا الوجع ولا العذاب كان يقطع عبور الذاكرة الحرّ. أشياء لم يَعْتَد تذكّرها، أو كان يرفض أن يتذكرها، تنبعث مثل مدن مقبورة. الذاكرة لا تأتيه بذكريات سعيدة، لكنّ هذا لم يكن يهم. كان من كان وما كان من قبل. أنا. أجوب ذاتي كما يجوب المرء البلد. فوق هذه الأحزان حقّقت نفسي بكدٍّ ذراعي. هذه الأحزان. أخمصا قدمَيْ الجدة الحافيتين والمتشققتين تطلان من بين ملاءة السرير. في رأس كل سرير خشبي تشتعل شمعة غليظة الفتيل. أقف على أصابعَ قدميّ الملتهبة على حافّة السرير، يكاد يكون جسدي شبه متدلٍ من السرير، أرى وجهها. تبدو الجدة كأنّها حيّة. تنظرُ عيناها المطفأتان دون أن تريا وخدّاها ممصوصان كما هي العادة، وجنتاها عريضتان جداً، لكنّ جلدها أصفر شفاف. ملاءة السّرير كالثلج تُغطي جسد الأمّ العملاقة. ذبابة تحوم حول وجهها. تقف الذبابة على رأس أنفها. أشعر بالملل. أشعر بالذنب لأنني لست حزيناً ولا تنزل أية دمعة من عينيّ. لا أعرف ماذا أفعل. أودُّ أن ألعب بحذروفي الصافر. أطوف حول منصة الميّتة، في صمت الغرفة مطأطئ الرأس، ومهما درتُ حولها لا أستطيع أن أعثر على الموت في جسد الجدّة. سأتعلمُ بعدَ سنواتٍ أن جسداً خالياً من الحياة فيه ليس هو الموت. فجسدٌ خال من الحياة ليس سوى جسد خال من الحياة. سأعرفُ أن الموت كامن في الحياة، كنهاية مُعلنة لأناسٍ يُحبهم الواحدُ ولتجارب تجعله سعيداً:

يُطلُّ، مثل العرق من المسام. وأن الجثة هي الجسد الوحيد الذي لا يتواجدُ فيه الموتُ. لكنّني كنتُ صغيراً جدّاً حين أجبروني على أن أقضي الليلَ بجانب جثّة الجدة، وأنا حتى الآن لا أفهم وأحمرُّ خجلاً، وأمتلئ قرفاً مخافةَ أن يجبروني على تقبيل هذا الشيء البارد. أترنّح فوق كعبي ورأسي نعليَّ، نحو الخلف ونحو الأمام، كلعبة هزازة لا تقع. كان الحذاء يسحق أصابع قدميّ. سيكون عليَّ أن أمشي كي أُرَوِّضها. سيكون عليَّ أن أمشي. سأمشي. في المدينة. في المدينة، ماذا سأفعل؟ أحب أن أذهب لمشاهدة كرة القدم في ملعب المرفأ، وفي أيام الآحاد أذهب وأتسلل متسلقاً الأسوار العالية. في ملعب المرفأ سأرى سفناً راسيةً وراء القوس وسفناً تعبر، سيبدو سحراً. في المدينة، مَن ينتظرني؟ يظهر أبناء العمومة والأعمامُ أولاً في الخيال؛ ثم في المنزل؛ ثم في الحي. سأمشي. ما هي الصور التي توسّع حدقة عيني؟ الذاكرة تُبْحِرُ؛ العاصفة تلعب بها، تُمَزّقها. "لا تدع المصيبة تصعقك أبداً. لا تسمح بذلك... أبداً... "سأكون الدخيل. سيوسعونني ضرباً. لأني أكتب باليد اليسرى. لأنني آكلُ اللحمَ بلا شوكة. الغريب. لأنّي لم أر البحرَ قط وأدخل فيه بملابسي. لأني أهرب من النافذة وأستلقي لأنام بين الأشجار الخلفيّة. أنا غير المدعو. سيضربونني، براحةِ أكفهم، بصنادلهم وزنانيرهم، بمشبك زنانيرهم المعدنيّ. بثعابين الرؤوس السبعة التي تنغص حلمي في الليل. لأنّني سليط. لأنّني لا أقولُ إنني أصل إلى المدرسة متأخراً ، لأنني أنتظر في صفٍ وجبة الحليب المجانية، ثم لأنّني أقول إنّني تأخرت لأني أريدُ فقط لا أكثر. أقيسُ، أمام المرآة، لساني الذي سيقتلعونه. أحلم بأنّ سيّارة تدهسني وتكسرُ ذراعي ويخرج من العظم المكسور

هريسة يقطين.أنا غير المنتَظَر. سيضربونني. أظافر ملونة بالأحمر مثل جراح طوليّة. لأني أدليت برأي بأن الهنود فعلوا حسناً حين أكلوا خوان دياز دي سوليس ومصّوا عظامه. سيضربونني لأني لا أبكي حين يضربونني. لأن كلبي الأعور يخرِّبُ، وهو يلعب، بنطلوني الوحيد، وأنا أقول بأني علّقته على سياج الأسلاك الشائكة. كلبي الأعور هارابّو[13]. يكشّر لهم عن أسنانه. ينشب فيهم أسنانه. يتسلق الأشجار. هارابّو ، الذي لم يكن يريد أيضاً أن يأتي إلى المدينة لكنه تعقّبَ رائحتي على خطوط السكك الحديدية والشوارع المعقّدة، جاء عند قدم سريري. يركلونه. يطردونه. ينتظرني. أنتظره. هارابّو مرمي في العمق، عند الفجر، بعينين زجاجيّتين وزبدٍ جافّ تقطر من خطمه المفتوح. وأنا أركلهم. أعضّهم. أضربهم بقبضتَيَّ. أنا أكرههم. "سأكرههم دائماً، قتلة، قتلة." أرفع أذن هارابّو وأهمس له بسر. يأخذونني من نقرتي. يصفعونني. يتركونني منقوعاً هناك حتى أندم وأعترف. ساقاي منفرجتان ويداي خلف ظهري، وسط الفناء الخلفي، في البرد القارس، أقسم وأقسم ثانية بأني لن أفتح فمي، لن أفتحه، وتمرّ الساعات، ينسلخُ الليلُ عن السماء، يهبطُ الليلُ عليّ، لن أقول كلمة واحدة، أبداً، والنجوم تدورُ بطيئةً، والجوّ بارد وأنا لن أشقّ شفتي. حين أفتح عيني أنا في سرير. أحدهم يئن. أحدهم يريد أن يضع في فمي ملعقة حليبٍ فاترٍ ويعتريني لأوّل مرةٍ يقين بالانتقام والانتصار والكرامة المُحرّرة.

---

[13] Harapo يعني هذا الاسم سمل، خرقة. م.

كان فييرو يسمعُ أصوات الماضي تأتيه دون كذب ولا عجَلَة. أحسّ بابنه يقول: "احكِ لي عنك حين كنتَ طفلاً". شعر بروائح الطفولة تعود، رائحة الشمرة، رائحة العجّة المقلية، شعر بطعم زهرة العسل وبطعم رقائق البسكويت، وبطعم الفاكهة المسروقة، رأى وجه ابنه مطبوعاً على شاشةِ الذاكرة، الصورة المذهولة، المُدهِشة، دائماً مولودة توّاً، نقيّة على خلفية الزمن المطموس. أغادر السجن عند منتصف النهار، حقيبةٍ على كتفي، وأطفو في الفضاء وأرمشُ: **يصعب عليَّ أن أتخيّل كل هذا الضوء في الهواء. الهواء مفعم بالمطر وكل شيء يسطع بنور أبيض. في البعيدِ امرأةٌ ظهرها إلى جدار، تنتظرني. ابني يأتي صوبي راكضاً، وبقفزة واحدة يتسلّقني، ونغرقُ في عناق طويل. ضربات القلب على الصدر. ضربتان: أنا حرّ، أنا حيّ. هذه الحاجة إلى المشي في أيّ اتجاهٍ وإلى أجل غير مسمّى، أمشي للمشي، لأنّني أريد، لأنّني أرغب بالمشي. الحريّة. انظرْ. عندي لك ديدان لبّ الخبز هذه. صنعناها نحن جميعاً.**

الحياة في الداخل. تحليق النورس الأساسي الذي يمر في قطعةِ السماء الوحيدة التي يدَعونَك تراها لنصف ساعة في اليوم. الظهيرة. المطر قادم. الغيوم الفاحمة تتدلى من السماء. هواء منتصف النهار المنتفخ. عندما تكتشفُ أنَّ العالمَ مُنَظَّمٌ كي تقتل الأحبَّ إليك ... منتصفات نهارات أخرى، أمطار أُخرى. تطير العصافيرُ لتلوذ بالجبل. يرفرف الحسّونُ ويخرج منطلقاً في خط مستقيم، تُنهَكُ قواه، يقفُ في الهواء؛ يبقى عالقاً. في الهواء؛ يهزّ جناحيه كالمجنون. يقلِعُ طائراً بكل ما أوتيَ. انظرْ. فاجأ المطرُ الأرضَ. الأشياء التي لا أقولها لك بسبب طريقتنا الصامتة في

الحبّ. عندما تكتشفُ... عندما تكتشفُ. انظرْ. تمطر كما لو أنّها المرةَ الأولى. ولدي يعتلي حصاناً، يعبر العاصفة مسرعاً. ولدي يعتلي حصاناً، يعدو بجانبي. العشب مسحوق تحت حوافر الحصانين. الأرض دون سياج. الأشياء التي لا أقولها لك. الأرض تبقبق مشبعة بالأمطار. من هذا الضلع ولدت، من هذه الأرض الرطبة نبتّ: من أجلها ستكافح حتى يصيرَ كلُّ موقد منزلاً للجميع. الأشياء التي لا أقولها لك. على حصان ، بسرعة يخبُّ في الأغمار، أحراراً تحت السماء المشروخة، وتمطر وتمطرُ. ماذا سيحل بنا جميعاً؟ أحرار. نشقّ المطر الجامح: أحرار. ما الديك الآخر الذي سيصيح؟

انتظرهم فييرو في تلك الليلة ولم يأتوا. لم يعودوا في تلك الليلة. عادوا باكرَ صباحِ اليومِ التالي. كانت الآلة تُكملُ ساعاتِ عمل المكتب.

17. المدينة

يسيرُ الطفل الصغير على الشّاطئ ويلـتقطُ مـن الأرض أنبوبـاً غير محدّد، قطعةً جوفـاء سـدّها الصدأ والـتراب، ويضـعها علـى إحدى عينيه، مثل منظـار. يسـدّد صـوب الشـمس. يغمـزُ بـالعين

الأخرى ومن نهايـة الأنبـوب الحديـدي تطـير فراشـات بأجنحـة ذهبتْ ألوانُها بفعل مطر الأمس ويطير الساحر المغني،كذلك يطـير جـيشٌ مـن العصـافير تتصـدّرها القبّـرات المـاكرة صـوب أيكـاتِ الجبل. يخـرج الحسّـون مُرفرفـاً مـن نافـذة المنـزل بعـد أن الـتقط بمنقاره بطاقة أمي التي لا ينتهي مفعولها أبداً، وهكذا هي تشتري الطعام وليس عليها أن تعمل ولا أن تبكي ولا أن تقلـق. كمـا يـرى الطفل الصغيرُ نفسه على الطرف الثـاني مـن الأنبـوب الحديـدي، إنه كبيرٌ ومُروِّضُ أحصنة.

يمشي الصغير ويمشي حتـى نهايـة الطريـق، حينهـا يـرى درجةً ويأمر نفسه: "اجلس".

ويُفَكّر:

أين يذهب السادة الذين يعيشون على القمـر حـين يـنكمش القمر ويصبح نحيلاً، نحيلاً؟

كم عدد حبات الرمل في العالم هنا؟

ويُفَكّرُ:

هل يُحضر الملـوكُ المجـوس هـدايا للمـوتى؟ أم أنّ المـوتى مثل الفقراء؟

كم من الناس يسع فم النمر؟

لماذا كان علينا أن نأتي إلى هنا؟

يقتلع حفنةً من العشبِ ويضعها في جيبه: إنّه خس، كي يأكلَ أبي حين يعود. أخذوا أباه ولا أحد يستطيعُ أن يراه وهو يخبئ له الطعام ويعتني بأشيائه.

الصغيرُ لا يُحِبُّ المدينةَ، لأنّ المدينةَ كبيرة ويضيع فيها وهو لا يعرفُ ما سيفعلُ كي يعود. يمرّ نورس قربه، يصفعه بيده دون أن يطوله. يفكّر: "لم أركب نورساً قط". فَكّر: كم سيكون رائعاً أن يستطيع أن يركب نورساً أو طائرةً ورقيّةً ويأخذ أباه ليتعرّف على عوالم أخرى.

18. محاكم التفتيش المقدّسة

قالت إنّها ليست مدينةً لأحدٍ بشيء.

وُبِّخَت وأُمرت أن تخلع ملابسها غير أنها أصرّت بأنها ليست مدينةً لأحدٍ بشيء.

وُبّخَت من جديد كي تقول الحقيقة، حيث لن يأمروا بوضعها بالمخلعة.

قالت ليس عندي شيء ضدّ الإيمان. جُردت من ملابسها وقيدت إلى المخلعة. رُبطت أصابع قدميها، قدماها وقصبتا الساقين زذراعاها، مربوطة بحبلة، الجزء اللحمي إلى رسغيها.

بينما هم يُعرّونها من ملابسها كانت تقول إنّها ليست مدينةً لأحدٍ بشيء، وإنها إن اعترفت بشيء أثناء التعذيب فهو لعدم قدرتها على تحمُّلِهِ، ولن يكون هناك قيمة لاعترافاتها ويجب ألا تُؤخذ بالاعتبار، لأنها ستقولها بدافع الخوف.

بعد أن قُيّدت بالطريقة المذكورة، إلى المخلعة، وبّخت كي تقول الحقيقة؛ وهنا ولن يأمروا بضربها والضغط عليها لن.

بدؤوا بالحبلة في المعصمين.

19. الآلة

أنا عين لا ترى... أنا أذن لا تسمع...أنا هذه اليد التي لا تلمس...

رفت الجفـون تحـت القمـاش الخـام الأسـود الـذي يضـغط عليهما. أراد فييرو أن يقتلع الكمّة المربوطة برقبته: قطّع السـحب العنيف معصميه المكبلين خلف ظهره. أين أنا؟ سـاقاه ترفضـان أن

تتحركا. كانت الأربطة مصنوعة من الخرق. لماذا أنا هنا؟ لم تخرج أية كلمة من فمه. لسانه كان كرة من اللحم الملتهب. مع من أنا؟ شفتاه لا تغلقان. ذقنه يرتجف، أيضاً لا يطيعه. ببطء راح يتعرَّفُ على جسده، المنطقة المنسوفة، التي ما زالت منه.

أنا جسد مسلوخ...

عواء بعيد يروح ويغدو. لم يكن فييرو يسمع شيئاً آخر، وكان صراخه ذاته قبل برهة يرتدّ على هيئة صفير عاصفٍ ولجوج. صراخ: أنين من عدم. اعتقدَ أنه يعوي. حلقه لا يتجاوب. هناك حريق في حنجرته. كان قد طلب ماءً. هل كان تَذَكَرَ؟ نعم، يتذكر. كانوا قد فتحوا فمه وبصقوا فيه.

أنا كومة من العضلات الملتوية المحروقة...

كل أعصابه كانت مفتوحة على الهواء. شعره يؤلمه شعرةً شعرة. أظافره تؤلمه. شعر بإبر في كل مسامه. شعر بالألم يُطقطِقُ في صندوق عظام الجمجمة. إلى متى؟ سيعودون. إلى متى يمكنه أن يَتَحَمّل؟ سيعودون الآن. كلب، في الظلمة، جمرتان، جمرات كثيرة. أنتَ وحدك مثل كلب ، صاح الجميعُ، نعرف أنّك تعرفُ نعرف كل شيء، يا ابن العاهرة قُلْ. كانت الكلمات تطير، تصطدم بالبياض: تنفجرُ. ليس لكَ مخرج. اعترفُ، قُلْ، من هم؟ كم عددهم؟ أسماؤهم؟ نريد أسماء، اسمع، انطق، لا تدعنا نقتلك، صلّ، يا ابن العاهرة، هيّا صلّ. انفجر الدماغ نتفاً. غثيان مثل موجة بطعم الدم ورائحة العفونة. سيعودون. الآن. سيأتون من الجهات الأربع، مثل كلماتهم وضرباتهم. برد شفرة السكين على

كيس الصفن. سبطانة المسدس مقحمة في فتحة مؤخرته. يرفعون كمّتك من جديد: مرة أخرى سترى الشّرر يقشط جلدك، يقضم لحمك، يمزقه إرباً. ستتقلّبُ مثل سمكة وقعت في الشبكة. يأس الأسماك الزلق. الآن. سيعودون. إلى متى يمكنك أن تَتَحَمّل؟

النصر يحتاجنا جميعاً. هل يحتاجنا؟ هل يحتاجني؟ سيعودون. قريباً. الآن. رغب بالصراخ. لسانه المنتفخ ملأ كاملَ رأسه. الخصيتان منتفختان مثل بالونين. الصديد يتقطّر: شعر بأنهار الصديد والدم الصغيرة المقرفة تنزلق من جراحه. الموت. نعم: يتذكر. أنتَ وحدك، لا أحد يعرف أنك هنا، لا أحد رآك حين أخذناك، لا أحد يعرفك، لا أحد. سنقتلك.

أنا حفنة من ألياف ممزّقة...

موت؟ لا أريدُ أن أموت. من غير المنصف أن أموت. هل أريد أن أموت؟ لا أريد. هناك أشياء كثيرة عليّ أن أعملها وأراها. يا وقتي، يا عالمي. وقت لانهائي. وماذا إذا لم يكن هناك الله، لمن يحتجّ واحدنا؟ أنا مصنوع من الألم. خرّبنيّ الألم. إلى متى يمكن التحمل؟ الموت. سنقتلك ولن يدري بك أحد، لكن ليس الآن، آه، لن نهديكَ موتكَ الآن، أيها الشقي، ستعاني قبل ذلك. كثيراً. انظرْ. لقد ارتفعت الأرض وسحقت وجهه. تنفتحُ الكماشات وتنغلقُ على كل قطعة بقيت فيه حيّة. جمرة مشتعلة في الظلام. اثنتان. جمرات كثيرة: هم يدخنون. ستُكَرِّرُ علينا ما قلته لنا. كانت الذاكرة تترنّحُ سكرى على قدم واحدة. ما قلتَه. لكنني لم أقل شيئاً. أنا متأكد. كان يشعر بالأرضية الإسمنتية جليديةً تحت جسده العاري و بألم العالم كله بمجرد أن يبلع أو يحرك إصبعاً،

وكان يقول لنفسه: أنا متأكِّد من أنّني لم أقل شيئاً. أنا متأكد من أنّني كنت أقوى منهم ولم أقل شيئاً. هل أنا متأكد؟ الأرض تدور، كرة نائمة في الفضاء، وفيپيرو يشعرُ أنه مثل صرصور مُداس واكتشف أنه يشك وكان خائفاً. لم أقل. كان قماش الكمّة اللزج يخنقه. الثورة، أرض الميعاد ... ثلاثون عاماً؟ ممكن أن يكون. أربعون عاماً؟ ممكن. صليب بقلم تلوين أحمر على عدد من الروزنامات؟ غداً؟ لا. النصر والانبعاث والسلطة: ليس غداً. إنني أدمّر حياتي. لن يكون لي حياة ثانية. هذه هي الوحيدة التي لدي. حياة، حياة وحيدة. إنني أضيّعها. إنها تفلت مني.أنا أخسرها. إنها تستنزف، تتقطّر. لن يعطيني أحد غيرَها. كنت أُحبّها. كم من الألم مازال بانتظري؟ وكلّ هذا من أجل من؟ من أجل الآخرين؟ من أجل أولئك الذين يمزّقونني؟ هل من أجلهم أيضاً؟ هل الحشود عائلةٌ؟ هل يستطيع المرءُ أن يشعر بعناق الحشود؟ ، بلى يستطيع، بَلى يستطيع. يمكنك. تستطيع. استطعتَ. حدث لك. إنه يحدث لك. دائما. الحشود: فتاةٌ حبلى بالقنابل. الناس يرقصون في الشارع. فرحة شرسة. ضجيجُ طبول وقيثارات وأعلام والكل يتعانقون ويُقبّلون بعضهم من غير أنْ يعرفوا بعضهم. بلى: دائماً. بلى، الكل. لذلك: الكل. الثورة: عندما تنزلُ السماءُ و تصعدُ الأرضُ. المسلحون، عُزّل. والمُقيّدون، طلقاء. الثمن. دفعُ الثمن، ألم يكن هذا ما كنت تطلبه؟ ألم يكن هذا ما كنتَ تريده؟ من اختار بدلاً عنك؟ ليل السنين الطويل. عملُ النمل. العجز والانتظار. عباءة لا أكثر، وفي الهواء الطلق. أنتَ. أنا. بلى. أنا. نحن. أنا مستعد لتفجير جميع السجون وانتهاك كل الوصايا. ألم تكن تريد أن تتكلم بصوت من لا صوت

لهم؟ أن تقاتل إلى جانب أولئك الذين لا أسلحة عندهم؟ أن تسقط مع من هم محكومون بالسقوط؟ مع أولئك الذين يواجهون السقوط؟ أنا. هذه اليد، هل هي يدي؟ إنها نائمة. تلك هي: تنام. مسكينة اليد المخنوقة. لماذا تؤلم إذا كانت نائمة؟ لماذا يسيل لعابي إذا كنت ميتاً من العطش ؟ فمي مفتوح كالأموات. أرتعش: أنا حيّ. هل أرتعش خوفاً؟ يؤلمني دمي حين يجري في عروقي: أنا حيّ. يؤلمني عرقي البارد. تؤلمني عضلاتي وعظامي ونقيّها. إذا كانت تؤلمني، فأنا حيّ. مَن هناك؟ أنا وحدي. هل من أحدٍ؟ هل من أحدٍ هناك؟ هل أنا أتكلم الآن؟ لا. أفُكِّرُ هو هذا. أنا لا أتكلّمُ. لم أقل شيئاً: لا أقول شيئاً. أنا أقوى من ألمي. أنا أقوى من خوفي. إننا أقوى. نحن. نحن. أنا.مستعدٌّ لدفع الثمن. أنا هنا ونعرف لماذا نموت. هم لا يعرفون لماذا يَقْتلون. أوباش مساكين. أنا مستعد لأن أموت. وأنا مستعد لأن أُقاسي . سأقاسي بفرح وحشي.

أنا لستُ ألمي، أنا آخر...

أُفَكِّرُ. هذه هي المسألة. عليّ أن أفكّر. أن أُرَتِّبَ أفكاري. أن أنقذ نفسي. أُفكّر. أُنْقِذُ نفسي من الألم. أفصل نفسي عن الألم. هذا هو الأمر. الألم يمزّقني. من أنا؟ أنا لست مُكسّراً. مَن كنتُ؟ لن يكسروني. من هم أصحابي؟ أصحابي: هم الجياعُ، المؤرَّقون، المُعْدَمون. كراهيةٌ تنمو كالشعر أو الأظافر. أنا أقوى من ألمي. أُفكر. أُفَكِّرُ أنا. قويّ. أنا أعرف لماذا أنا هنا. أنا اخترتُ أن أكون هنا. هنا، في هذا مكان الخراء هذا. كنت أعرفُ ما كان سيحلُّ بي. أردتُ. عَرَفْتُ. لم أكن محكوماً. هل نأكل ونتجشّأُ وننام في ظل الحراب؟ أنا قوي لأنني أشعر بالقرف. أنا قوي لأنني أشعر

بالكراهية. السلطة. نحن نعلم: لن تنزف دماً عندما تموت. نحن نعرف: ستُخَلِّفُ قليلاً من الغبار على أيدي العادلين. لا يهمني أن أموت. لا يهمني أن أعاني. الحياة لعبة نرد. أُحَرِّك أصابعي. هكذا. ساقاي. أوتاري. رويدا. رويداً. هكذا. أنا حيّ. هكذا. لستُ وحدي. ما زلت حيّاً. الثورة: حين تمطر من أسفل إلى أعلى. أرى نفسي بعيداً. أنا بعيد. على مهل.

أنا بلدٌ جوفِيّ...

20. محاكم التفتيش المقدسة

على الجدران، علّقت نظم مختلفة، بعض الأمراس المعقودة وأخرى ليست قليلة يبّسَها الدم. أخرى من سلاسل شائكة مُسنّنة ودواليب دقيقة كدواليب المهماز، أيضاً ملطخة بالدم؛ نسيج من أسلاك مُسنّناتها بارزة، كأسنان البوصة، مغطاة بالجلد من الخارج

ومزودة بأربطـة كـي تُـربط. يوجـد منهـا مـن مختلـف الأحجـام، للخصر والفخذين والساقين والذراعين. تبـدو الأسـوارُ أيضـاً تظهـر مزينة بقمصان واخزة تُستعمل بعد الجَلْـد، وعظـامٌ بشـرية في كـلّ طرف منها مرسة لِكَمِّ أفواهِ من يتكلّمون أكثر من اللازم، وكمامـات تستعمل للغاية ذاتها مصنوعة من قطعـتين مـن القصـب مربـوطتين في الطرفين، والتي حين تفتح مـن وسـطها عنـد وضـعها في الفـم، وربطها خلف الرأس، كتلك الموجودة في طرفي العظم، كانت تضغطُ على اللسان بقوة كبيرة.

في أحد الدروج هناك العديد من الخواتم للأصابع، مصـنوعة من قطع صغيرة مـن الحديـد علـى شـكل أنصـاف دوائـر أو أهلّـة بمسـمار في أحـد طرفيهـا، بحيـث أنهـا حـين توضـع في المكـان المطلوب، يمكنها أن تضغط إلى الدرجة التي تُراد، إلى حـدّ سـحق الأظافر وهرس العظام.

21. الآلة

أراد فييرو أن ينام، أن ينزلق عبر شرايين الحلم الطويلة المظلمة صوب قاع البحر أو الليل. كان يريد لكن لا، لم يستطع أن يُطبق جفنيه. لم يقدر أن يغادر. كانت الكوابيس تدخل وهو مستيقظ بالقوّةِ من عينيه المفتوحتين على قماش الكمّة الأسود.

كوابيس مثل هذه:

كانت الجدران حيّةً وتأكل الهواء وتنتفخ تدريجياً، كان يسمعها، تنبض، نبضَ ساعة، تتقدم، وتنتفخ، جدرانٌ-رئاتٌ تنكمش وتتمدَّدُ، وتكبر مع كل نبضة. جدرانٌ-بطون تمشي، تمتلئ بالهواء عبر المسام المفتوحة، مسامات-أفواه تلهث وتنفث عصفاتِ ريحٍ مبحوحة وساخنة تشفطُ هواءَ العالم كله وهو يحسّ بنبض الرعود، وصخبِ غزو الجدران التي تبتلع كل شيء، حتى لم يبقَ هواء يُستنشق ولا مكان لأحد وهو محاصر من ظهره وصدره، والجدران تسحق أضلاعه، تهرس رئتيه وتبتلعه، وتصير جداراً واحداً سميكاً ومنتصراً.

أو هذه:

سمع الظل يتكسر وسمع تأوّهاً أو خواراً طويلاً وأصهبَ، وفي السواد يُطلُّ لسان من فولاذ منتصباً يَتَقَدَّمُ. شفرة مطواة تدخل وتكبر، وبعدها صارت ثعباناً معدنياً يتماوج، ثمّ صارت منشاراً كهربائيّاً يلف ويدور بحثاً عن لحم بشري يُطارده، هو الذي ينحني ويقفز دون أن يستطيعَ رؤيته بينما يسمع صليلَ سيوف أسنان ضخمةٍ وهي تصطكّ، ويسمع أيضاً زعيقاً وعواءً وطرقات مطرقةً تطحن عظاماً وجَرّافة آليّة تودِّعُ الليلَ وتطارده لتخلطه ببقايا رجال مخصيّين، معلوكين ومُتَقَيَّئن وهو لا يجد أملاً في أيّ جزءٍ من جسده.

22. محاكم التفتيش المقدسة

أُمر بأن يخلع العباءة، ووُبخ كي يقولَ الحقيقة. قالَ إنّـه لم يعد لديه ما يقوله.

نُزعت منه القلادة، ووُبِّخ كي يقول الحقيقـةَ، قـالَ بأنّـه لم يعد لديه ما يقوله.

أُمِـرَ بـأن يخلـع صـدرته وسـترته، ووُبِّـخَ كـي يقـول الحقيقة. قالَ إنّه لم يعد لديه ما يقوله.

أُمرَ أن يخلع سترته وثيابـه الداخليـة وحـذاءه، وَوُبِّـخَ كـي يقولَ الحقيقة، قالَ بأن لم يعد لديه ما يقوله.

أُمِـرَ أن يرتـدي بعـض السّـراويل، ووُبِّـخَ كـي يقـولَ الحقيقة، قالَ بأنّه لم يعد لديه ما يقوله.

أُمِرَ بـأن يخلـع قميصـه وبقـي عاريـاً بالسـروال، جالسـاً على آلة التعذيب. قالَ إنّهُ لم يعد لديه ما يقوله أكثر مما قاله.

أُمِرَ بـأن يتمـدّد علـى المهـر[14] وقـال وهـو ممـدّد: "انظـرْ حضرتك كم أنا نحيل وكم من السهل أن تنتهي حياتي".

---

[14] Potro آلة تعذيب يمكن أن تكون مستقيمة أو مقوّسة نحو الخارج ويوجد على طرفيه دولابان أو بكرتان تربط إليهما الحبال الرجلين واليدين وتُدار لتشدّ الجسد من الجانبين.

23. الآلة

أراد فييرو أن يُغشى عليه ولعن قوَّةَ جسده. فكَّرَ، سأضربهم كي أجبرهم على إغمائي. سأضربهم حين يعودون.

اكتشف أنه لم يعد مربوطاً. اكتشف أنهم قد نزعوا الكمّةَ عن رأسه. أراد أن يقف. أصدر الدماغ الأمر. نزل الأمر من خلية إلى خليّة. حبال الأعصاب البيضاء نقلته بصوت عال، لكنَّ نقيٍّ

العظــام لم يصــغ. لقــد تم قطــع الأســلاك، نُســفت الجســور بالـديناميت. النخـاع الشـوكي لم يكـن يسـمع. كانـت الأسـلاك مقطوعةً والجسور منسوفةً؛ والنخـاع لا يسـتجيبُ. الـدماغ ينـادي العضلة، يُكرِّرُ الأمرَ، يصرُّ: لا جدوى: هـذه السـاق غريبـة، هـذه الساق من رملٍ.

شـعر بنفسـه مرفوعـاً مـن رقبتـه ودفقـة ضـوء تسـقط علـى وجهه. عاصفة من شرارات تتالت وسْطَ جمجمتـه. سمـع أصـواتاً راحت تهزّه: "هل تعرفه؟ هل تعرفه؟ ". رأى وجهـاً. يـا لـه مـن عجوز مسكين ، شوّهه الخوف! يا له من شـيطان مسـكين! يـثير الشفقةً. كان وجهَ شـخص ضـاعَ في الغابـة، بلحيـة ووسـخ سـنين وملامح منتفخة وباهتة. ومع ذلك، كانت مرآة. اكتشف أنها مرآة. ما كان أمامه هي مرآة.

هـل هـو حلـم؟ هـل أنـا نـائم؟ يخطـرُ لـي. هـم يضـحكون مقهقهين وهو أراد أن يحطّم المرآة، يهشـمها شـظايا، يُحوّلهـا إلى نســيج عنكبــوت مــن زجــاج أو كومــة مــن الزجــاج المحطم بِلَكْمَةٍ: أراد أن يُحطـم نفسـه، وقـال لنفسـه: إلى الأعلـى أيتها الذراع،إلى الأعلى أيتها اليـد. غـير أنّ الـذراعين واليـدين لم تكـن لـه أيضـاً، واكتشـف: لا أشـعرُ بـالألم لأنـي لم أعـدْ أشـعرُ بجسدي.. لقد أسلمتُ جسدي. اقتلعوه منّي. خسرتُهُ.

غزاه الذعر من الخيانة. هذا الجسد الذي لم يعد لـه، هـل سيخونني؟ هل سيخون ناسي؟ لم يكن يعرف كـم مـن الوقـتِ مـرّ وأرادَ أن يتــــذكر الاســــتجواباتِ الأخـــــيرة، إلا أن الذاكرة أغرقته بالشك والضباب. شعر بأنه مضطر لقتـل نفسـه، إذ

لا أهميّة للولادة والموت، ما يهم هو ما بينهما، ولم يكن باستطاعته أن يسمح أن تكون الخيانة هي هذا الذي بينهما. يقتل نفسه. يموت، ينتهي. نهاية الجحيم، نهاية الجنة، بداية العدم. أن أقتل. أقدّم نفسي. الأرض الإسمنتية مثل مذبح من حجر والدم يتدفق غزيراً من الوريد المفتوح ومن سعادة التفكير: "لقد أفسدت عليهم الأمر." وستكون لي نهاية، لكن ليس وقت. وستكون لي نهاية، لكن ليس مكان. لا عراك. القدر محتوم، لكن من قِبَلي.

فكر بابنه، كما لو أنهما يودّعان بعضهما.

لم يكن يعرف حتى الآن أنهم لن يَدَعوه يختار. لم يمزقوا له كبده بعدُ، بعدَ أسابيع لم يتمكنوا من أن ينتزعوا فيها كلمة واحدة من فمه. لم يرموه ميتاً في الجبل بعد، بالقرب من أيٍّ قرية.

ولم يكن يعرف ولم يعرف قط أنه في مكان ما هناك رسالة له. الرسالة تقول:

لم ندع مكاناً لم نسأل فيه ولا أحد يعرف مكانك.

في الثكنات يضحكون علَيّ عندما أسأل. هم يقولون إنك ستكون خرجت مع أخرى، لكن أنا أعلم بأنهم سجنوك مرة أخرى لأنّ صديقاً لك يعرفُ وأخبرني. وأتساءل أين ستكون؟ أتصوّر المعاناة التي تعانيها الآن. يمكن أن تصلك هذه الرسالة ويمكن ألاّ تصلك، لكن سيان، سآخذها لأرى ماذا يحدث.

يقول اليويو[15] إنه يرسل لك علكة قابلة للنفخ، لأنّك تعرف كيف تنفخ بالونات جيدة، بالونات كبيرة، تحلق، وهكذا تدخل البالون وتهرب. يطلب أن تأتيه عندما تعود بمظلة وبوظة. لقد نهض اليوم باكراً جداً ليطلب منك أن تعود مع نجمةِ الصبح.

واليويو آلة صغيرة تطرح الأسئلة. تثير جنوني بأسئلتها. متى سيبدأ كل شيٍء من جديد؟ متى سيبدأ كل شيء مرة أخرى من العام الأول فصاعدا؟ كم ثانية يستغرق قرنٌ في المرور؟

تارةً يقول لي إنه يرغب بأن يُولد، وإنّه يرغب بأن ينمو، وطوراً يقول لي إنه يريد أن يعود ويدخل في بطني.

يسير وحده كثيراً، يمشي هناك، دون أن يلتقي أحداً. وحين يرى أي زي رسمي في الشارع، حتى لو كان لبواب فندق، يسأله: متى ستعيد لي والدي؟ ويقول إنه سيصعقُ الجميع بشعاع ما فوق السبعة ويركلهم على كواحلهم، ويخرج راكضاً.

أنا كذلك أفتقدكَ كثيراً. انسَ كل الأشياء البشعة التي قلتها لك والأوقات التي لم أفهمك فيها. فقط أريدكَ أن تعود. أريد أن نكون معاً ولو لبرهة، وأريد أن أقول لك إنك أفضل شيء حدث في حياتي.

لم تحبّ قط أن أتحدثَ إليك بهذه الطريقة، وكنتَ تغيّر الموضوع أو تتملّكُكَ نوبة غضب، ثمّ إنّه دائماً كان هناك أمور

[15] Yuyo ومعناها العشبة الضارّة، وهو هنا ابن فييرّو كما يوضح النص كثير الأسئلة. م.

أخرى نتحدث عنها، مثل كيف نكون، كم هي الحكومة شرّيرة، أو غلاء كلّ شيء وليس هناك نقود تكفي.

الآن أنا لا أعرف ما إذا كنتَ ستستطيع قراءةَ هذه الرسالة، لكن سيّان فأنا أشعر بحاجة لأقول لك إني كنت معك أكثر سعادة مما تقول الكتب إنه ممكن. اغفر لي إذا كنت في أحيان كثيرة أشكو من أمور تافهة.

قلتَ لي ذات مرة إن لي وجه امرأة يعود المرء إليها دائماً، وأنا أنتظرك الآن أو متى وأين وكيفما. أريدك أن تعرف.

24. الآلة

كــان يبحــث عــن جبــل ليأخــذ قيلولــة وأشــجار كــثيرة فوقـه، عـادة الرجـل المسـتوحدً والـذي كانـهُ مـن قبـل، رجـل مستوحِد، صياد جبلي، وبينما كان أمشي رآه.

خلفه على أطراف القرية، كانت ألسنة النار تحرق أكوام القمامة. في السماء شمس شريرة عنيفة. كانت الريح تهبّ دافعةً الدخان الأبيض والغبار الضبابي والهُباب وتنشر رائحة القمامة المحترقة وخمول الصيف. رأى قدَمَهُ. كان هذا هو أول شيء رآه منه. قدمُه، تطل من بين الأغصان الشائكة.

أجمة من التشيلكا والكورونيّا[16] سدت الطريق. أيضاً لم يكن باستطاعة الريح أن تنفذ إلى هناك. الذباب يطنّ محدثاً ضجّة. رأى قدمه وخمن الباقي.

هرب راكضاً نزولاً بكل ما أوتي من قوة.

توقّف منقطعَ النفس، وفكّر: لماذا أصابني هذا أنا بالذات ؟ ماذا لو لم أقل شيئاً؟ لماذا أقوم بأمر طائش؟ وقال لنفسه: لا تتورط. لا أحد يعرف أنك رأيتَهُ. من أَذِنَ لك بدفنه؟ لا تتدخّل. كلٌّ وشأنه. فكَّرَ، أنا لم أَرَ شيئاً وانتهى الأمر. ومن يأتي بعدي فليتحمّل مسؤوليته. إذا قلتُ سيلقون عليّ اللوم. أرى هذا قادماً. عشرون عاماً في الظل. أربعون عاماً في الظل. حياتي كلها في الظل. لا.

أراد أن يأكل واكتشف أن حنجرته قد سدَّت.

أراد أن ينام. كان الميت يعبر مسجى بين أجفانه.

عاد عصراً. وحده. اقترب، يرسم شارة الصليب. رأى الجسد العاري المهشّم والبشرة الشاحبة والبقع الأرجوانية من

---

[16] Chilca اسم يتضمن سلسلة من نباتات الفصيلة المركّبة . coronilla شجرة شائكة قاسية الخشب ملتوية الجذع ، أوراقها صغيرة ولامعة. م.

اللكمات والحروق. رأى الحريق الغامضَ عصياً على أن يخمد؛ ما يزال ينبثق في مكان ما ويفرض نفسه.

لم يكنِ الجسد قد بدأ يتحلل. فكّر، لقد قتلوا هذا الرجل المسكين مراراً. فكّر، إنه يطلب الترابَ والسلام. إنه يطلب أو ينبّه إلى شيءٍ آخر، فكّر، مع أنه لم يعرف ما هو هذا الشيء الآخر الذي يدوّي صداه فيما وراء المفاجأة وحزنِ جريمةِ القتل.

ذهب إلى القرية ليأتي بعربة ومجرفة وجلد غنم. رفعه بذراعيه، دون قرف أو خوف. وضعه في العربة وغطاه. نزل المنحدر الوعر. راح الميّت يرتجّ منفرجَ الساقين. ذراعاه وقدماه تثير الغبار وتحرّك حجارة الأرض. عندما كان على وشك الوصول إلى الأسفل، تدحرجت عجلة العربة الحديديّة وحدها وارتاحت فوق العشب الأبله.

جلس الرجل على صخرة وأخرج كيس الدخان من جيب سترته. لفّ سيجارة فطساء. أشعلها وقرّر وهو يدخّن أن يحفر القبر. لقد وصل إلى نهاية الرحلة. وكان من خاصة القدَر أن انكسرت العجلة لتدلّه على مكان.

حينئذٍ رآه. بعض الأولاد الصغار. باغتوه حين كان يغرز حدَّ المجرفة في الأرض اليابسة. سلّموا عليه بالصراخ فرماهم بالحجارة. لم يعد هناك ما يفعله. لماذا كان هذا من نصيبي؟ سأل نفسَه. من الذي أمرني أن أحشر نفسي في هذه الورطة؟ نظر إلى الشمس المعلّق تحت السماء، وقدَّرَ الوقتَ.

كان يوم أحدٍ والقرية خاوية.

لم يرضَ أحدٌ أن يتولّى أمرَ القتيل الذي بلا اسم.

25. محاكم التفتيش المقدسة

لأنهـــا قالـــت في القـــداس الأعظـــم ذات يـــوم عطلـــة، مستشاطةً غضباً وحنقاً: "لقد ولّى الزمن الذي كان اللّه يأمرُ بأنـه إذا صفعك أحد في عربـةٍ علـى خـدّكَ أدرْ لـه الثـاني، فمـن يغبّـر على حذائي، سآخذ روحه".

لأنّها كانت مرتدة.

لأنها كانت تجني ثروتها من الغراميات وكانت تشفي بالسحر الأسود.

لأنها كانت تتعامل مع الشيطان، وحين كانت تتحدث معه تقول له "يا روحيَ الغالي"، والكثير من المداهنات الأخرى؛ حين كان الشيطان يريد أن يتحدث إليها، كان يمرّ على وجهها بهواء عليل. وحين كانت تريد هي، كانت تنظر إلى الشمس في تمام عزّ الظهيرة، مستلقية على شكل صليب ترى السماءَ المفتوحة، والمجدَ، وفي الشمس كانت ترى كلَّ الناس كما لو كانوا من بلورٍ، وترى دواخلَهم.

لأنه كان في الحقل سمع بغتةً صوتاً شديد النعومة نزل عليهِ من السماء وأسعدَ فؤادَهُ كثيراً، عازياً ذلك إلى النعمة التي كانت تُمنح فجأة.

لأنه صاحَ مرّة وهو يقرأ الكتاب المقدس: "انظر، لا يوجد غير الحياة والموت"

لأنه قال إن صاعقةً فلقته وشفته وإنه يُرى كلّ ما عند النساء اللواتي يرتدين الفساتين القصيرة الحمراء كما لو كنّ عاريات،وأشياء أخرى من هذا النوع.

لأنه لم يكن يرفع قبعته أمام الصليب، ولا يبجّل الصور ولا القديسين ولا قدس الأقداس حين يُصادفه في الشارع.

لأن كان ينقلُ رسائل السجناء.

لأنــه كــان يؤكــد أنــه لم يكــن هنــاك آدم ولا طوفــان. ولا يوجــد شــياطين ولا ســحرة، وأنَّ مــا يُسَــمّونه نجمــة الملــوك المجوس كانت مذنبّاً من المذنبات العادية.

لأنه كان يعتقد أنَّ الجحيم إن وجد فلا بد أن يكون للملوك وأصـحاب السـلطة، للكهنـة والرهبـان، الـذين يـأكلون مـن عمـل الغير، وأن الخضوع للملك والبابا ابتكار جدير بالاستهجان.

لأنه عندما كان يعزف على القيثارة كان يُرَقِّصُ بيضةً ترتفع عن الأرض إلى مستوى رأسه.

26. المدينة

ألقى به المدُّ أخيراً، عند طرف المدينة. حدث هذا في الساعة التي تذبح فيها العتمةُ آخر أنوار النهار، والليل ينهارُ فوقنا وحشيّاً منتقماً.

تأخّر ليال عديدة في الوصول، لكنه توجه إلى هنا كما لو أنّه أراد ذلك. كانِ البحر، بحركاتِهِ التي لِمِكْبَس، يروح ويغدو به ذهاباً طافياً، والريح تأتي معها من الجُزرِ بأصداء رعودِ الحرب البطيئة: الأجساد ترتطم بالصخور وتهوي إلى قاع المياه بثقل الجبال، وبرائحة الدم صاعداً من سحيقِ البحر.

سافر سفرته الأخيرة وقد مزّقت بطنَهُ أنيابٌ معادية. رافقه نورس مفرودَ الجناحين. رافقه دون صياح. كان النورسُ يُبحر فوقه، يُحلّق، ثابتاً، يتوقف، يحوم في الظلام مثلَ مصباحٍ مُشتعل: كان ينتظره ويقوده. كانت الطحالبُ، التي اقتلعها الهلالُ، تسوطُ البحرَ بنيرانها الباردة، بينما هو يسافر سفرته، سفرةَ سفينة أشباحٍ عَلَمُها النورس.

ثم بقي النورس قائماً على حراسته، ثابتاً في الهواء بجناحيه المشرعين، كي لا تلتهم الطيور عينيه ولا أحشاءه التي أطلّت من جرحه.

لم يسقط كالآخرين، بل وجهه: رقبته منتصبة،
يواجهُ المدينة بفكيه المفتوحين. لم يبقَ عليه جلد، بل مزق ملتصقة على طبقة من جلدٍ قاس.

لا تقول المدينةُ إنّها نادته: المدينة: التي في النهارِ تأكل الضوء وفي الليل تبصقه. تنجب الحياة ليلاً وتدفنها نهاراً. ندهت له: بصوت رجل يشعر بحزن شبيه بحزن جيش منسحب وبصوت رجل يشعر بأنَّ كل سرور الكون يتسع في اللهَب الصَّغير الأول للنيران العالية التي نضرمها.

27. محاكم التفتيش المقدسة

لأنهـا قالـت في جنـازة باذخـة للغاية: لا طائـل مـن الأبهة الزائدة، بما أن الميت لا يحتاج إلى شيء.

لأنها استعملت فنون السحر وحوّلت على نحوٍ جليٍّ رجالاً بيضاً إلى زنوج.

لأنهـا حضّـرت ثـلاث دمـى تمثـل بعـددها أشخاصاً مـن السـلطة والجيش، اثنان تزينا بباقتين والثالث بملابس قرمزيّة، وبهـذا الترتيـب، وضــعت علــى فحــم مشــتعل وعــاءً فيــه أغواردييـنــتِ[17] وكوكــا ممضــوغة وســكر ثــم رفعــت الوعــاء عاليــاً، وضــربت اللهب بالدمى، مستحضرة الشيطان.

لأنهـا كانـت تقـول إن البابـا لـيس مُخـوَّلاً بمـنح صـكوك الغفـران، وهـذه عبـارة عـن خرافـة وترّهـات، وكـأن البابـا مـثلاً رأس عـالميّ للكنيسـة، وطاعتـه واجـب، إذ مـن غـير المكـن أن يخضـع لرجـل واحـد كـلّ هـؤلاء، وخصوصـاً حـين يجمـعُ الجيوشَ لصالح بعض الأمراء أو الملوك ضدّ آخرين.

لأنها قالت: ثمة خطأ في خلـق الإنسـان، إذ مـع أنّـه كـان يعلم بأنه لن يكون مخلصاً له وسيسيء إليه، فقد خلقه.

لأنها قالت: إنّها واثقـة مـن الجنّـة، وكانـت قريبـة منهـا قربها من سريرها، ودون نيلها أعمـال كـثيرة يجـب أن يعانيهـا، وعذابات يجب أن يمرّ بها مثل: الظـلام الـدامس، النـار الـتي لا تُرى، وبعض المنحدرات المخيفة للغاية.

لأنه تمثّل لها، في نومها، تصوّرت أنّ المدينـة يجـب أن يُحيلـها غضبُ السماء رماداً ، وأنّ الربَّ كان يرمي على كلِّ صندوق من الصناديق ثلاثة رماح أو سـهام نـار يحـرق بهـا المدينـةَ كلـها عقابـاً علـى الـذنوب الخطيرة التي كانت تُرتُكَب.

---

[17] نوع من الكحول المقطّرة. م.

لأن كاهناً كانت على علاقة سرية معه اعتاد أن يقول لها: "يا إلهتي". وقد أحبها حباً جماً، حتى أنه حين يكون في الكنيسة ويسمع اسم القديسة مريم، كان يقول: "مريمي".

لأنها حين استدعيت للشهادة، أخفت الحقيقة.

لأنها قالت إن الكهنة يأكلون عرق الفقراء ويبيعون يسوعَ المسيح كلَّ يوم لقاء بسو، وإنّه ما من رجل يُتاجِرُ بالزنوج والخلاسيين يمكن أن يدخل الجنة، وإنّه محكومٍ عليه بجهنم، وإن البابا الذي كان يغضّ الطرف عنه كان سكّيراً.

لأنها عرضت نفسها على الشيطان، وأوّل ليلة نامت فيها معه كانت ليلة عيد الإحدى عشر ألف عذراء، وبعد أن صحت من غشيتها، رأت أنّ الحجرة غُطِّيَتْ كلها بالسواد، وفي وسطها قبر وبضع فؤوس مشتعلة.

لأنها رفضت رفضاً قاطعاً ما جاء في الوصية السادسة.

لأنها قالت إنّها تلقت وحياً بأن الكرسي الروماني يجب أن يُنْقَلَ إلى جزر الهند.

لأنه قال إنّه حتى ولو أمر الملكُ والبابا بغير ذلك، سيفعل في بيته ما يحلو له.

لأنّه أكّدَ بمناسبة ظهور المذنَّب الكبير، إنّ هذا يعني نهاية العالم، لأنه لم يعد هناك إحسان ولا حقيقة.

لأنّه سبَّ اللهَ حين كان مُعَلّقاً يتلقى سياط سيده.

لأن أفاد بأنه أبلغ عن نفسه بأنّه قالَ في السجن إنّه إذا لم يَرْكَبْ هو في هذا العالم، فسيركبه الشيطانُ في العالم الآخر.

لأنه صرّح بأنه ديّوث وطبيب دجّال، وأنّ الدليل على ذلك صليب على صدره وثان في سماءِ فمه.

لأنه أكد أن الهنود الذين ماتوا قبل وصول الإسبان، ذهبوا إلى الجنة.

لأنه قال إن محاكم التفتيش كبرج بابل، لأنّ الذين يدخلونها لن يجدوا طريقةً أبداً للخروج منها.

لأنه قال إن المفتشين وأقاربهم يجب أن يُرْبَطوا إلى ذيل حصان.

لأنه قال إن المفتِّشين لا يقومون بما يجب عليهم القيام به، وهو أنّهم لا يقومون إلا ضد الفقراء وليس ضد كبار أثرياء العالم.

28. تسكّعات غانابان

أتذكرين أول مرة تكلمنا فيها؟ كنت صغيراً جداً، كنت قد بدأت للتو هذه الحياة من دون عناق. أتذكرين؟ كانت المرة الأولى والأخيرة، لأنّ السنوات مضت و أنت لم تهتمي بي بعدها أبداً. لا تنقصك الأسباب، أعلم ذلك. أنا لم أُشعل لكِ شمعة قط، ولم

أضع لك أبداً قطعة نقود في صناديق تبرعات الكنائس. صلواتك التي كنت أعرفها، نسيتها منذ زمن لعدم استعمالها. المسألة هي أنني أحبك يا مريم، ولكن على طريقتي.

هل تذكرين؟ أنا كنت صبياً. كانوا قد وضعوني تحت الماء البارد، لشقاوة قمتُ بها، وأتت الراهبة الراعية وأنزلت بي العقوبة. الراهبة الراعية ضربتني بقضيب خيزران على ظهري، كانت تضربني من كل قلبها وروحها وحياتها وأنا لم أبكِ كيلا أفرحها، وكلما تحمَّلْتُ أكثر، كانت الراهبة الراعية تضربني بقوة أكبر بالقضيب. ثم قادوني عارياً إلى وسط الفناء. أجبروني على الركوعِ وهناك أبقوني النهار بطوله راكعاً ويداي خلف رقبتي، مجبراً على النظر إلى الأرض. لم يكن باستطاعتي أن أتحرّك. كانوا إذا تحَرَّكتُ يضربونني بالقضيب. كنتُ أَعد النملَ ورأيت صفّاً من أحذية صبية السكن الآخرين في عرض، يمرّون أمامي دون كلام. بقيت وحدي. كنتَ أرتجف من البرد، ذراعاي متشنجتان، والحصى فزر ركبتيّ لحماً حيّاً. كنتُ ممتلئاً بالألم. عندها أغمضتُ عينيَّ وضغطت عليهما جيداً كي أذهب بهما عميقاً إلى الداخل، ورأيت نقاطاً ملونة وطلبتُ منكِ من كلّ روحي، يا أم الله، يا أم الشهداء، يا حامية الفقراء، أن تُساعديني. وكنتِ عوني. طلبتُ منك معجزة وأنت حققتها لي. أنتِ أنهيت في تلك اللحظةِ الحربَ العالمية. هل تذكرين؟ 2 أيّار، أليس كذلك؟ من عام 45 وا. انتهت الحرب العالمية وأُطلقت صفاراتُ الإنذار وفي الاهتياج كسرنا الأبواب وهربنا جميعاً. أنا التحقت بسوسورو[18]، الذي

[18] تعني هَمْس. م.

تقيأ الخبزَ المُقدّسَ في القدّاس وكان قد هرب قبلها. حين كان يحل الليل كنا نذهبُ لننام في مستودعات الصحيفة. خلال النهار كنا نمضي ضائعين متسكعين في السوق القديم.

وأنا مشيت منذ ذاك اليوم. مشيتُ ومشيتُ ولا أزال أمشي إلى الآن، أبحث في الشتاء عن مسار الشمس.

أؤمن بك، على طريقتي. دائماً آمنت بك، يا مريم العذراء المقدسة، أنتِ المطعونة بالخناجر بسبب آلام العالم. بالأرواح لا. بالأرواح لا أؤمن. وكيف لي أن أطلب من الأرواح أن تأتي وتمد لي يدها، إذا كنتُ لا أؤمن بوجودها أصلاً؟

سوسورو كان يؤمن بها، ولكن الأرواح لم تنقذه من أن ينفجر كبقة، مسكين سوسورو، فليرقد بسلامٍ. هو كان يقول إنه تحدث مع عددٍ هائل من المتوفين. أحياناً كانت الأرواح تأتي وتجلس على سريره لتدردشٍ وتلعب لعبة الخداع معه، حتى أنه كان هناك روح تترك له مالاً داخل حذائه. كانت تزورُ سوسورو أرواحٌ متعاونة وأرواح منتقمة. ذات مرة جاءته الأروِاح المنتقمة وصفعته صفعة وحشيةً أثناء نومه. أصبح متورماً كله وملطخاً بالدم. هو كان يخبرني بهذه الأشياء وأنا كنت أجادله. انظرْ، يا سوسورو، كنت أقول له، ليس لأني غير معقول، ولكن لا تأتِني بهذا الهراء عن الأرواح. من يقوم بزيارتك أنت، كنتُ أقولُ له، هم أولئك كائنات الصحون الطائرة. وليست الأرواح هي من تزورك. منذ فترة قصيرة، دون الذهاب بعيداً، نزلت كائنات الصحون الطائرة هنا على الشاطئ. لا أدري لماذا منعت الحكومة نشرَ الخبر. من زميل لي مسيحيّ سحبوا دماً من إصبعه، يبدو أنّه

بالنسبة إليهم إفطار. تصرفوا بلباقة كبيرة، الحق يقال، تحدثوا إلى الرجل بلغتنا، لغة البلد المحلّية. لم يمصوا دمه لأنّهم ثقلاء. أكلوا وغادروا. لا أعلم إن كنت تعلمين يا مريم، ولكن كائنات الصحون الطائرة تأتي من مركز الأرض، حيث النار الأبدية، وتخرجُ من فوهات البراكين. وهي تحتلّ الآن كوكب المريخ .

هذه واحدة من نظرياتي الخاصة، عندما أبدأ أُفَكّر. في كل مرة أُفَكِّرُ أكثر، لأننّي من دون عمل، هل تعلمين؟ أُفَكّر: وأنا، ماذا لدي؟ ماذا لي؟ ما أنا؟ لحم مُعَمَّد، فقط لا غير؟ أدخل أعماقي وأتقدم، أتقدم، ويبدأ بالظهور أشخاص كنتُ أُحِبُّهم، وأُتابع تقَدّمي وأُتابعُ وأُتابع ولكن الأمر يخيفني، لأنني أعلم أنّ في آخر هذه المرات من روحي لا يوجد أحد، وأننا موجودون بمحض مُصادفةِ الأشياء. ما الذي كان سيحدث لو أن أبي وأمي لم يجتمعا في ليلة كرنفال؟ هل كنت لأكون هنا؟ أضع احتمالاً: لكنتُ متُّ دون أن أولد. ومن الذي كان سيحلّ محلّي؟ آخ؟ لأنّني في الأعماق، لا أعرفُ من أنا ولا من أين أنا. هناك أحد ما يعرف، لكن لستُ أنا. أنا أعلم بأنّ هذه الحياة التي أعيشها ليست لي. ولكن، أيّ حياةٍ هي حياتي؟ هذا ما أجهله . هذه الحياة التي أعيشها ليس فيها موسيقى. من كثرة ما شعرتُ بالحزن، ها هي أضلاعي تؤلمني الآن.

إحدى اللعنات التي أصابتني هي في أنني لا أملك شيئاً. كل ما كنتُ أملكهُ ذَهَبَ. المرأة التي أحببتها أكثر، بيتانغا، التي كنت أشعر معها بأنني عالم ذرة، تعفنت من أكل العظام وذهبت. اثنان من أبنائي، كم مضى عليّ دون أن أراهما؟ المذياعُ رهنْتُه،

مع غارديل في داخله، ورهنتُ المنزلَ أيضاً. الخزانة أخذوها مني ناقصة عدة أجزاء. خاتم الزواج لم أخسره، لأنّني لم أملكه قط. الهارمونيكا، التي كانت بالنسبة لي كالسيجارة وأكثر، ضرورية جداً لابتداء اليوم، أمسكت بها ابنتي الصغرى التي أجروا لها عملية، وبشوكة بدأت تنكشُ داخل ثقوبها وتركت كل صفائحها ملتوية. ثمن الهارمونيكا حوالي خمسة آلاف بسو، اسقطي على ظهرك يا مريم، بسبب مسألة الدولار هذه. فردتا الحذاء الذي أنتعلُهُ، ها أنت ترين يا قدّيستي العذراء: جثتان . في مساء المرّة الماضية دخلت الكنيسة وحذائي هذا بيدي، والراهب: " لا يمكنك الدخول حافيَ القدمين إلى الكنيسة""، قال لي. قلتُ له"إذا انتعلتُهُ كذبتُ". " أنا أتيتُ لأطلب من الله المساعدة" قلتُ له، " وبما أنك مندوبُهُ في واحدة من هذه فهو يأمركَ بأن تهديني زوجاً جديداً من الأحذية". "منذ متى لم تعترف أيها الرجل الطيب؟"، يذهب ويسألني. "منذ متى لم تتناول القربان؟" وأنا أذهب وأجيبه: " منذ خمسة وعشرين عاماً". أعطاني سكراً. أنا كنتُ أحتاجُ حذاءً وأعطاني سكراً.

أنا كنت أطلب الحذاء من يسوع، الذي هو ابنك أليس كذلك يا مريم؟. أنا لا أطلب من البشر شيئاً، أنا لا أتَسَوّلُ. أنا لا أقول شكراً. أقدم ذراعيّ، الجيّدين لأيَ شيء، المتَحَمِّلَين، هما من حديد. لكن ليس هناك من جديد بالنسبة لي. حتى النجوم، إذا سألتها، تجيبني بأن أمرَّ في ليلة أخرى. لا أحد لديه جديد لي.كم عاماً وأنا أصطف بالطابور وأنتظر أن يصل دَوْري؟ إذا احتججتُ، أغادر سجيناً. إذا سكَتُّ، أغادر سجيناً. ألقي بقطعة نقدية في الهواء فإذا جاءت طرةً فحظّي سيّئ، وإذا جاءت نقشاً،

فحظِّيَ أيضاً سيّئ. من أين يـأتي سـوء حظّـي؟ أولـدت معوجّـاً أم أصـابوني بـالعين؟ الفـرح خـرج مـني يـا قدّيسـتي العـذراء، مـن الثقوب الموجودة في روحي. صرتُ حزناً يمشي. لماذا أعـيش؟ لمـاذا أتنفس؟ أبدأ أُفكِّرُ وأتساءل كمن يضـغط زرَّ تشـغيل محـرك ولـيس هناك بعدها من طريقـة لإيقافـه. أحيانـاً أجـني بعـض البسـوات، وأحوّلُها (غرابا)[19] ، الحق يُقال كثيراً جـدّاً يحصـل معـي هـذا، أنتِ لن أخدعكِ، أنت التي هي ملكة السـماء والأرض. لكـن هـذه هي أسلحتي، يا مريم، تَفَهَّميني، ضدَّ الأسـئلة الـتي تـأتيني مـن الداخل وتصدمني. أنا أطلب من (الغرابا) أن تنتـزع مـني الأسـئلة التي توجِع رأسـي. أفـرغ الزجاجـة الأولى وعنـدها آمـل أن أفقـد الرغبة بأن أتقاضى المصائبَ بطعنات وأن أكسـر أسـنان أيّ كـان. أنا عندي هذه النية. إذا لم أستطع فليس ذنبي.

أنا كنت أعمل في مصنع. لمن كان المصنع؟ لم أعرف قطّ. لمن كانت الأشياء التي نصنعها؟ لم أعرف قطّ. ما زلت أمشي دبقاً من زيت الآلة وفي الليل لا زالت المثاقب تطن في أذنَيّ، على الرغم من أنه مضى أربع سنوات طويلة على هذا. جاء الإضراب العام وأنـا، ماذا كنت سأفعل، يا قدّيستي العذراء؟ مثلاً مـاذا كنـتِ سـتفعلينَ أنت لو كنتِ مكاني؟ أنا لم أولد لأكون خروفاً ومؤكد أنّـك كـذلك. أنا لا أتدخل في السياسة ولا أفهم شيئاً في هذه الأشياء، ولكـن إذا توجّب العراك، فإنّني أُرافـق وأعـاركُ، وعـن الحصـان لا ينـزلني أحد. خسرنا. أولئك الذين كانوا يحكمون استمروا بالحكم ومـن لا يعجبه، فليذهب إلى السجن. طردوني وتركـوني في الشـارع للأبـد.

---

[19] مشروب روحي مرّ ذكره

أنا بقيت واقفاً طوال المساء أمام بوابة المصنع، ممسكاً بقضبان الحديد، وكنت أغمض عينيّ وأفكر أنني أضع قنبلة داخله وأشعل الفتيل بعود ثقاب وأعد عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة، بينما أركض وأركض والمصنع ينفجر وتتطاير أجزاؤه في الهواء وأنا أنظر إلى اللهب من بعيد. في النهاية تعبتُ من التفكير بهذا وركلتُ البوابة ودخلتْ حصاةٌ من ثقب في نعلِ حذائي.

وأنا مشيت وبقيتُ أمشي. دائماً ساقايّ مستعجلتان، كما لو أن عندهما مكاناً تذهبان إليه، تبحثان عن مكان يكون مكاني ولا تجدانه. مشيت دون أن أنزل ذراعيّ، إلى أعلى العالم وإلى أسفله، مشّاء، حياً، ناجياً، ومعي البؤس يُظلّلُني ومعي هذا الذعر من أن يملئوا ذاتَ يومٍ بطني أو رأسي بالهواء.

هذا ليس تملقاً يا قدّيستي العذراء. إنها حقائق. بالنسبة لي دخولي ذاته إلى العالم كان بالفعل خطأ. أسلافي كانوا أمراء محاربين من أفريقيا، من هناك من حدود الصحراء والغابة، المدينة الفاضلة كان اسم بلدهم، عند زاوية النيل الأزرق. كانوا رجالاً أقوياء جداً، من النوع الذي يُمطِرُ الغيومَ بثقبها بسيفهِ. يظهر الآن أنّ ولادتي كانت خطأ وأنني لم أكن كي أجيء هنا. أنا لستُ أنا ولا أعثر على نفسي: هذا هو عدوي. أنا أعلم بأن هذا ليس مكاني. أنا هنا ولكني لست هنا، يا مريم، مريم المعينة، يا أم الله، والآن لدي بعض التقرحات في ظهري.

عندي تقرحات. وليس شيئاً آخر. والدي كان لي لبرهة لا أكثر، وتركوه يموت. معه كنت أتحادث. سابقاً كنت أتذكر كلماته، وكنت أسمعُها في كل مرة أشتاقُ إليها، أسمع صوته

المتحشرج، الأجش، المنخفض، ولكن أضعتهُ منذ عدة سنوات وأشتاق إليه. حين كنتُ صبياً كنت أستيقظ في عزِّ الليل وأخرج إلى الحقل كي أبحث عن الفرس الرمادية. تلك كانت أوقات طيِّبة. كنتُ أقطفُ زهرَ العسلَ لأُحَلِّي فمي برحيقها ولم أكن أخافُ الليلَ، لأنه لم يكن بفضل الصراصير صامتاً لم يكن عدواً. كنت أُحْضِر الفرسَ وأشدّها إلى العربة ونذهب والدي وأنا إلى السوق خبباً على الطريق الترابية. كان يمسك اللجام بيدٍ ويشدّني إلى صدرهِ بذراعه الثانية، كي لا أشعر ببرد الفجر، وكان يكلمني في أذني كي أسمع، لأنّ الخببَ والعجلات كانت تُثير ضجة كبيرة. العجوز كان يكلمني عن أشياءه الحزينة وعن الركلات التي أنزلوها به، وأنت ستكون أقوى مني، كان يقول لي، ستكون طرزان من قوتك، وحين تكبر، كان يقول لي، ستجعل أولاد القحبة أولئك يتصبّبون دماً.

أنا الآن أدعوك أنت يا مريم، كي تساعديني وترافقيني كي أمشي جيداً في الشارع، وتسيرَ أموري بشكل جيد هذه الليلة، وكيلا يكونٍ عليَّ أن أعود أبداً للعيبِ. هذه الليلة عندنا سطو. أنا أعلم جيداً بأنك لا تحبّين هذا أبداً وأستطيع أن أتخيّل تكشيرتك عند سماعك لِي. لكني لا أفعلها للخزي؛ أفعلها للحاجة. أمشي متوتراً ووحيداً وفي هذه الحالة أضيعُ. أمشي لمجرد المشي، آكل وأجوعُ، ولكن في كل مرة بحظٍ أقلّ ورغبةٍ أقل. أنت، المقدسة، هل ستسمحين بأن أبقى أبلع حجارة؟ ليس كثيراً المجدُ الذي أطلبه. حاولتُ كلّ شيء ودائماً بالحسنى ولهذا لا بدّ أن يكون هناك إثبات في كتابي في السماء. الآن أنا أعلم بأن مصيري مختلف وأطلب منك أن تمدّي لي يد العون. صديقي بوسكابيدا هو

من حصل على المعلومات، مررها له مُخَنَّثٌ في بار فاسقة باريس، هناك في الأسفل، لا أدري إن كنتِ تعرفينه. ليس سطواً صعباً، ولكني أُقامِر بموقف حرجٍ لأنني لستُ معتاداً ومكاني ليس في الجريمة. لهذا أطلب منكِ، يا قدّيستي العذراء، أن تساعديني. إلى متى سأعيش على باب الله وفي أي زاوية؟ أمشي خائفاً من أن يأتي صباحٌ لا تعودُ تخرج فيه كلمات من فمي أو أن يرفض جسمي أن يتحرك، أو أن أترك روحي منسية في محطة القطار. هل سأجد مكاني الصغير؟ من أي جبِّ هذا الضفدعُ يا مريم؟ ليس من أي جبّ؟ أنت يا مريم، التي تكافئ وتعاقب، التي تشعل وتطفئ الشمس وتُسقط المطر حين تريد، تذكريني. لا بدَّ أنه لديك الكثير من الطلبات. لا بد أنك مشغولة جداً يا أم الله وبكلّ الذين يُعانون، تقتلعين أشواك العالم، وهي كثيرة. لكن تذكريني، إن أمكن ذلك. اسمي غانابان وأنا نمر جداً.

29. العودة

كانت الأيام التالية تُدوِّخُ. كنت يائساً. أنـام في الحـافلات، وليس عندي ملابس بديلة، الجميعُ كانوا يطاردونني. اعتقدت أن بإمكاني أن أُنقِذَ فييرو إذا ما استطعت أن أنشرَ خـبرَ أنّـه سـجين لديهم. لم يكن هناك وقت يكفي وكلُّ ركن كـان فخـاً. رأيـت مـن

استطعتُ ومن لم أستطعْ أن أرى. شعرت أن جيشاً يتعقبني؛ فقدت الثقة بظلي. أنكرتُ على نفسي حقّي في أن أختبئ. تحدثت إلى زوجة فييرو وإلى العديد من الأصدقاء والمحامين. الناس الذين كان بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً كانوا جميعاً قد اختبؤوا، أسِروا، ماتوا أو أُبعِدوا. كان البقيَّةُ يُحَقّقون، يُلحّون وأخيراً يهزّون بأكتافهم. كانوا يقولون لي: ليس هناك ما يمكن فعله. لا أحد كان يعرف شيئاً. لم أجرؤ أن أقول كيف سارت الأمور، على الرغم من أني بالتأكيد قلت أكثر مما كان ينبغي. أم أني قلت أقل؟ لا أدري. رصانةً مني، أو خجلاً. كان فييرو قد اختفى رسميا ولم يكن الوحيد. التقيت بصحفيين في المقاهي. وقتها كانت جمهوريتُنا جمهوريةَ الصمت. لم يستطع أحدٌ أو لم يُرِد أن ينشر سطراً واحداً.

كانوا قد أغلقوا لنا الصحيفةَ. كان ناسنا مُبعثَرين والمنطقة محاطة بالجنود المُسلّحين للحرب. في فجر أحد الأيام، وكنتُ مَديناً للنوم بعددٍ من الليالي، توجّهت قدماي تلقائياً إلى بيتي. لم أتجاوز الزاوية. تأكدت بعدها من أنهم كانوا ينتظرونني في الداخل.

كنتُ قبل ذلك في بيتِكِ، يا كلارا، وقلتُ لكِ وداعاً. كنت سأقول لك: لا تتركيني. لكنني قلتُ لك وداعاً. لم أكن أعرف ماذا أفعلُ ولا مَن أسألُ. كنت أعرف فقط أنني لا أريد أن أُوَرِّطَ أحداً آخر في تلك الرقصة. كنت وحدي، يا كلارا، لم أكن أريدُ أن أحرقَ الآخرين بأيّ شيء سوى بخبر القبض على فييرو حياً. لم تفهمي السبب قط، صدّقيني: ولا أنا. لكن هذا ما كان. هل كان كُرمى ألّا تصابي بأذى؟ ألكي لا أتعلق بقدميك وأسحبك معي؟ أم

نتيجة عجزي المزمن عن المشاركة والذي أعترف به؟ شعرت بأنني غير ذي فائدة ومذنب. أعرف بماذا تفكرين. لكني لم أكن أريد أن أدعوك إلى الكارثة. هل هو خيلاء؟ من الممكن. أنا لا أدافع عن نفسي. المسألة هي أنه لم يبقَ عندي في نهاية المطاف أيّ باب أطرقهُ، وكنتُ أمشي هائماً على وجهي في الشوارع.

هكذا مشيتُ، لا أدري، قرابةَ أسبوعين. بعد الكثير من الدوران، أُلقيَ عليَّ أنا القبضُ أيضاً. كنتُ أرى ذلك قادماً، وأعتقد بأني لم أفعل الكثير لأتجنبه. لا أدري.

أبقوا عليّ "مصلوباً" زمناً لا بأس به في ساحة السلاح: كم من الوقت، لا تسأليني. في النهاية رحتُ أهذي وارتفعت حرارتي وانتفخت قدماي كقدمي الفيل. ليالي آب باردة جداً. قضيتُ عدة ليال وأيام؛ يتوه المرء في العد. باعدوا ساقيَّ وربطوا يديَّ إلى الخلف. حين كنت أنامُ وأسقط، كانوا يُرغمونني على النهوض برؤوس بنادقهم. كنت معصوب العينين، ولكن حين كنتُ ألوي عنقي كان باستطاعتي أن أختلس النظر من تحت. لم يكن يُسمع شيء سوى صهيل الخيول من الزريبة، والصراخ في بعض الأحيان.

كان هناك صوت ساعدني كثيراً في البداية. لا أعرف كم ساعة كان قد مرّ علي "مصلوباً" هناك حين سمعت صوتاً قريباً جداً وأجش يسألني سراً: "كم عمرك؟" وقال: "بالنسبة لك سيكون الأمر نزهة. بالتأكيد سوف تحتمل. كيف لك ألاّ تحتمل؟ أنا تحملت وأنا عجوز. أكْبُرُكَ بثلاثين عاماً. مؤكّد". من فتحة في أسفل العصبة استطعتُ أن أرى ركبةً، لحماً حيّاً، محطّمة،

متورمة بالكامل. جاء حذاء وركل الركبةَ الدامية التي أراحتني، وانهار الجسد. أنا لم أتحرك.

ثم بدأ الاستجواب. سألوني عن فييرو. وضعوني على آلة التعذيب. يشعر المرء بأنّه غريقٌ تماماً، يا كلارا، وحيدٌ تماماً. خصوصاً عندما يكون عارياً. لأنّهم هم بملابسهم، أليس كذلك؟ ما دام الواحدُ بسرواله الداخليّ يبقى سيّد نفسه أكثر. ثمّ إنّهم يستطيعون أن يروا الواحد منا، بينما الواحد منّا يكون معصوبَ العينين، أيديهم وأرجلهم طليقة بينما الواحد منّا مربوطٌ ومريضٌ من أيام وليالي "الصلب". هذا الخللُ، وهذا العجز يهينك أكثرَ من الضرب. أنت منذ البداية ضائع. وإذا ما كزّ الواحدُ على أسنانه وتحمّل دون أن يتكلم، فهذا بالنسبةِ إليهم أسوأ بكثير من أي إهانة لهم، فيجنّ جنونُهم غضباً إن أنتَ لم تبك كحدّ أدنى. كلٌّ شيء مرتب كي تنهار قبل أن يبدأ الألم.

سألوني عن فييرو. في البداية كنت خائفاً جداً وكان عليّ أن أبذلَ جهداً كبيراً كي لا ترتجف يداي، وأردت أن أقولَ شيئاً لكنّ حنجرتي لم تمنحني أيَّ كلمة. بعدها زال الخوفُ وذُهِلتُ من صفائي ورصانتي. ليس لأنّني شجاعٌ يا كلارا: بل لأنّ نوعاً من المسافة تقوم بين الواحد والحالة التي يعيشها، كما لو أنّ الواحدَ شخصٌ آخر، وهذه المسافة هي التي تدخلكِ في السكنية وتجعلك تقاومين. لم يكن بإمكاني أن أراهم، لكنّني كنتُ أنظر إلى نفسي من الخارج، كنتُ مُشاهِدِي لنفسي، أُفكّر وأستخلصُ النتائجَ بين الضربة والأخرى. هكذا اكتشفتُ أنهم لم يكونوا على علم بأني كنت مع فييرو في الدقائق الأخيرة. شخص، لا أعرفهُ، فاته أني

كنتُ أقول إنه كان سجيناً، و كان هذا كل شيء. في الواقع، بحثوا عني بعد ذلك بكثير. والأيام الأولى للملاحقة لم تكن أكثر من هذيان. ضحكتُ من نفسي. بطبيعة الحال، هم أيضاً كانوا يعرفون أنّني كنت صديقاً لِفييرو، وأسقطوا من حسابهم أننا كنا نلتقي، لكن لم يكن لديهم معلومات دقيقة. اكتشفتُ ذلك، وكان مهماً جداً بالنسبة لي، ساعدني على التحمُّل. هذا يعني أنه كان هناك أحدٌ أبلّغ عنه: لم يقع فييرو في أيديهم بسببي، لم يتعقب أحد السيارة التي أوصلتني إلى مخبئه، وقد تزامن لقاؤنا مع الكارثة بمحض المصادفة.

وشيءٌ آخر. عَرَفْتُ أنهم قتلوه.

في كل مرة أتذكره، يموت مرَّةً أخرى. كثيرة هي المرات التي مات فيها وآلمني.

في تلك الليلة، انتبهتُ فجأة. ارتسمت خربشات تلك الصاعقة في دماغي: كان فييرو ميتاً. تكهّنتُ به من الأسئلة. وقد أكدته عندما ارتكبت خطأي الكبير. أقولُ خطأي الكبير وأقوله الآن، ولكن لا أدري. حدث عندما قلتُ لهم، دون صراخ أو أي شيء، أنّني كنتُ متأكداً من أنه اعتُقِل لأنني كنت هناك حين أخذوه. حينئذ انقضّوا عليّ، وفهمتُ أنّني قلبي لأنّني الوحيد، وبأنه لن يتسنّى لي الخروج من هناك لأقول الحقيقة كاملة، لأن فييرو لم يعد على قيد الحياة. فهمتُ ذلك في أقل من ثانية ولم أشعر قط بمثل بهذا القدر من الغضَب والخجل من سذاجتي، ولم يضربوني كلّ ذلك الضرب وبكلّ ذلك الغضب قط. لقد أُغمِي عليّ.

استيقظت بعد وقتٍ طويل باكياً برغبةٍ أنّني أستحق ما كان يحدث لي، وفكرتُ: هل سيدفنون رجلاً مستلقياً مثله؟ هل سيغمضون عيني رجل مثله؟ كنتُ أُفَكِّرُ فيه، هو الذي عرف أن يختار، هو الذي يفوق الشموس اتقاداً، وأفكِّرُ برفاته، **خبزه** المنتشر في جميع أنحاء العالم، الرجل العظيم الذي كانه، الرجل الرائع الذي كان صديقي، وكنت أراه يفوق الإله اتساعاً ورجولةً، فكرت بأن قتيلاً بهذا الحجم كان كثيراً على هؤلاء التافهين، أولئك التافهون اقتلعوا حياته. القتلة ليسوا جديرين بجثةٍ بهذه العظمة، وكان هذا يثير قرفي .

في تلك الليلة، لم تعد بقيّة الأمور تهمّني إطلاقاً. لم يعد يهمّني التعذيبُ، والتعبُ لم يعدْ يَهمّني أيضاً، ولا احتمال أن أموت. لم أشعر بنفسي قوياً قط كما في تلك الليلة.

ولكن كان هناك ليالٍ أخرى أكثر بكثير وأيام كثيرة.

كتبَ أحدُهم على الحائط: "أنا لم أرَ، لم أسمع، لا أعرف."يَعُدّ المرء الخطواتِ في الممر وهو يرتجف. خمس وعشرون، ست وعشرون، سبع وعشرون. يأخذون آخر، أنت التالي. الآلة تخترق لحمَك وتكسرُ عظمك وتمزِّقُ قلبك. أحياناً يتجاوزُ الواحدُ بعض حدود الألم فلا يشعر به في لحظته، لأن الآلام تتراكم فوق بعضها ويلغي كل منها الآخر، ولكنّها تعودُ بعد ذلك لتهجم كلّها مجتمعةً، عندما تبقى وحيداً على الأرض، تصرخ الآلام في كل مساماتك، يصير الجسدُ صراخاً، و تشعر في داخلك بحريق يتأجج ويدمّرك.

تعلمتُ أشياء كثيرة. أرسلوني مرتين إلى المشفى وعدت. تعلَّمْتُ أشياءَ كثيرةً لم أكن أعرفها. كنت أعرف أنّ الآلةَ

صُنعت لتُحَطّم الرجال، ولكنّني لم أكن أعرف أن عليك أن تحمي نفسك من الإغواءات التي تهمس بها أنت نفسك في مسمعك، ما دامتِ الحالةُ. لم أكن أعرف أنّ إغواءَ إنقاذك لنفسك يأتيك ببيعِكَ معلومةً، معلومةً صغيرةً واحدة فقط، إغواء أن تهشم نافذةً وتغرز معصمك في شظايا الزجاج، و إغواء أن ترمي بنفسك من نافذة عالية.

يمكن للمرء أن يسيطر على نفسه، وما دام يسيطر على نفسه يبقى في منجى. غير أنّ الخوفَ من أن تُجَنَّ يهاجمك، هناك. تكون على الأرض، وتشعر أنّ جمجمتك تنفتح ومن داخلها تخرج طيورٌ وقاذورات وأنت ما تزال تُفَكِّرُ، مذعوراً تُفَكِّرُ: ألم أعد سيّدَ نفسي؟هل أنا أتدرّج في ألا أكون سيّدَ نفسي؟ من هو سيّدي؟ أهي الآلة؟ هل انتصرت عليّ الآلةُ؟ هذا أسوأ من أيِّ ألم وأشدّ بؤساً من الموت. الموت هو الخرطوشة الأخيرة ومن يمت يخسر : كنت أعرف ذلك. غير أني لم أكن أعرف أن هذا الذعر أسوأ من الموت.

كنتُ أُفَكِّرُ بكِ يا كلارا. أو لم أكن أُفَكِّر. جئتِ من تلقاء نفسك لتساعديني. أنا لم أدعوك وأتيت. هل تذكرين حين تعارفنا ودستُ على قدمك ؟ ووقع كتابك، وانحنينا معاً واصطدم رأسانا؟ وأوّل قبلة، ظُهْرَ ذلك اليوم عندما اصطدمت نظّارتانا؟ كنت تأتين من تلقاء نفسك وتساعدينني.

30. الآلة

كنتَ مسجوناً عند منتصف الليل وفي المدينة ثمة ديك يصيح أَرَقاً.

كنتَ مسجوناً ووحيداً في قفصك وتريد أن تنام، كما لو كـان ذلك ممكناً. ساقاك اللتان من خـرق كانتـا تتوسّـلان إليـك النـومَ،

وكذلك يدُك التي كانت ترتعشُ الليلةَ، وأنتَ تمسك بالملعقة الخشبية، وعيناك اللتان كانتا تشتعلان.

لم تنم؛ لكنك استطعتَ ألّا تسمع الصراخ والضرب. لأوّل مرّة ذهبتَ بعيداً عن الضوضاء اليائسة للسجن ، والذي كانَ منفاك، وفتاة تدعى كلارا كانت مملكتك المفقودة والمستعادة: راحت تأتيك، حافيةً، عارية: كانت المدينة مستلقية على ظهرها وهي تسير على صدرها بخطواتٍ سرّية.

التي كانت تقول لك: على الرغم من كل شيء، وكانت تسميك قرصاناً.

التي كانت تشكّ بالمستحيل لكنّها تُفضّله.

التي كانت تأتي من مكانٍ للأشياءِ الصغيرةِ فيه كلُّ أهميّةِ العالم: الأشياء الصغيرة: قِطٌّ يَلْعَقُ قائمته اليسرى، سكين يقع على الأرض، طقطقة النار، شكل وحرارة الرماد، رسم القطرةِ التي خلفتها القطرة التي كانت تنزلق على زجاج النافذة، الملح المفرط في الطعام أو حقيقة أنك وُلدْت في شباط.

التي حين كانت في صغرها تسألُ قشور البرتقال كم طفلاً ستُنجبُ وتبقى تحرس المذياعَ لتُباغت الأقزام الذين يمكثون في داخله.

التي قَبِلَتْ بك دون سؤال.

ذاتُ العينين-النفقين وكانت تضحكُ بأسنان أرنب ولها جديلة سوداء تصل إلى خصرَها.

التي كانت تمارسُ الحبَّ بين الشموع المضاءة. هل يدي تُلامس بشرتَكِ أم بشرتُك تُلامس يدي؟ مَن كانت تُمارس الحبَّ مثل رحلة طويلةٍ في قطار لعب صغيرٍ ينسابُ في الجبال والبحار.

التي كانت قادرة على أن تُراهن وخسرت، لكن منتصرة، بينما كنتَ أنتَ تحمي نفسك من الحب لأنّه يخبط بقوّة.

التي كانت تقول لك بعينيها: لكن أُريدُ كلَّ شيء، وتقول لك: لكنّني دائماً أريدُ، وعلّمتك أن لا تقيس الزمن ولا الحرية، وأشياءَ أخرى تمت، خِينَتْ أو ربّما نُسيَت.

31. الآلة

- وفجـأةً ظهـرتِ. هكـذا: تيـك تـاك. كنـتُ قـد أشعلتُ ناراً لِسان خوان.

- أنا جائعة. سأحضر تفاحاً. هل تريد؟

- حسن.

- انتظرني.

- لا تتأخري.

- دقيقة واحدة.

- سلحفاة.

- ماريانو.

- ماذا؟

- هل تكفيك واحدة؟

- أحضريها.

- انظر. أخذت قضمة.

- يا له من عصير. رائع عصيرها.

- معه حق، أليس كذلك؟

- من ؟

- آدم، وما إلى ذلك.

- · هذا؟ كذبة. قصّة رسمية.

- وأنتَ، ما أدراك؟

- كل القصص الرسمية كذب.

- معقول!

- معقول.

- هل كنت هناك لتعرف؟

- ذاكرتي قويّـة. أذكـر حيـواتي السـابقة، واحـدةً واحدة. كل التي وُلِدْتُها.

- وهل كنتُ أعملُ في حياتِكَ الأولى؟

- أيضاً.

- وماذا كنتُ أعمل؟

- العِنَب. لأنه في قصة الجنة الحقيقيّة، يا كـلارا، كان يوجد عنب. كـان الشـيطان يُمضـي أماسـيه وهـو يلتهمـك في الرُّبى. هذا ما كنتِهِ.

- وبعدها؟

- كنتِ زهرة من ورق في قبّعة عجوز. هذا ما كُنْتِهِ.

- وبعدها؟

- كنتِ حمامة عرجاء وباردة. التقطتُك من الشارع وحملتكِ في جيب معطفي، في ليالي الشتاء، كنتِ ترتعدين وتُطِلّينَ برأسك من جيبه.

- أوه، شيء فظيع.

- جاحِدة.

- أنا أكرهك.

- بلهاء.

- أحمق.

- شكراً.

- وأنتَ؟

- ماذا؟

- ماذا كنتَ؟ في حياتك الأخيرة.

- أسداً.

- انظر.

- ألا يبدو عليّ، ها؟

- أبداً.

- أسد بوجهِ مَهْموم.

- هه.

لأنّــني أكلــتُ ذبابــةً في غفلــةٍ خالصــة ، والذبابــة كانــت صديقتي الوحيدة، وبقيت وحيـداً أجـوبُ الشـوارعَ وحـدي مركولاً تماماً.

32. الآلة

- أنا بارد.
- اجلس هكذا. أحبُّك هكذا.
- الساق. هكذا هنا.

- هل أنتَ بخير؟

- وأنتِ؟

- جداً.

- آه.

- ما الذي يُضحكك؟

- بالنسبة لي، كانت مفاجأة. أعني: فيما بعد. كان يبدو لي أنّ من غير المعقول ألا يكون العالم قد تغيّر. نظرت إلى نفسي في المرآة وأنا أيضاً لم أتغيّر، وعضضت على شفتَيَّ. أردتُ أن أدرسَ ولم أستطع. أردتُ أن أكون مع أصدقائي ولم أستطع. أردتُ أن أكتبَ الرسائل، أردتُ أن أعمل. أردتُ أن أنامَ، ولم أستطع أيضاً.

- هل هذا ما يُضحكك؟

- لم أستحم. كانت رائحتُكِ في جسدي.

- أَمِن هذا؟

- لا، لا. سأخبرك فيما بعد.

- الآن.

- لا، فيما بعد.

- لا يعنيني.

- إذاً سأقوله لك. ما أروع ما تقعين في نفسي. هذا هو.

- هل هذا هو ؟ إذاً أنا ؟

- ماذا؟

- أكثر من هذا بكثير. معك لا أشعر بالخوفِ من أي شيء.

- انتبهْ، فأنا لستُ قديسة. أقضم أظافري. أُحَذِّرك.

- الخوف حماقةٌ.

- نعم. لكن من هو الذي لا يشعر بالخوف؟

- وأنتِ هل تشعرين به؟

- لا ترمي ال... لا تكن خنزيراً.

- خوف من ماذا؟ من أننا هكذا، كما نحن؟

- لا أعرف. أو بلى، أعرف. أشعرُ مثلَ أي شخص.

- لكن، ليس ونحن معاً. معاً نحن بأمان. نضع الخوف تحت نعل حذائنا و نسحقه: نسحقه كما نسحق أي قاذورة.

- اسمعني أيها القرصان. عِدْني أيها القرصان.

- أسمعكِ. أعدُك.

- حَقّاً.

- نعم.

- لن ندع هذا يتعفن. ها؟ لن نسمح لهذا أن يتعفن.

- هذا فقط؟ إنه سهل.

- لا.

- ماذا لا؟

- لا، ليس سهلاً أبداً.

- كما تريد.

- ولن نؤذي بعضنا بعضاً أبداً. هل نَعِدُ أنفسنا بذلك؟

- نكبسُ الملح على الجرح؟

- شيءٌ من هذا القبيل. ممكن.

- كلّ هذا الفرح. إنه هديّة. لماذا سنُزعج أنفسنا؟ لا أحب أن تُظهري وقاراً.

- كم الساعة الآن؟ يا إلهي، منذ ثماني عشْرة ساعة ونحن نهمّ بالنهوض.

- سنمرض.

- علينا أن ننهض.

- سنتبخّر.

- ألم نكن نريد أن نذهب إلى السينما؟

- متى كان ذلك؟ أمس؟ قبل أمس؟

- ألم نكن نريد أن ننزل لنأكل؟

- نعم. علينا أن ننهض.

- هذا أفضل من باستر كيتون[20].

- هذا أفضل من أي شيء.

- ليس هناك ما ...

- استلقِ هكذا. هكذا. أحبُّ أن أنام هكذا.

- ستنامين.

- لا أيها الغبي. أريدكَ أن تبقى. اِبقَ. أريد.

- أنا أيضا أريد. عندما كنت طفلاً، كان يكفيني أن أُريدَ شيئاً برغبة شديدة، كي يتحقق. كنتُ أُغمض عينيَّ، أُفَكِّرُ بكلِّ قواي بهذا الذي كنتُ أُريده، و... بومْ : يتحقق.

---

[20] Buster Keaton هو لقب الممثل الكوميدي والمخرج وكاتب السيناريو الأمريكي Jseph Frank (1895-1966). م.

- عندما كنت أنا صغيرة، كنت أريد تلسكوباً.

- واحداً كبيراً من تلك التي يستخدمها الفلكيون؟

- واحد هائل. رأيته في المتحف. بما أنّه لم يكن لديَّ تلسكوب، بدا لي دائماً أنه قد هرب من أحد النجوم.

- وهل كان يهمُّكِ هذا؟

- كنتُ أعيش راغبةً بأن تأتي الحرب. حرب كبيرة جداً. كي أختلط باليابانيين وأسرق التلسكوب. أحدٌ يكسر الزجاج ركلاً برجله فأستغلُّ الوضع وأهرب راكضة بالتلسكوب بين ذراعيّ. لكن لوحدي لم أكن لأتشجّع.

- لو جرَّبتِ.

- وأنت؟

- أنا. كنت كاثوليكياً في صغري.

- كيف يكون الإيمان بالله يا ماريانو؟ أنا لم أؤمن قط.

- مثل الإيمان بالثورة، أتصوّر ذلك. يمنحكِ الفرحَ ذاته والشعورَ بأنّكِ لستِ وحدَكِ. عندما كنتُ صغيراً، لم أكن أشعر بالخوف مطلقاً. لكن ذات يوم جميل ... لا، لا شيء.

- أحب أن أسمعك.

- لا شيء.

- هيا، لا تتخابث.

- اعطيني سيجارة.

- انتظرْ. لا تُطفئ.

- أريد أن أقول إنّـهُ في ذات يـوم جميـل، تبحـثين عنه فلا تجدينه. أعني: تضيّيعين الله كما تضيّعين شـيئاً؛ شـيئاً يسقط من جيبك. كما تضيع ولّاعة، هكذا

- بالنسبة لي، كان الله سيّداً ملتحياً يُخيف الآخرين.

- بالنسبة لي لم يكن كذلك.

- أرى هذا.

- كان أكثر من هذا بكثير، بالنسبة لـي. إلى الآن لا أدري كيف أسدّ هذا الفراغ.

- أنتَ الآن من يُظهر الوقار يا قرصان.

- ممكن، اعذريني.

- لكن ...يا ماريانو. أنت حزين. حلّ بك الحزن.

- لا.

- لا ماذا؟
- لستُ حزيناً.
- نعم أنت كذلك.
- بلى، أنا كذلك.
- لا يجب الإكثار من الكلام.
- لا.
- على المرء ألاّ يكثر.
- كلُّ شيء يُدَمَّرُ بسبب الكلمات.
- نعم.
- انظر.
- ماذا؟
- الطيور في النافذة.
- منذ برهة وهي تمرُّ.
- هناك عاصفة قادمة، يبدو لي، وسوف نتبلّل.
- نعم. عندما نذهب سنبتلُّ.

33. تسكعات غانابان

ينتظرون أنْ يظهرَ في باب المقهى. ينتظرونه كحمـلٍ معـدني يُطل بين لحظة وأخرى من فم الحفرة.

-لا يستطيع أن يتأخّر – يقول بوسكابيدا –. دائماً يأتي إلى هنا، في الثامنة ليلاً. كانت الرسالة تقول. لا يستطيع أن يتأخّر. يأتي أيضاً في أيام الآحاد. لكن لا يفيدنا. يمضي في أيام الأربعاء محملاً بالنقود. اليوم أربعاء، ولا يمكن أن يخذلنا.

-ترى ألم تُخطئ بالمقهى؟ – يسأل غانابان.

-سيأتي، سيأتي. يحدث هذا مع أيّ شخص.

-إنّها تُقارب التاسعةَ.

-مقهى "منتصف الليل" هناك واحد – يستخلص بوسكابيدا، ونظره معلق بمستطيل زجاج الباب.

-على الجانب الآخر من الجدران السميكة المبيضة بالكلس ما من روح. في الداخل تنتشر على طاولات الصنوبر أوراق اللعب وحبات الحمّص، وهناك من يُناقِشُ بكرة القدم والخيول وبالناس الذين رحلوا. ليس بالسياسة، لأنّ الألسن تفلت من عقالها ويمكن ألا يعود أحدهم لينام في بيته.

-أيضاً يشربون وقوفاً أمام طاولة العرض. صاحب المحل، القاضي والراهب، يخدم ويُراقب. أحدهم أفرط في الشرب ويترنّح في طرف طاولة العرض، بينما هو يأمرُ جسدَه بصوتٍ عالٍ: "اهدأ هناك، اهدأ هناك...".

-يصلُ المُنْتَظَرُ متأخراً ساعةً. يأتي من الليل والبرد ومعه ما حصّله طوال يوم العمل. لم يُخصّص النهار الطويل.

- لتحليل رمل مجرى نهر الذهب ولا التجوال تحت الأراضي الغنية بالماس، بل للضغط على الأجراس وطرق المقارع من بابٍ إلى باب، من شارع إلى شارع، على امتداد ساعات وتشنجاتٍ

كثيرة: من دون حمار، سيراً على قدميه، من دون خرجٍ، بمحفظة، من دون عدسة مكبرة، بنظارة.

-على الرغم من أنّ المحلّ مضاء بشكل سيّئ بمصابيح الكيروسين، فقد عرفه بوسكابيدا على الفور. العلامات تلتقي مع ما كانت تقوله عنه الرسالة التي تلقاها هاتشابرابا من البحر أو من ميناء ما في أفريقيا. لدى بوسكابيدا إحساس غامض بأنّه يعرفه من قبل، لكنه يعتقد، أنّه لا بدّ أن يكون بسبب إحدى تلك الغمزات التي يقوم بها القدر للذاكرة.

-يجلسُ الجبان وحيداً والحقيبة الجلدية السوداء مشدودة إلى ركبتيه. يجلس معه غاناباان وبوسكابيدا: لا يردّ على سلامهما ولا ينظرُ إليهما. بشرته عن قرب ورديّة، من لؤلؤ؛ تلمع صلعته وتلمع قطرات العرق ويلمع إطارا العدسات الذهبيان. يعرضان عليه سجائر، الاثنان معاً. يسعل بوسكابيدا. يعمل غاناباان صدى له.

غاناباان يتأمّل مذهولاً العنصرَ الموجود وحيداً في طاولة العمق. ساقا الرجل القصير الميتتان لا تصلان إلى الأرض، يمسك الكأس من حافته بأسنانه، يحرّكه هازّاً رأسه ويعيده إلى اليدين اللتين تنتظران عندَ مستوى الصدر. اليدان عصفوران أسيران، يهزّان الأجنحة الصغيرة، الأصابع الصغيرة: يناديه المشوّه. يتظاهر غاناباان بأنّه لا يسمعُ خوفاً من أن يطلب منه أن يُساعده على التبوّل. "تعالَ، تعال"، يقول المشلولُ، ويشير غاناباان إليه بإبهامه متوجّهاً للبوسكابيدا : "هل تعرفه؟ إنّه يُناديك". يحني رأسه:

-لا تحدّثه عن العصر المجيد –ينصحُ الغريبُ، هامساً في الأذن–. حين يكلّمونه كثيراً عن هذا، يشرع بالبكاء ويكون علينا نحن الأصدقاء أن نحمله بعدها إلى البيت.

-نحمل من؟ – لا يفهم بوسكابيدا شيئاً.

-فلِتشا – يقول المشلولُ، منزعجاً –. من سيكون.

يوافق بوسكابيدا هازاً رأسه، كعارف. هكذا إذن كان هذا فلِتشا الشهير. فلِتشا الذي يُفترض أنّه معبود الجماهير الذي غناه الشعراء، والآن هو هذا الشقيّ الذي أكله العثّ ، تشتعل مصابيح ذاكرة بوسكابيدا جميعها دفعة واحدة. فلِتشا بطل الطفولة والسنوات الخالية.

يعود إلى الطاولة بورقة في يده:

-اعذرني –يقول للجابي– نزعجك لأنّنا نريد توقيعاً صغيراً منك.

يعتقد أنّه تكهّن ببريق اعتزازٍ يشقّ طريقه في الرماد؛ يصرُّ:

-منذ كنّا فراخاً – يقول– ونحن نريد توقيعاً منك. دائماً كنّا نذهب إلى المدرج كي نراك تُسجّل أهدافاً. كان لديك حذاء ضجر من تسجيل الأهداف. إذا كنتُ سأتذكّر.

يُخفّف المُحصّل من ضغط الأصابع المسكة بيد المحفظة كالمخالب. يرفس رأسه، تبرق العدسة اليسرى، السميكة جدّاً:

-للحقيقة أقول، أنا في السابق لم يكن باستطاعتي أن أمشي في الشارع. كان الجميع يريدون لمسي. الجميع يريدون أن يحملوا شيئاً للذكرى. حيثُ كنتُ أقف، كانت النساء حقاً يقفن في طابور.

يتكلّم متنحنحاً كما لو أنّه يطلق نفثاً بدل الكلمات. يبلّل بلسانه رأس القلم ويوقّع ببعض الصعوبة وكثير من التذييل. يطوي بوسكابيدا الورقةَ بحبٍّ ويناولها لِغانابان بلمسة آمرة. يُدخلها غانابان في جيبه قميصه الصوفيّ المهلهل.

يرفع بوسكابيدا حاجبيه ويقول لِفلِتشا:

-لو عرفتُ أنّك ستأتي، لكنّا جئنا برَقّ.

يبحث فلِتشا في محفظته. . تطير عيون غانابان وبوسكابيدا منهما. يُداعبُ غانابان في جيب بنطلونه الخلفيّ رأسَ المِطرقة. بوسكابيدا قال له أن يأتي بالمطرقة فلربّما عنّد الرجلُ.

تنبجس من راحة يد فلِتشا ميدالية مع بعض الشرائط الصغيرة المحترقة. "أنا عشتُ الحاجة لكنّني لم أقبل أن أرهن قفا رقبتي" يتضّح. يُخرج نظارته، يُقرّب الميدالية من عينيه.

يلمس بوسكابيدا ذراعَه.

-اشرب شيئاً، يا أخي -يقول ويُضيفُ-: شيئاً لا يكون ماءً، أليس كذلك؟

-أنت قلتَها.

-لأنّ الماء يأتي من النهر. أليس كذلك؟

-هو كذلك، يا صديقي.

-وفي النهر الأسماك، أليس كذلك؟

-بالضبط.

-والأسماك تقضي حياتها وهي تبول، أليس كذلك؟

يضحك بوسكابيدا وحده، يقرب لهم النادل بعض كشتبانات القصب.

ينشر فلِتشا صوراً على الطاولة. ينفجر الماضي، المجدُ، مصابيح المنغنيسيوم: تراكْ. يكبو، سوف يرمي بالرصاص، سوف تنغرز الكرة في الزاوية: الشهرة، وحماقةُ أن يكون إلهاً في تلك اللحظة حيث الجلد ينتظرُ ضربة الجبين، وغانابان وبوسكابيدا يشعران بأنّهما يسمعان الحشود تنفجر وتتعانق وتبكي في المحاكم، بينما غانابان يُفكّر: "إنّه آخر" وتستَعرض أمام عينيه البراهين على أنّ هذه القصّة قد وقعت، وفلِتشا يتأملُ نفسَه مندهشاً ويتجسّس على ردود فعلهم.

يتكلّم فلِتشا عن أسفار وعودات على نعوش. يتلقى تهديدات، يحكي ويغوط من الضحك. كان يتلقى تهديدات من مجهولين": سوف ننسف بالرصاص أصابع قدميك" أرادوا أن يرشوه، لكنّ هذا القلب لا ثمن له. يبتسم فلِتشا باتجاه السماء المبيضة، مقرفصاً والكرة بين يديه، ويوقفها بعد برهة بصدره ويسجل بعد برهة هدفاً من خطّ ضربة الزاوية، ويسقط ويطير من الفرح ويتأرجح في الهواء ويهزّ شبك المرمى. يحكي فلِتشا عن يومٍ كان فيه طفلا ويلعب على الشاطئ بالكرة المربوطة إلى قدميه ، وحده ضدّ الجميع، وكان الرمل يصيح كما لو أنّه يصقله، ويحكي أشياء أخرى بقيت عالقة في الزمن والذاكرة ومحطّمَة أيضاً.

تعودُ كؤوس الكانيا الصغيرة لتمتلئ من جديد وفي الجوّ تفوحُ رائحةُ تبغٍ. في رأس طاولة العرض يقرأ أحدهم بمناسبة

القبلات. تنتهي القصيدةُ معلناً أن أنقى القبل هي القبلة التي تُطبع على جبين جثمان الأمّ.

يُخبّئ فِلِتشا الصورَ ويتكلّمُ ناظراً إلى أسفل، ونظره ثابت على المحفظة المنتفخة بالنقود الغريبة والخيالات.

كنّا في الدور الثاني وينقصنا تاريخان. وحلّت بي اللعنة وسحقتني. جاءني الطبيب وقال لي: "انظر يا فِلِتشا، يجب علينا أن نتحدّث أنا وأنت على انفراد". دعاني للغداء في مطعم يُبهرك. كان هناك عازف بيانو وكلّ شيء. وأمر الدكتور بأن يأتوا بزجاجة نبيذ احتفظوا له بها. وقال لي إنّها مناسبة خاصّة جدّاً. كان هناك عقبات[21] على نار. كيف سأرفض. أراني المفتاحَ وكلّمني عن المسألة ولم يكن باستطاعتي أن أرفض. رئيس النادي مالك قليلاً للمرء. كان المفتاح هو الجائزة التي يعدني بها. أراني إيّاه وخبّأه في جيب الصدرية. "بليلة واحدة سيكون لك". هكذا قال لي.

تُسمع جلبة طاولة العرض بعيدةً. ومع أنّ الصور البنية والمتآكلة لم تعد على الطاولة فإن غانابان يشعر أنّ الصور السابقة تهيمن على وجه هذا النوع المنكمش بسبب إهانة السنين، والذي بقي يكرّر بلا عاطفة قصته التي حكاها كثيراً ولم تستنفد حتى الآن بكاملها:

-كان مفتاح شقّة. إذا ما فزنا بالبطولة كنتُ سأدخل في تمام العاشرة ليلاً في نقطة، وسوف أهتدي على طريقة القطط في العتمة حتى أصل إلى غرفة النوم. هناك على السرير ستكون

---

[21] اي الصحن الأخير (الدوسير). م.

الجائزة بانتظاري . وحدث. فزنا بالبطولة وأعطيتُ. سلّمني رئيس النادي المفتاح وذهبتُ. كانت ركبتاي ترتعدان، أنا الرجل الذي لا خوف عندي! كانت الفتاة عارية تماماً على الملاحف، وتكهنت في الظلمة بأنّها في غاية الجمال. تلوّت والتفّتْ حولي وذهبت مثل أفعى.

-فِلتشا يغلق أجفانه. ينفض رماداً عن ياقته.

-لكن كان هناك شرطان عليّ أن أفي بهما. لا أستطيع أن أُشعل الضوء ولا أن أسأل شيئاً. لن أعرف من كانت. ووفيتُ. لم أفتح فمي. وسرتُ في الغرفة دون أن أرى شيئاً، عيناي، لماذا أريدهما؟

يضحك ضحكة محزنة: "كنتُ بحاجة إلى أشياء أخرى. وكانت متوفّرة لديّ. آه، بالتأكيد متوفّرة. كانت تفيض عنّي".

يحكي أنّها كانت تضع قناعاً على وجهها وأنّه عرف بذلك من مداعبتها وأنّهما مارسا الحبَّ حتى الرابعة صباحاً في عناق واحد طويل. حين رنّ جرس المُنبِّه، ذهب، كما وعدَ الرئيس. ابتعد سيراً على القدمين دائخاً جدّاً وقد صار خرقة بائسة، وبقي جالساً على الشاطئ ووجهه إلى البحر. كان يلمس الرمل وكانت متعة. كانت أنامله مشحونة بالكهرباء.

-إلى أن طلعت الشمس، وعانقتني.

يربّت بوسكابيدا على ظهره:

-أهنِّئك، يا رفيقي.

- لا تهنّئني كثيراً. لأنّني هناك ضعتُ. والآن ها أنت تراني هنا -يقول، كما لو أنّه يعذر نفسه لضعفه وحزنه وهذه الحياة التي يعيشها.

- احكِ، احكِ.

- ماذا تريدني أن أحكي لك؟ هل تريدني أن أستمرّ بتحريك الخنجر في الجرح؟ -يشكو.

- إذن لا، حاشا لي أن أفعل ذلك.لا تحكِ، لا حاجة لذلك.

- لماذا؟ يتذمّر- إذا أردتُ فسوف أحكي.

- آه، هكذا نعم.

- إذا كنتُ أرغب فسوف أحكي.

- أنت مُحِقّ بهذا.

- من يُرد أن يُصغي، فليُصغِ. ومن لا يُرد فليذهب لينام.

يسند كوعاً على الطاولة، يُشعل سيجارة مصفاة. يستمتع قابعاً خلف عدستي نظارته بترَقُّب بوسكابيدا وغانابان.. يُطلق دخاناً. يتأخّر قبل أن يُتابع.

بدين يُدعى بوبو (أبله) كل ما يرتديه أبيض ووجهه مغطّى بمسحوق الأرزّ ويُغنّي "**وُلِدت مثل منثور الهواء، قبّل مصّاص الدماء صدغيّ**"، وحين ينطفئ التصفيقُ يرى صاحب المقهى أنّ جيوكندا التانغو هي أمورّاوْ بينما آخرون يشربون، مُلمّعين طاولة العرض بأكواعهم ويتفكرون في الحياة بأكبر قدر من الاحترام.

لكنّ فلِتشا يُفرغ كؤَيْسَ الكانيا ويتابع:

- لأنني، رأيتُها فيما بعد في الحفلة. أقاموا حفلة عظيمة في النادي كي يحتفلوا بالفوز ورأيتُها. عرفتُها. شيء غريب.

شعرتُ بذلك الجسد ينظرُ إليّ من بعيد. اقتربتُ. كانت تتكلّم مع مجموعة من الناس واقتربتُ كي أسمع صوتَها. لم نكن قد تكلّمنا أيّ شيء، لكنّ صوتها كان مثل آهات فرحها وصياحها الناعم. واجهتُها فاحمرّت كلّها.

يسكتُ ويرسم نموذجها في الهواء بيديه:

-لم أكن أعرف أنّه أمكن أن يولد في هذا العالم كائن بهذا الشكل. كانت كما كنتُ أظنّ، لكن أفضل بكثير. كنتُ سأتكلّم، لكنّني تشردقتُ. وهنا بقينا برهة طويلة هكذا، كلانا هناك، نتبادلُ النظرات، قاسيين من الدهشة واستطعتُ أخيراً أن أقولَ: "مرحباً، أيتها الغامضة"، ولم أحتمل وقرصتها من رجل. وهكذا كان أنّني فهمتُ. كانت زوجة الرئيس. حرم الدكتور.

غانابان لا يرف له جفن ولا يتحرّك، بقي غريباً عن أصوات المقهى. مشلول الزاوية يحكي ملحمة: "وضعتُ السكين في رقبتها" يحكي "رأسها لا أكثر، ورأيت أنّه لا يوجد رجل" الرجل الشاحب يُغنّي عن البولين الذي بقي ميتونغو وفوليرو. كأس ينفجر على الأرض. ينظر بوسكابيدا إلى ساعة الجدار بين قلب المسيح وغاردِل ويتأكّدُ من أنّ الساعة متوقّفة، ويتساءل منذ كم من السنين توقّفت عقاربها!

ينفخ فِلتشا في يديه. تبرد يداه في كلّ مرّة يتذكّر.

-لاحقتُها —يقول— ليلاً ونهاراً. كنتُ أهتفُ لها منتظراً صوتها، لكنّها لم تأخذ السماعة قط.

جوزة حنجرة فِلِتشا تنزل وتصعد.

صرتُ حارسَها عند زاوية البيت. كانت تخرج آخذة بذراع الدكتور وكانا يضحكان. وجدتها يوماً وحيدة. استوقفتُها فَتَصَنَّعَت أنّها لا تعرفني. نظرت إليّ بازدراء، متظاهرة بالكراهية، وقالت لي إنّها ستستدعي الشرطة إن لم أتركها تسير بسلام. لم أكن أكلّمها، كنتُ أنظر إليها، لا غير، عن قرب تماماً، كم كانت حسناء. كانت في مِشْيَتِها قطّةً بشرية. لا عينٌ رأتْ قَطّ.

يتكثّف الصوتُ أكثر:

-كنتُ أُرسل إليها رسائل مُغفلة. بدأت أشربُ. أنا الذي كنتُ أكره الجرعةَ ولا أجرّبْ حتى البيرة. صرتُ أسكر كل ليلة. صرت أستيقظ فجراً في أيّ مكان، محتبلاً بشعر، أيّ شعر. في الملعب، لم أترك مكاناً. أوّل ما أضعت كان الحماس للعب. بعدها الشجاعة. كنتُ أصلُ إلى الملعب فيغشى الضباب عينيّ. كانت أهدافاً مُحققة. لم يكن باستطاعتي الاستمرار في هذا الإطار. داخلني الخوفُ. أنا الذي لم أعرف هذا السيّد الخوفَ. كان الطبيبُ يأخذ حرارتي ويعطيني حبوباً. صار الرئيس أكثر ودّاً معي من أيّ وقت مضى. كان يقول لي: "فِلِتشيتا، ما الحشرة التي لسعتك؟" "ألاحظ أنّك غريب، يا فِلِتشيتا." أردتُ أن أشتري تذكرتي ولم أستطع. كنتُ أسيرَ العقد. من يعرف ما. تقولُهُ تلك الأوراق؟ رحتُ أخسر أصدقاء. رحتُ أخسر نفسي. خسرتُ كلَّ شيء . شيء يغيظ، أليس كذلك؟ تخسر كلَّ شيء دون أن تكون قد راهنتَ. لكن أنا، ماذا كانت علاقتي؟

-لم يكن لك علاقة —يُسانِده بوسكابيدا.

-آه، لا؟ وفي ذلك السرير من نام؟ هه؟ مونغو أورليو[22]؟ أنا من نام، أنا، أنا —يضربُ فلِتشا على صدره بسبّابته.
-حسن. والإنسان ليس من خضراوات يُعزيه بوسكابيدا.
-أنا من خضروات؟ أنا من خضراوات؟ هه — يتبجح فلِتشا.
-أعني أنّ هذا يحدث مع أيّ كان —يُصرّ بوسكابيدا.
-مع أيّ كان، مع أيّ كان، قلت؟ الله نفسه امتقع حسداً في تلك الليلة—يغتاظ فِتْشا.

يشدّ على محفظته ويبقى برهةً صامتاً. تنزلق قطرةُ عرقٍ ببطء وتنفجر، بُمْ، على حافّة الكأس.

يُفكّر بوسكابيدا أنّ الجابي سوف ينضج خلال وقت قصير كي يأخذه إلى الخارج ويسرق حتى طقم أسنانه. يصيح مشيراً إلى غانابان:

-الرجل، هنا، غير قابل لرشوتك؟ وأنا أيضاً. كلانا يُحبّك كثيراً. أنا أحبّك كثيراً. أنت لستَ وحدك ، كيف ستكون وحدك؟ أنت لي، أبي وأمّي. أنت الاثنان، الاثنان معاً. أنت بالنسبة لي أبي وأمّي. الاثنان، أنت الاثنان معاً بهذا أقول لك كلّ شيء.
-كلام —يقاطعه فلِتشا— كلام وكلام. ماذا يفيد الكلام؟ أستطيع أن أحكيه لكما الآن لأنّه ما عاد يهمُّ. لكن في ذلك الوقت، لمن كنتُ سأقوله؟ كنتُ سأشعر بنفسي أبله جدّاً لو حكيته لأحدٍ لم يكن باستطاعتي. أن أحكيه الآن، ماذا يفيد؟ حتى لو صدّقتماني.

---

[22] شخصية خيالية شعبية يعزى لها كل ما لا يفعله أو لا يريد أن يفعله شخص ما. م.

يشعر غانابان بفمه جافّاً وبلسانه ملتصقاً بسقف حلقه. يأخذ جرعةً طويلةً ويُقرّر ألاّ يستخدم المطرقةَ. يتناولُ جرعةً أخرى ويُقرِّر أنّه لن يضربَه، أنّه لن يضربه ولا بشكل من الأشكال. حشرة تسقط من السقف، يسحقها بوسكابيدا بحذائهً.

-هل تعلمون بماذا كانوا يصرخون لي؟ اقتل نفسك، يا من بعت نفسك، أيها المافيوي! هذا ما كانوا يصرخون به إليّ. أخطأتُ هدفاً وكانوا يصرخون بي: "بحافرك، لا".

يكنس الطاولة بكم سترته.

-كان للجمهور الغاضب أسبابه، لا تظّن. كنتُ أصل إلى الملعب سكراناً بعد نوم سيّئ، متأخّراً دائماً. لو أنّني عرفت كيف أُدخلُ الكرةَ في المرمى بهدف وكلّ شيء؟. لكنّ عمري كان ثلاثين سنة فقط ومع ذلك كنتُ مستنفداً. رفستُ ذات مساء الكرةَ فأصبتُ راية الزاوية. أصابتني برتقالة متعفنة تماماً على وجهي. فراح وجهي يقطر.

يسكتُ، ترتجف يده قليلاً. يحسّ غانابان بأنّ حشرات الذنب والندمِ تطنّ في رأسه.

يستعيد فلِتشا، بعد صمتٍ طويل متأذٍّ من أصوات وضحكات البقيّة، المرأةَ المُقنّعة.

-ذلك الجسد الذي كان يُلاحقني دون أن يتحرّك.

ويتذكّرُ:

-كنتُ أُريدُ أن أمحوها وكانت تنمو.

ويهمسُ:

-كنتُ مستعدّاً لأن أدفع أيّ مبلغ ثمناً لذلك النسيان.

ويحكي:

-لكن لا. لم يكن مُمكِناً. أبقوني معلقاً طوال العام. كنتُ أشاهد المباريات من الخارج، في المرّات القليلة التي كنتُ أذهبُ فيها. فقط كانوا يسمحون لي بالتدرّب ليلاً. بعد سنة لم يعد أحدٌ يتذكّرني. كنتُ أذهب إلى الصحفِ فيقولون لي: "فلتشيتا، هل معك سيجارة؟". لا أحد كان يذهب ليبحث عن المُصَوِّر. كانوا يعدونني بأن يكتبوا تقريراً ما أو شيئاً ولم يكن يخرج شيء. في النهاية كنتُ أبقى وأتحدّث مع البوّابين. كان باستطاعتي أن أجري، أقفز، أرفس، أخدع، كلّ شيء كما في السابق، لكن من دون رغبة. وضعوني ذات ليلة، أدخلوني في مباراة خرائية. خلال عشر دقائق، وعند خروجي صاحوا بي بشيء، وتشاجرت مع كلّ الحشد المعارض. فعلتُ بهم ما يفعلُ من يغسل ولا يكوي. كانوا بالآلاف. لا أعرف، كانوا حشداً بربرياً. لكنّني تلقيت ضربةَ حظٍّ سيّئ وبقيت عيني هذه مغطاة بسحابة ماطرة للأبد. يبدو أنّهم كشطوا الشبكية أو شيئاً من هذا القبيل.

يمرّ بيده على الجلد الزلق. يُفكِّرُ بوسكابيدا: "رجل قصير السن، ولِد كي يعاني"، وبين جرعة كانيا وأخرى يتشاجر مع ضميره: "اهدأ" يقول له. "هي ليست قضيّتك"، لكن مريم العذراء هي التي تقول له: "أنا أنسحب من هذه التجارة، ليس لي أيّ علاقة بهذا".

يُخبّئ فلِتشا رأسه بين يديه، والوجه في ظلال هابط ومبلل زكاماً أو انفعالاً لأنّه يطلّ على ثقوب الستارة البالية.

في المقهى ما عاد أحد يُغني ولا يحكي، يتحادثُ أو يناقشُ:

- هنا في كلّ ليلة هناك من يُودّع.
- وماذا؟ هل من سوء في أنّ أحداً يريد أن يأكلَ في كلّ يومٍ؟ أنا عندي أولاد. سبعة. منذ ثلاثة أشهر...
- افهمني! أنا خبيرٌ جبتُ دروباً كثيرة. وحلّقتُ عالياً.
- ما قلته لي لا يُفيدني. ما تقوله لي الآن أصغي إليه باهتمام شديد.
- أنا أحترمك.
- وأنا أحترمك أيضاً.
- هكذا أحبّ.
- تشكر.
- وأنا أشكرك. نحن الذين كنّا في العام الماضي، دون أن نذهب بعيداً، كم بقي منّا؟
- إنّنا نقلّ حقاً.
- إذا ما راح المرء يحسب...
- ترى هل نحن الذين بقينا، بقينا كي نسهر على الميّت؟
- أمنعك من أن تتكلّم هكذا عن الوطن.
- لست أنت من يمنعني شيئاً.
- أنا؟ أنا شيء خاص. ككُولونيل جئت لأكون، كدكتور.
- وكلمتُك مُجرّدة.
- تماماً هذا، لا تُمسّ ولا تُجسّ.

-لذلك أقول لك. نحن نفرغ.
-ليست هذه طريقة للحبّ.
-هنا تكمن المسألة. الجميع، أبناء الوطن، يمضون مبعثرين في العالم.
-لكن، لماذا لا تفلتنا الفاجعة؟ لماذا تمسك بنا من رقابنا بهذا الشكل؟

يستوي رأس فلِتْشا، على ضوء المصابيح الأصفر. يصرّ الكرسي الخشبيُّ. "خذْ آخر" يقول له بوسكابيدا، فيقول الجابي: "هذه الدورة[23] لي"، ويردّ بوسكابيدا: "لا، لا، بل لي" ويوَضّح أنّنا نحتفل بحدث وحشيّ وخطير، وأنتَ لا تستطيع يا صديقي ألاّ تنضمّ إلينا، وفلِتشا وهو دائماً يشدّ على محفظته، وبوسكابيدا يُقَدِّم نفسه ويقول له: "اعطنيها، أنا أحملها لك" ويشدّها بنعومة، لكنّ المحفظةَ استمرارٌ لأصابع فلِتشا الذي لم يذعن حتى الآن، ويشدّ عليها ويتكلّم مهدهداً لها:

-كما جئتُ أحكي لكم - يقول- حصلتُ على عمل في بناء وكان الكلس يجرح يديّ. على السقالة كنتُ أدوخُ. كانوا يرمونني بالقرميد ولم تفتني واحدة مع أنّني كنتُ هدّافاً عندما كنتُ صبياً، وهدّافاً من الجيّدين! رحتُ أبيعُ خضاراً على حصان كان عندي، وكان المسكين قدّيساً. ذات فجر بردُهُ قارس، انزلقتُ عن دوّاسة العربة وسقطت على ظهري، وانتهيت إلى المشفى. بقي الحصان ينتظرني في الباب. سرقوه لي. بعدها صرت أحمل أكياساً في الطاحونة، في اليوم الأوّل سقط فوقي كيس طحين ودخلتُ في

[23] دورة الكؤوس. م.

الفاقة من جديد. استبدلوني. لم يكونوا أناساً سيّئين . شغّلوني في خياطة الخيش فرحت أخز أصابعي. لم يكونوا أناساً سيّئين، لكنّني وُلِدتُ كي أُدخل أهدافاً، وخارج هذا لا فائدة منّي. تلك كانت الحقيقة الحقيقيّة. في كلّ ما عدا ذلك ،كنتُ كمن يعيشُ حياةَ آخر. هذه هي مشكلتي. إذا كان المرء يعيشُ حياةَ آخر، تسوء حاله. كنتُ في ذلك الزمنِ أعملُ وليس كما الآن. كنتُ أدور مثل كرة من دون أداة تحكّم من عمل إلى آخر، أعيشُ من الإحسان، وفي النهاية ما عاد أحدٌ يُصدّقني عندما كنتُ أقول أنا فِلتشا، وما عاد أحدٌ ينتظر منيّ شيئاً. ما عادَ أحدٌ ينتظر منّي شيئاً.

يرفع وجهه المحوق . تتكرَّر الأيّام ونحن في الخريف، لكن ما همّ ذلك؟ وددتُ أن أُفكّر أن الشيخوخة خطأ، وأقتنع. وددت لو أخترع ذَنْباً لي أو لغريب آخر كي أستطيع أن أتوب أو أتّهم وأنقذ نفسي من القرف: كيلا أعرف أنه لم يكن يوجد قط فرصة للعودة إلى الخلف، لأنّه ليس هناك فكرة أقذر من يقينك بأنّك ولدت كي تسقط. وتسقط وأنت في الثلاثين من عمرك! وددت لو أعود لأتكلّم عن كرة القدم، التي هي حرب مُقدّسة، وما عاد باستطاعتي:

- ذات يوم طيب – قال – ظهرت هي. هي؟ لا، بل السائق. هي بقيت في السيارة. لا أدري كيف عَرَفَت أين أعيش. كنتُ في نزل بائس، مديناً بثلاثة أشهر، ملقى هناك على سرير فرديّ أُدخّن آخر أعقاب السجائر. وجاءت هي في سيارة الباكارد الزرقاء ساعة القيلولة. رآها الجيران، ولا بدّ أنّهم حتى الآن يتذكّرون. هي لم تنزل، أرسلت لي

السائقَ. فتحت الستارة المطلة على الفناء وأخرج العنصرُ القبّعة وسأل عنّي. جاء بمغلّفٍ في يده. أنا لم أنهض ولم أنظر إليه. مددتُ ذراعي. سمعتُ إقلاع السيارة، انتظرت بعدها النهارَ كلّه دون أن أفتح المغلّف. حين حلَّ الليلُ رحتُ أمشي، دخلت مقهىً وفتحته بتأنّ. اعتقدتُ أنّه كان يحتوي على رسالة. لكن لا. كان هناك أوراق نقدية. هذا ما كان فيه. نقود لي. كلمات، ولا كلمة واحدة. ما من سطرٍ واحد.

وأخذ كتفاه يرتفعان، وراح رأسه يغوص.

- لم أعرف بعدها شيئاً عنها. لا أعرف ماذا حلّ بها. لم أبحث بعدها عنها قط. لا أعرف كيف حالها الآن، وإن كان لا بدّ - يخطر لي- أنّ السنين شوّهتها. السنون تمرُّ على النساء مثل المحدلة.

- مسكينة —يقول- لم تفهم قط شيئاً.

- مسكينة —يقول.

- وأنا — يقول- لم يكن لي هذا العمل.

- لا يحقّ لي أن أتذمّر — يقول.

- على الرغم من أنّني أمشي أكثر من اللازم — يقول - منذ زمن طويل وأنا أمشي أكثر من اللازم.

- انظرا —ويريهما الداولي.

يُخرج فِلِتشا النظارة، تتهدل أجفانه.

- يودُّ المرء أحياناً لو... —يقول.

الأصابع قصيرة ومستوية تنحلّ وتبحث عن علبة السجائر. العلبة فارغة، تهصرها اليدُ. تتلوّى قبضة فلِتشا وسْط الطاولة.

-يودّ الواحدُ...

ينظــرُ غانابـــان إلى وجهـــه. ينظـــر إلى جلـــدهِ الـــوردي والمحرشف. جلد كرش السمكة، وينظرُ، مترصِّداً، لمعانَ البكاء.

- فلتهبّ ريحٌ مجنونة في حياة المرء. هذا ما وَدَدْتُهُ. فلتهبّ ريحٌ مجنونة.

لكنّ البكاء لا يأتي. تتلاشى أصوات المقهـى حـولهم وغانابـان يعرفُ أنّ هذا الخلاص لا يفيده وأنّه خسـر.. أنّـه لـن يصـبح غنيّـاً في تلك الليلة ولا في أيّ ليلة أخرى. يعرف أنّه لن يصـير. ويعـرف أكثـرَ. يعرف أنّه لن يسمح. ويقول لبوسكابيدا بصوت خافت:

-إذا مسسته قتلتُك.

يلمح بوسكابيداً باحتجـاج. شـرارةُ وعيـدٍ واحـدة في عـيني غانابان توقفُه جامداً.

يضع غانابان بعدها المطرقة على الطاولة، يزلقها نحـو ذقـن فلِتشا ويقول له:

-هذه لك. أهديها لك.

34. العودة

كانت الزنزانة أقل ارتفاعاً منّي، وهكذا لم أكن أستطيع أن أقفَ ولا أن أحني رأسي. كانت رائحتُها أسوأ من رائحة المسالخ، ولم يكن فيها من الهواء أكثر مما في صندوقِ ميّتٍ.

بقيتُ وكُمّة في رأسي. كان الصراخُ يخترقُ الجدرانَ، لكنّني كنتُ خلال النهارات الطويلة من دون ضوء، أُحاولُ أن أُسَلّي نفسي بالإصغاءِ إلى طنين ذبابةٍ كانت تصطدمُ بالجدرانَ. في الليالي كنتُ أتكهّن بخطواتِ فأرٍ يتيمٍ يخرج من القسطل ويُرافقني. كنتُ أعرف متى يكون نهاراً ومتى يكون ليلاً، أفترض أنّه كان بسبب الروتين، صرير المزلاج والطاقة الحديدية التي كانت تُفتح ليُدخِلوا صحنَ الطعام والمشاوير إلى الحمام، حين كانوا يَحملونني ويعودون بي كشيءٍ، كأيِّ شيء. لا أدري ما إذا كنتُ أميّزُ بهذا النهارات من الليالي أو أنّ السببَ كان آخرَ أكثرَ غموضاً. صرخاتُ نعم، كانت تُسمَع في كلّ ساعة.

كانوا قد أوقفوا الصفعات. "سنعودُ لنُدردش" قالوا لي. رحتُ أستعيدُ جسمي المحطَّم قليلاً فقليلاً. كنتُ ألعقُ جِراحي. أمشي كثيراً. كيلومتراتٍ بكاملها. طبعاً أقطعُها على ثلاثِ خطوات، كنتُ أعرجُ، ما زلتُ أعرجُ، هذا لا شفاء منه.

برؤوس أصابعه كان يقرأ الرسائل التي تركها آخرون، بأظافرهم أو أزرارهم على الجدران. جميعنا نشعرُ، اعرف السبب إن كنتَ شاطراً، ، بتلك الحاجة للكتابة: كنتُ هنا.

كنتُ أنامُ على الأرض، على السترة. كنتُ أقضي الوقت بانتظار إشارة ما تأتي من الخارج. كنتُ أتكهّن أو أخترع أصواتاً لا تكونُ صخبَ الألم. كل الذي كنتُ أسمعهُ، أُصفيهِ وأُراكمِهُ. ككامن كنتُ أنتظر أن يأتي أحدٌ ويحدّثني، حتى لو كي يُعَهِّرني، لكنَّ أحداً لَم يكن يأتي. كنتُ أعدّ الأيام التي تجري، أجمعُ ، أطرحُ، وأُفكّر بالسنوات التي كانوا سيسرقونها منّي. كنتُ أتحدَّث مع الملعقة.

كـان للكُمّـةِ في رأسـي رائحـةُ لعـاب وتخمـرُ طعـام. لعـاب غريب، وتخمرات آخرين.

وذات يوم سعيد أخرجـوني مـن النزنزانـة وجعلونـا نمشـي جميعاً في صف هنديّ، كلّ واحدٍ ويده على كتف الـذي أمامـه. لا أدري كم كان قد مرّ من الزمن دون أن ألمسَ كائناً بشريّاً. أريـد أن أقول: كان الحرّاس يُمسكون بي من ذراعي كي ينقلوني، لكـن لا علاقـة لهـذا، ألـيس كـذلك، يـا كـلارا؟ جعلونـا نسـير في طـابور ووضـعونا بعـدها وظهورنـا إلى الجـدار. وأبلغونـا بسـاعتين مـن الاستراحة. كان الكلامُ ممنوعاً. لكن كان بمقدورنا أن نرفع الأكمام ونستطيع أن نجري ونقفز. عنـدما خلعـتُ الكُمّـةَ شـعرتُ بـأنّني استعدتُ نصفَ حرّيتي. أشعلني النورُ. رأيتُ جداراً عاريـاً ورجـلا يحمل مسدساً في زنـارهِ. اكتشـفتُ السـماءَ، الشـمسَ الـتي كانـت تحرقُ عيوننا؛ في الأعلَى كان هناك جنـود يحملـون بنـادق أم-1. رأيتُ جنوداً آخرين، رأيتُ كلابـاً. عنـدها نظـرتُ إلى الجوانـب، رأيتُ وجوه سـجناء آخـرين، وجميعنـا كنّـا مسـاكينَ ومُتَـوَتّرين، رأيتُ اللحى، البنطلونات مربوطةً بـأمراس، فتـاة ترتعـد وأخـرى تُغطّي عينيها بيديها وأكثرَ من واحد كان يًبدو مصفّى. تعرُفْنا على بعضنا كان شيئاً جيداً، كنّا نتبادلُ النظـرات مُرفـرفين أهـدابَنا. كنّا جميعاً شباباً تقريباً، بعضنا شباب جدّاً. كانت تكفي نظرةٌ كي نعرف من صـار عجـوزاً في العشـرين مـن عمـره، في أيّ حـالاتٍ انتصرت الآلةُ.

كان هناك واحد، عرفتُ ذلك فيما بعد، انكسر للأبد. كانوا قد حملوه من جديد إلى الآلة، حين اعترف بكـلّ شـيء، أجلسـوه

تحت دفق من النور هناك بين القواديس والألواح والسيور والخرق والأسلاك. في الظلمة خلف القضبان كانت زوجته، وهو لم يكن يعرف. هي لم تعرفه في البداية، حين أجبروها على النظر؟ هو كان في غاية النحول، طويلَ اللحية وملتوي الظهر كثيراً. هي لم تعرف الصوت الموجوع ، الذي كان ينوح: "لماذا أنا هنا؟ ماذا سيفعلون بي؟ قلتُ لهم كلّ شيء".

-عليك أن تُعيد – قالوا له – سيكون عليك أن تُعيد كلّ الذي قلتَه لنا. كلّ الذي قلته عن زوجتك.

-لا، لا.

-عنها. ما قلتَهُ عنها. قُلْ.

-سبق وجعلتها تتعذّب. لا أريد أن أجعلها تتعذّب أكثر. لن...

-عليك أن تُعيدَ ما قلتَهُ.

وأعاده. اتهمها. وعندها قالوا له:

-هي هناك تسمعك.

انفجر بالبكاء.

-كلّمها – قالوا له– قل لها ما تريد أن تقوله.

لووا رأسه فكلّمها في الظلمة:

-يوجد ثلاثة شهود –قال– صار كلُّ شيء معروفاً. لا تقتل نفسك، هذا لا يُفيد.

وناح. وعندها أتوا له بها. وضعوها أمامه. هي واقفة، عارية وهو جالس، ينظر إلى الأرض.

-أنقذي نفسك.

وهو ينوح.

- لا تقتلي نفسكِ. أنقذي نفسك. أنا أُحِبّك.

وهي لم تقُل شيئاً. هو رفع رأسه قليلاً فرأى صليباً من حروق السجائر معلّمة على بطنها ورأى شفتها مشقوقة، ولم يرَ العلامات الأخرى التي خلّفتها الآلة داخلَ وخارجَ الجلد.

هو أراد أن يرفع ذراعاً ولم يستطِع. طلبَ العفو منها. اعذريني، قال لها. هي نظرت إليه وهو راح يُصرّ:

-اغفري لي. يجب أن تغفري لي.

هي كانت تنظر إليه. تنظر إليه دون أن يرفّ لها جفن. ولا تقول له شيئاً.

هو الآن هناك، في الفناء، معنا جميعاً، وأنا لم أكن أعرف من كان. عرفت بعدها أنّه كان يُريد أن يُحطّم رأسه على الجدار وأنّه هجم وارتدّ. كان الجدار مبطناً برغوة النايلون. الآن كنتُ أراه، هناك، حيث كنّا جميعاً من دون كُمَّةٍ في رأسه، ينظر دون أن يرى: ضائع.

من ثيابهم كان بالمستطاع أن تُعرف تماماً اللحظةُ التي صادوا بها كلّ واحد. كان هناك عنصر في منامة.

في البداية ما من أحدٍ تشجّعَ على أن يخطو الخطوةَ الأولى. بعدها تشجّع واحدٌ، ثم آخر فآخر وتحرّكنا جميعاً تقريباً، باستثناء من ظلوا ملتصقين بالجدار. من كان باستطاعتهم الجري راحوا يرفسون حصى، وقامت مباراة بالقوس، وكلّ شيء، وأنا أيضاً خببتُ قليلاً. عملنا من الكُمّاتِ قوساً كي نستطيع أن ندوسه.

تعبنا فوراً، كنّا قد صرنا خراء.

عندها جلستُ القرفصاءَ، تحت الشمسِ بملاصقة الآخرين، الجميع متلاصقين وقلتُ لنفسي:

- سوف أهربُ. أقسم إنّني سأهربُ من هنا. إما أن أهربَ أو أموتَ أو يقتلوني. أقسمُ.

أعادوني إلى الزنزانة من كُمّة في الرأس. صار باستطاعتي أن أرى العالمَ من ثقبٍ. كان العالمُ ممرّاً، لكنّ هذا كان يُساعدُ.

بعد وقت قصير بدّلوا ثكنتي. وكانت فكرةُ الهربِ تشغلُ دائماً كلَّ رأسي. كنتُ أعرفُ جيّداً أنّ عليّ أن أُسرع كي أنقذ ما تبقى منّي، آجلاً أو عاجلاً، وعاجلاً أفضل من آجلاً. كنتُ سأعود إلى الآلة. هم أنفسهم كانوا يقولون لي. لم يكونوا مستعجلين وأنا كنتُ. كنتُ أُعيد بناءَ ذاتي وهم كانوا سيُدمرونني بالكامل.

كان الوقت مشحوناً، وذاك كان هو الجحيم، وكلُّ ساعة تمرُّ أشعرُ أنّ رصاصةً تدخلُ: تراكْ، في بيت نار مسدَّسٍ خفيّ

وهائل جاهز كـي يُطلـق. أرمـي أنـا أو يرمـون هـم. كنـتُ أقضـي النهـارات والليـالي في وضـع خطـطٍ، أقـيسُ مسـافاتٍ، أحسـبُ، أتحقّقُ مما أستطيع وأتكهّن بالباقي. أفردوني، لكنّني كنتُ أتـدبّرُ أمري كي أجمع معلومات من خلال أيّ جلبة أو معلومـةٍ معزولـة. كنتُ قناعاً مقلوتاً، وكان هذا لصالحي: إذا مـا ذهبـت لـن أزعـج أحـداً. اخترعـت خططـاً كـثيرة غايـة في الـذكاء، جميعهـا غـير مجدية. حتى أنّـني فكّـرت أن أجـزّ جلـد حـذائي كـي أنتعلـه بـالمقلوب كمـا كـان يفعـل قطـاع الطـرق: رأس القـدم في الكعـب، والخداع بالآثار.

كنتُ أنـام ووجهـي باتجـاه المكـان الـذي كنـتُ أتصـوّر أنّ المدينة فيه وفيها أنتم..

صارت رجلاي تتجاوبان معي جيّداً. أعرج، لكنّني أستطيع أن أركـض. كنـتُ واهنـاً جـدّاً، جلـداً وعظمـاً خالصـين، لكـنّني أسـتطيع أن أركـض. أركـض في الزنزانـة، دون أن أتحـرّك مـن مكاني. سيتوجّب عليّ أن أركض كثيراً، إذا ما واتتني الظروف.

فكّرتُ في حظين واخترتُ الأصعبَ. لأنّه راودنـي شـكٌّ: ومـاذا لـو كانت خدعة محضّرة لقتلي؟ سيكون الهربُ طريقـةً جيّـدة لقتلـي. طريقـة مريحة. عند هذا المستوى كثيرون كانوا يعرفـون أنّـني كنـتُ هنـاك، وإن كانوا أبقوا عليّ معزولاً.. اخترتُ الأصعبَ وهربت. لم أسـتطِعْ أن أتحمّـل أكثر، وما قد يحدث لم يكن يهمّني قيد شعرة.

لويتُ قضبانَ النافذة الحديدية، بطريق المخل، بكـثير مـن الجهد قطعت بعدها النسيجَ المعدنيَّ في الخلف. كنتُ قد حصـلت

على ما أحني به وأقطع. تركتُ كتلةً تحت البطانية وانسللتُ غبر الثقب . كنتُ نحيلاً جداً، تحوّلت إلى أفعى، تسلقتُ منزلقاً شجرة من شجرات السرو التي تشكل صفاً بمحاذاة جدار العنبر. انتظرتُ وفكّرتُ. كانت الأضواءُ الكاشفةُ تُلامسِ قدميَّ. أريد أن أقول لكِ إنّني أردتُ أن أنتظرَ وأردتُ أن أُفكّرَ، لكن لم يكن باستطاعتي حتى أن أرى بسبب الخوف الذي كنتُ أشعر به. على الجانب الآخر. كنتُ أعرف أنّ الحرّاسِ موجودون على الطرفِ الآخر من الجدار، وأنّهم مسلحون جيّداً. كان السجّانون سينتبهون في أيّ لحظة إلى غيابي. انتظرتُ عواءَ صفارةِ الإنذار مصرّاً على أسناني.

نزلتُ من شجرةٍ إلى شجرة وانتقلتُ أخيراً إلى إفريز الجدار الكبير. سرتُ منحنياً كيفما استطعتُ. كان الإفريز مغطى بالزجاجِ المكسور، أسفل قنان وشظايا، آذتِ يديَّ ورجليَّ. في الأسفل كان جنودُ الحراسة يذهبون ويؤوبون، كانوا يتقاطعون عند كلّ عشرين خطوة. لم يكنِ باستطاعتي أن أتأخّر. لكنّني بقيتُ هناك في الأعلى وقتاً طويلاً، أكثرَ من ساعة، كما أعتقد، رابضاً، أستجمعُ قوايَ وشجاعتي كي أقفز. لم أكن أرى شيئاً آخر غير دفقات الأضواء الكاشفة تمرّ قريبةً منّي. لم أكن أسمعُ أي ضجيج غير ضربات قلبي ولهاثي، وكنتُ أظنُّ أنّ العالمَ كلّه كان يسمعُ نبضَ خوفي الضاري، وكنتُ أُكلّم نفسي بصوتٍ خافت وأقول: اللعنة على العاهرة أمّك التي ولدتك، أنّت جبان.

كلّ شيء كان سيتعلّق بالحظّ والأعصاب. المفاجأة هي الشيء الوحيد الذي كان لصالحي: برجلٍ ونصف كنتُ سأقعُ بين

الحارسين. سأجتازُ الممرَّ، سأقفز من فوق الجدار الخارجيّ:
سأنتظر معجزة. سأحاول أن أُلهي الحارسين بضربة حجر، كنتُ
سأراهن على أن يشلّهما الذهول.

لم أتشجّع. كان الوقت يمرُّ وأنا لا أتشجّع. كان جنوناً.
بلى كان. لكن لم يكن باستطاعتي أن أندمَ إذا كنتُ ما أزالُ أريدُ
أن أخرج حيّاً. أعطيتُ الحقَّ للخوف كي أتحكّم به ورحتُ
أُفكّر: أين سيرمونني بالرصاص؟ في الجوّ؟ على الأرض؟ وأنا
أركض؟ مَنْ مِنْ هذين سيقتلني؟ قصيرُ الخراء؟ مرّة وقف العنصر
ودفع المزلاج. تَجَمَّدَ عمودي الفقري. انتظرَ ثمَّ تابع سيره
ففكّرتُ: بلى، سيرمينني قصيرُ الخراء هذا بالنار. جاء تبديل
الحرس. صار من نصيبي الآنَ قاتلان آخران. أيضاً كان
باستطاعتهم أن يقتلوني من أبراج الحراسة، إذا ما نجحتُ في
الوصول إلى الخارج وعندها لن يبقى لي غير الرغبة بأن أرى
وجهَ العنصر الذي سيرسلني إلى الموت.

قرّرتُ أن ألا أبقى أزعج نفسي، وأن أعدّ إلى الخمسين
وداعاً. عددتُ إلى المئة، وقفتُ فوق الجدار ورميت بالخردة التي
جئتُ بها معي، رميتُ بها بعيداً بكلّ ما فيها وحدث انفجار
زجاج مكسور وتدليتُ عن الجدار وركضتُ بروحي والحياة.

لقد نجوتُ. لا أعرفُ كيف. طرتُ. لا أعرفُ كيف؟
سمعتهم يصرخون بي قفْ وشتائمَ تلتها طلقات ثم نباحٌ اختلطَ
بالطلقات. أفلتوا الكلابَ عليَّ. بدأ الصيد. كان الرصاص يئزُّ،
والأضواءُ الكاشفة تكنسَ الأرضَ من حولي.

دخلتُ إلى المقبرة. تعثّرتُ بصليبٍ فوقعت بوجهي على الأرض. تابعت جريي، مجنوناً أتلمّسُ الظلمةَ، وكلّي جروحٌ من مخالبِ أغصانِ الأشجار. كنتُ أشعر بالكلابِ تنهشُني من كعبيّ وأزيزِ الرصاصِ يلامسني وأنا أقفز وأقفزُ، مُتَفادياً القبورَ، متعثّراً بها، ناهضاً معَ كلّ سقطةٍ وراكضاً بكلّ ما أوتيتُ. وبينما أنا أجري خلعتُ قميصي ورميتُ به في حفرة. لم يكن هناك قمر.

كنتُ أركضُ وأُفكِّرُ: إنّهم يقتلونني، سيقتلونني، خرائي عليهم.

قفزتُ فوق شبك أسلاك المقبرة، وحين أردتُ أن أتذكّر كنتُ أبربط في النهر الصغير. خلعت حذائي ورميتُ به إلى الجانب الآخر، بعيداً جيداً، للتشويش عليهم. غصتُ برأسي في المياه الآسنة. سرتُ لا أدري كم أو سبحَتُ بعكس التيار. في كلّ مرّة كنتُ أطلّ برأسي كنتُ أسمع رشقاتِ الرصاص ونباحَ الكلاب. لا أدري كم ساعةً دام هذا، لكنّني بقيتُ أُجبرُ ساقيَّ، أدفعُ نفسي، مخنوقاً بآخر نفس، وكنتُ أشعرُ أنّه ما عاد عندي من طاقة وعضلاتي تقولِ لي: حتى هنا وكفى، لكنّني رحتُ أتابع. أتابع وأتابع مقاوماً التيار.

كانت السماءُ تنجلي حين خرجتُ من النهر.

راحت أصواتُ الملاحقين تنطفئ بعيدةً.

كنتُ أسيرُ هدْجاً، أسيرُ نائماً فرحاً بحرّيتي. اجتزتُ أرضاً قفراء. ساقي تعرج، متأذّية جدّاً، لم تطاوعني أكثر. سقطتُ بجانبِ مِكَبٍّ للقمامة وبقيت مرمياً على ظهري فوق العشب. كان

رأسي يلتهب وأشعر بوخز ضار في أضلاعي وكان التنفسُ انتصـاراً. كـان قلـبي، الحشـرة المسـكينة، يريـدُ أن يهـرب منّـي، يـداي وساقاي وقدماي تؤلمني. ما عدتُ أشعرُ بالرّعـب، انتبهـتُ إلى أنّ يديّ تقطران دماً، انفزرتا. لم يبقَ عنـدي قـوّة كـي أنتـزع نثـرات الزجاج من كفيَّ. بفضل يَدَيّ اللتين تأذتـا عنـدما تـدليتُ أُنقـذتْ ساقاي من الكسر أثناء القفز.

كان جسمي محطماً كلّه، وسألت نفسي ماذا فعلـت سـاقاي حتى حملتاني إلى هناك؟ انتبهـت تـوّاً. لم أملـك وقتـاً كـي أشـعرَ بشيء. رأيت أن كلّ شيء حدث كما يُرام وقلتُ لنفسي: أَهَنّئـك، يا رفيق. رأيتُ أن الله عظيم، حتى لـو لم يكـن موجـوداً. فكّـرتُ أنّهـم بحثـوا عـني بـين القبـور، حيـثُ يقضـي الليـلَ بعـضُ السكارى واللصوص. وأنّ مياه النهر كانت رائعـة بكـلّ خرائهـا ووحلها وقمامتها.

كنتُ سعيداً جدّاً. وقبل أن أُغمـضَ عـينيّ رأيـتُ النجـومَ في سمـاءِ الصيف. لم يحدث أن وجدت نجوماً بهذه الكثرة في السماء. لم تَبقَ قطعة منها لم تُغطّها. كان العشـبُ مُبلّلاً وطيّـبَ الرائحـةِ علـى خلفيـة الأفـق. بدأت المدينة تظهر غبشاء. رأيتُها، أو تخيّلتُهـا. لا أدري. في واحـدة مـن تلك أردت أن توجد المدينة، من أجل كلّ تلك الفرحة.

شعرتُ ببردٍ شديد. رحتُ أسيرُ ناثراً ثيابي هنـاك وكنـتُ نصفَ عارٍ. مع أوّل نور، راح يحلُّ دفءٌ. لم أعرف أكثر.

أيقظـني فرطـوسُ حصـان. حتـى الخـوف لم يسـتطع أن يحركني. استطعت أن أرفـع رأسـي، ولكـن سـرعان مـا ارتطمـت

نقرتي بعنف بالأرض. كنتُ أرى ضباباً. خلف الحصان في العربة هناك أحدٌ. بقعة كبيرة. سمعتُ صوتاً. كلمات ممزّقة. مرَّ قرنٌ. شعرتُ بالشمس تدفئ جسمي. سمعتُ أصواتاً أخرى، مختلطة، جاءت تُلاحقني منذ سنواتٍ. بعدها انتفخت البقعة، انفصلت عن العربة وجاءت وغطّت السماء. شعرت بهم يرفعونني بأذرعهم. وقع خطوات على العشب. جسدي في الهواء. غصتُ في جبل من القناني والورق. كان الجبل يتحرّكُ، وأنا معه. إلى الأمام كان الجواد يخبّ. لم أعرف أكثر.

فتحتُ عينيَّ، لا أدري متى. كنتُ تحتَ سقفٍ، على الأرض، مُغَطّى ببطانية. أردتُ أن أستندَ إلى مرفقيَّ فانفجرت نارٌ في رأسي.

كان هناك زنجيٌّ ضخم يُراقبني من على كرسيٍّ كما لو أنّه يُغافلني. كانت يداه متدليتين من ركبتيه. ويدرجُ سيجارة. رأيتُ ذراعين قويتين ووجهاً ظريفاً جدّاً، وجهَ صبيٍ عملاق. أردتُ أن أقولَ شيئاً ولم أستطِع. أدركتُ أنّ مصيري مُتَعلّق بذلك الرجل الذي كان يعتني بي، يوقتني، ولم يكن عليه أن يهديني شيئاً، أدركتُ هذا بشكلٍ مُبهمٍ.

- يمضون مبلبلين —قال الزنجيّ، أو ما شابه ذلك، وحرَّكَ رأسَهُ.

مرّ بلسانِهِ الضخم على ورقة السيجارة، أشعلها وسألني:

-كيف حال هاتين اليدين؟

نظرتُ إليهما. كان قد ضمّدهما لي بالخرق.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي سألني عنه.

بقيتُ هناك أسبوعاً. كـان عـاملاً، عامـلَ معـادن فقـد عملـه في الإضراب الكبير. كان يعيش الآن من القمامة الـتي يجمعُهـا في عربتـه. كان عنده أولاد من بضع نساءٍ وحصانُ جرٍ يسميه بوكابولغاس[24].

في المزرعة المجاورة بقرة. كانوا يعطونني حليباً حلب توّاً.

عندما استطعتُ المشيَ ذهبتُ. لم أقُل وداعاً. هـذا شـيء مـا زلت مديناً به.

[24] قليل من البراغيث. م.

35. تسكعات غانابان

هي تنبثق من مُصطلى نارٍ بيضاءَ وسْطَ السماء. هي دخانٌ أبيضُ يمشي، دخانٌ مشتعل يمشّي فِي الهواء: يأتي نحوِ غانابّان، يقتربُ، من سحابة إلى سحابة يهبطُ معارِجَ السماء، وكلّما أصبح أكثر قرباً، صار أصغرَ، وتجلّى امرأةً.

يرفعها غانابان على راحة كفّه. هي الآن على مستوى شفتيه. هي تُحَيِّيهِ رافعة بأُصَيْبعَيْن يدها التي من نسيج مُخرّم. ليست أطولَ من عودِ ثقابٍ ومغطاة بكاملها بالمجوهرات من تلك التي تصنعها تاتا ديوس[25] في السماء. لها تاجٌ من نجوم ووجهٌ من أملحِ الوجوه، وجهُ قديسةٍ لصّةٍ قليلاً.

اطْلُبْ منّي ما شئتَ، تقولُ له. وغانابان يطلبُ منها خبزاً ونبيذاً. يأكلان معاً. هي تفيض عنها فتاتة صغيرة. النبيذ لا تقبله. لكّه يدعوها بعد ذلك للرقص، وهي دوّامةُ أنوار مُلوّنة تُدغدغه في ذراعه وتضحك معه، وغانابانٍ يدوخُ، سعيداً من كثرة ما دارَ بين السحبِ. أخيراً يسقط جالساً، ميتين من الضحك وهي تستلقي على كتفِ غانابان كما لو أنه سرير أَو مرجٌ، وتغفو ويداها تحت نقرتها. يتأمّلها غانابان لاوياً عنقَهُ. حين تستيقظ يدغدغها بظفر خنصره ويطلبُ منها: تعرّي، من فضلك، تعرّي، هيّا. لكنّها تحمرّ وتُغطي وجهها بمعطفها ثمّ تنزلق نحو أذن غانابان، فيشعر بقدميها المنمنمين ينزلقان على جلده. تتخذ وضعيةً مريحة في أذن غانابان وتكلّمه سرّاً. تعطيه وعداً.

عندئذٍ تقول له بيدها وداعاً، وتصعدُ طائرةً حتى تختفي في المناطق العليا الممنوعة. يلاحقها غانابّان عبر الكون ممتطياً حصاناً خشبياً صغيراً.

في منتصف الرحلة توقظه هزّاتُ بوسكابيدا. يرمش غانابان، يفرك عينيه، يزمجر ويتمطّى. يتلألأ الشاطئ لانهائياً من بين

[25] فرس النبي. م.

ساقي صديقه المفتوحتين. رأسُ بوسكابيدا يسرق منه قطعة من القمر الأصفر.

-لن نبقى طوال الليل هنا، هه؟ -يقول بوسكابيدا-. حانت ساعة أن، انهض، ويحك.

-جميل هنا. — يقول غانابانٍ ويتدحرج جسدُه العملاق على الرمل المثلج. صدره منتفخ سعادةً. ما يزال مستمتعاً بنسيانِهِ الخاطِفِ للجوع والأخطاء.

من الأمواج ترتفع في أعراف عالية أبخرةُ زبدٍ. تحت ضوء القمر في البعيد بطة تعرض سمكة من فضة في منقارها. تنسابُ، ليس بعيداً عن الشاطئ، فوانيسُ الصيادين. يطرق الصيادون قاعَ الزوارق، وهي طريقتهم في استدعاء أسماك الكوربين. خلفَ الصخور ترفعُ العاصفةُ الهيكلَ الأسودَ المفكَّكَ لسفينةٍ غرقت منذ زمن.

يقولُ غانابّان:

-هي ظهرتِ لي بينما كنتُ نائماً. رأيتُها بوضوح وشعرتُ بها. لم يكن حلماً. لم يكن حلماً من تلك الأحلام الرخيصة التي تفيد للرهان على يانصيب كرة القدم. كانت أكثر من هذا بكثير.

ينهضُ غانابان ويبحث عن مريم العذراء في محيط القمر: يتخيّلها هناك، مُبْهرةً، مولودةً كيلا تموت، ترتاح إلى جانب المرأة الأخرى التي مَن حجرٍ باردٍ وستَتَفَكّك مع الزمن مثلنا.

يركع بوسكابيدا عند قدَمَيّ غانابان ويرسم شارةَ الصليب، لكنّه لا يوليه أهمية . يقول:

-هي ستُكلّفني ذات يوم من هذه الأيّام بمهمّة. وفي القرون القادمات سوف تعيدني لأحكم العالم كي أنقذ من يتبقّى من الفقراء.

ينحني بوسكابيدا ويُقلّبُ الرملَ. يريد أن يعثر على البرغي الذي أضاعه غانابان. لكنّ غانابان يتكلّمُ بصوت خشن وقويّ وعينين مفتوحتين جدّاً.

-بين آلافِ آلاف الملايين من الأحياء -يقول- اختارتني أنا بالذات. أنا، العصفور المسكين الذي لا عشّ له. أنا، الذي لم أملك قط مكاناً أسقط فيه ميتاً. أنا وحدي وجاءتني لتمنحني الامتيازَ. جعلتني العين بين الناس. أميراً جعلتني.

يضربُ بوسكابيدا رأسَهُ بقبضته. "إلى متى سأتحمّلُكَ؟"، يهدأ. "إلى متى؟" يتابع غانابان ثابت العزيمة:

-طلبتُ منها ألا تعودَ أبداً. لكن سيّان ستعود. لأنّها رائعة، لأنّني قلتُ لها: لا تأتِي بعد الآن. أنا ليس عندي رغد أقدّمه لها في هذا اليباب.

بينما يخطب غانابان يُمسكُ بوسكابيدا بسرطان بحر حيّ. يقتربُ من خلفِ غانابان على رؤوسَ أصابعه ويرميَ بالسرطان على قبة قميصه. ينطّ غانابان نطّة هائلة.

بوسكابيدا المتلوّي من الضحك لم يرَ الضربة تأتيه. يسقط على مؤخّرته وعلى الفور يسحق غانابان أضلاعه بقدمه. بوسكابيدا يتلوّى عاجزاً على الأرض، يفتح ذراعيه، يطلب العفو. يرفعه

غانابان من رقبته بقبضة ويُدمدمُ كأنّــه يعضّــه. يحــرّك بوســكابيدا ساقيه في الهواء، يصرخُ: أنزلني، أنزلني. يفلته غانابان.

يمسك بوسكابيدا رأسه متباكياً. يئنّ:

- من تظنّ نفسك؟ أبي؟

يجلسُ على صخرة . يمرّ بمنديلٍ على جبينه وعنقه. يُسَرِّحُ شعره وشواربه الخفيفة.

- كنتُ سأقولُ لك إنّك مُملّ، يا غانابان.

يقترب الزنجيُّ. خطر.

- كنتُ سأقول لك إنّك مضجر أكثر من مصِّ المسمار.

يرغي غانابان. على بعد خطوتين منه. يصل.

- لكن ليس من حقّي، يا غانابان. أنــا لا أســتطيع أن أقــول لك شيئاً. الذنب ذنبي. أليس معك سيجارة؟ ليس معك.

يعدّ بوسكابيدا النقود المتبقية معه في جيبه. ويقـذف بهــا في الهواء، ويخلطها في راحة كفّه.

- خمسون، عشرة، عشرون. مئة وثلاثون بسو. أيّ خراء سأكسـب بقولي لك أي شيء إذا كان الذنب ذنبي.. أستطيع أن أشـتمك، تسـتحق ذلك. لكن، ماذا أكسب من ذلك؟ مئة وثلاثون بسو. لا تكفي لشراء قطعة خبز. أنا بحثتُ عنها. أنا عثرتُ عليها.

يجلسُ غانابان إلى جانبه. يضع محارة كبيرة على أذنه ويتكلّم بالهاتف.

-مرحباً، مرحباً. من معي، الدكتور بوسكابيدا؟

يُداعب بوسكابيدا النقود.

-لستُ للتهريج.

تنزلق النقود من بين أصابعه وتسقط على الحجارة:

-هل يمكن أن تُستَوْلَدَ؟ -يسألُ، يشكو بوسكابيدا-. أمضيت حياتي التعيسة وأنا أبحثُ كيف يمكن عمل ذلك. ما الذي فعله لاستيلادِ النقود، يا غانابان؟

يسند غانابان يداً على كتفه:

-ليس إلى هذا الحدّ -يقول.

-آه، لا. يا للأمل. منذ البداية كان هذا واضحاً. منذ الانهيار. منذ ليلة أمس وأنا أشعرُ بسعال سيّئ أصاب القط.

-لم نَخسر شيئاً -يقول غانابان- لستَ أكثر غنى من قبل، صحيح. لكنّك أيضاً لستَ أكثر فقراً.

-أنت لم تخسر شيئاً -يتَّهمُهُ بوسكابيدا- أنت لا. ما أوقحك. لك وجهُ قبر، يا غانابان. من قدّمَ النقود لدفع ثمن جرعات فِلِتشا هذا؟ من باع القيثارة؟ هذا السطو كان سهلاً. أستحق ذلك لأنّني أبله.

-ومـاذا تريـد -يقـول غانابـان-. أنـا لا أجـد نفسـي في الجريمة.

-فيمَ تجدُ نفسك، هذا ما سنراه. لكن، وأنا؟ بأيّ حـقّ أقـولُ لـك إنّك خراء لا نفع منـك، لا حـقّ لـي، يـا غانابـان؟ مـا الفائـدة منّـي؟ لا أعرفُ. أنت أقلّ فائدة من ثدي رجل، لكنّني لست أفضل منك، صَدِّقْ.

-حسن. بعت القيثارة. حسن جدّاً. لكن...

-أيّ حسن؟ أي حسن جدّاً؟ حسن البؤس؟.

-لكن قُلْ لي شيئاً واحداً. تلك القيثـارة الـتي بعتهـا، هـل كانت لك؟

-كيف ستكون لي؟ لم أملكها قط.

-إذن؟

-إذن ماذا؟

-لا أدري، أسأل.

-آه.

يلتفّ بوسكابيدا بذراعيه. يُتـابع غانابـان محاولتَـهُ بتقـديم توضيحات ومواساة. يُدير بوسكابيدا له ظهره.

-لا -يقول غانابان- ليس ذنبك. لو أنّك ذهبتَ إلى المدينـة الكبيرة، كما كنت تُريد، لما كنت الآن الصعلوك الفاشل.

بوسكابيدا الذي مسَّهُ شعاعُ الإهانة ينطّ مثل برغوث، يُرسِلُ غانابان إلى الخراء ويجري. يتوقّف كي يصرخ به: أنـت بطيخـة. يخلع نعليـه ويقذفـه بفـردة منهمـا علـى رأسـه. يرميـه بحجـارةٍ. غانابانٍ يرمشُ؛ لا يقوم بردّ فعل. ودّ لـو يفهـم، كمـا يحـدث لـه أحياناً، لكن لم يفهم.

في هذه الأثناء سمع النباحَ من مسافة قصيرة. يقفز بوسكابيدا على رجل واحدة، يائساً من الألم؛ علق خطّافٌ في أخمص قدمه. ينكمشُ قدم بوسكابيدا مثل حيوان صغير خائف. يمسك بوسكابيدا كاحله بكلتا يديه، يئنُّ، يلفّ قدمَهُ بمنديل. يتخيّل التهاباتٍ مُريعةً ومستقبلاً بساقٍ خشبيّة.

لا يوليه غانابان اهتماماً. يتأمّلُ الخطّافَ، يتحسّسهُ. يمكن أن يُجرب، يُفكّر. لا يخسر شيئاً، حتى لو من دون قصبة.

- سيكون حسناً أن نأخذ سمكاً للأولاد —يقترح—. لن أظهر بيدين فارغتين. في واحدة من تلك المرات ستعلق سمكة بوري. من يقول لك؟

- هكذا، باليد؟ —يسخر بوسكابيدا— هل تعتقد أنّ الأسماكَ مثلك؟ هي في قمّة الحيوية. أنا أمضيتُ سنة في هذا. أفهم قليلاً. بجمع القمامة لن أفهم، لكن بهذا نعم. سنة بكاملها. حتى أنّه خرجت لي حراشف في جسمي.

لا يردّ غانابان عليه ويبتعد ماشياً نحو المصباح، الذي يطفطف بانتظاره. يتبعه بوسكابيدا على قدم واحدة. مكرهاً ومن دون رغبة، يبصقُ حنقاً، لكنّه يتبعه.

يرميان الخيطَ من فوق صخور اللسان البحري، قبالةَ السفينة الغارقة. هيكل السفينة مغلّف بالمحار والطحالب البراقة والملح، يبدو وكأنّه في متناول اليد. من السهل التكهّن بأنّ عارضة القيدوم تحطمت.

غانابان يتحدّث. يأمل أن تعضّ سمكة غافلة لحم السرطان وتشدّ يده ويتحدّث خلال ذلك. يتحدّث عن نساء، هنّ في غاية

الحسن وعن الطقس الذي لا يتركه ينام هادئاً وعاشقاً، سعيداً بامرأة جاهزة، ومتّة غير مستعملة تنتظره على الفطور. بيتانغا: اللعنة كم كانت الحياة قصيرة!

-نساء - يقول - نساء.

يتذكّر، لا، لا يتذكّر. يُغمض عينيه. ينزلق. يستيقظ في سرير فاخر، مريحٍ وكبيرٍ ودافئٍ ومن وسادته يرى أصابع قدميه ترقص هناكَ في الجنوب.

لكنَّ بوسكابيدا لا يريدُ أن يعرفَ شيئاً. فرأسه مليء بالأوراق النقدية الطازجة.

-أيّ نساء وأي هراء -يقول- هنّ يُدوّخهنّ عطرُ النفط. يشعرن برائحة الفقر فيكَ فيخرجن راكضات. كم كنّا سنملك من النقود يا غانابان! مواخير، سيارات، ثياب جديدة، فروج بالفرن...

-خرائي على هذا -يؤكّد غانابان- يجمع الواحد مالاً كثيراً فيأكل الهمبورغر وينسى الأصدقاء.

-ليس عندي أصدقاء -يشكو بوسكابيدا.

- آه، لا؟ -يدلك غانابان قبضتيه، يشدّ الخيط. يُبحر الطعمُ دون جديد. ومن الذي عمل راهباً عندما طالبتك أثوثنا بالمُساكنة؟ هه؟ -يوبّخ- من؟ هل أبلغتُ عنك عندما كنتَ تعطيها مسكنات مكشوطة بدل أقراص منع الحمل كي لا تنجب أولاداً. فكّرْ بها، يا بوسكابيدا. هي أيضاً تُحبُّكَ. إذا وقفت هكذا ما الذي يتبقى لي؟ أنا أنام وحدي. وحدي أنام. محاطاً بالأولاد. لكن وحدي. على الأرض ووحدي، منذ أن هجرتني بيتانغا.

التفكير بتلك الفتاة التي تُدعى بيتانغا بالنسبة لغانابان شيء خطير. التفكير بأثوثِنا كان دائماً بالنسبة لبوسكابيدا قليلاً أو أكثر من اللازم. كان بوسكابيدا يُحبُّ سابقاً البدينات. الآن ما عاد. أثوثِنا أُجريت لها ثلاث عمليات للزائدة. لم يعثروا عليها قط.

-بَهْ – يتبجّح بوسكابيدا– لا أفكّر أن أراها، أبداً. كانت فظّةً حتى في الحبّ.

ذات ساعة قادمة سوف يزحف بوسكابيدا حتى ذلك الباب، وسيطرقه ويصرخ. هو يعرف، يتسوّل قاصداً أن مكان كي ينام. سيحتاج للشفقة: سيطالب بها، كما لو أنّها شيء الألم.

النسمةُ ما عادتْ تهبُّ. الهواءُ رطبٌ لكنّه ساكن، والإحساس بالبرد أقلّ. ينعطفُ الليل، لألاءً فوق الكثبان التي عادةً ما تُقلّبُها الريحُ وتنقلُها. تهوي نجمةٌ، تضيعُ في البحر. كلبٌ ينتظرُ، واقفاً على ساقيه الأماميّتين. كلبٌ آخرُ يقتربُ، نابحاً من بعيدٍ ودون عجلة. يتقابلان، يكشران عن أنيابهما، ، عيونهما حمراء: يحرثان الرملَ بعضلاتهما المنكمشة.

يتأمّلهما بوسكابيدا دون اهتمام. تنحصر قدمُهُ، يقربه من فمه، ينفخ على أصابعه المخدرة. يمط بعدها ساقيه ويدخل يديه في جيبي البنطلون.

-صار عمري ثلاثين عاماً –يقول وهو يهزّ رأسه–. من سأحرثُ؟
-لا تقلْ هذا، يا أخي –يقول غانابان–. أنت ما زلتَ شابّاً. لك مظهر بربريّ. ما زالت أمامك ناس كثيرون تحرثهم.

لا يصيدُ شيئاً. ولا حتى حذاء. السفينة العالقة تقطع، سوداءَ على خلفية سواد السماء. على الشاطئ كلبٌ يعوي. الكلب الآخر المجروح ينهض ويمشي بضع خطوات ثمّ يسقط منهاراً. البحرُ يُحاصر البرَّ. البدرُ يدفع البحر، يُرشِدُ اللصوصَ على أسطح المدينة. من قبورِ المقبرة التي ساء إغلاقها تخرج أضواء شرّيرة. بعيداً جدّاً من هناك يقترب مُهرِّب من الشرمِ، المجدافان ملفوفان بالخيش. صَنعة التمساح. في كوخ من الصفيح ترتعش النارُ الخفيفة تحت القدر المسودّ. أولاد غانابان معتادون على الانتظار. في القدرِ عظام ومعكرونة وقليل من بطاطا طافية.

بغتة يضع بوسكابيدا يده المفتوحة على فم غانابان:

-لا تتكلّم —يقول– اسمع.
-ماذا؟
-من السفينة.
-لا أسمع شيء.
-تأتي أصوات.
يزعقُ نورس فوقهما.
-ماذا ستكون هذه السفينة؟ —يسأل بوسكابيدا.
-وما أدراني. سفينة صيد —يقول غانابان–. سفينة صيد في أعالي البحار.

علقت بين الصخور، معطلة وحديدية، تُظهر السفينة عوارضَها المحطمة المتبقية من ساريتها ومن كرامتها. في داخلها، ماذا في داخلها؟ يصعب تصوّر أنّها قامت بأعمال

بطوليّة ذات مرّة. إلى أين كانت ذاهبة حين خانتها الريح الضارية؟ بوسكابيدا لا يتردّدُ:

- هذه سفينة قراصنة —يقول.
- يمكن ذلك —يقول غانابان-. لا أعرف. الحقيقة: لا أعرفُ.
- لذلك لا أحد يقترب؟
- لا أحد؟
- خطيرة، بسبب الأشباح.

سفينة صيادة، قاتلة ولصة ومقاتل برسم الإيجار. قاتلة البحار السبعة، كانت تبحر ملتوية.

- منذ كم من السنوات.... ليس لها اسم. سنرى...
- هي هناك منذ ما قبل الحرب.
- منذ ما قبل كلّ شيء. ألا ترى أنّها سفينة قديمة جداً. سابقة على المدينة.
- كانوا قد وضعوها تحت المراقبة.
- لا أحد هناك —يقول غانابان.
- سابقاً كانت تحرسها الشرطة - يناقضه بوسكابيدا-. والآن يحرسها الموتى.
- من الثابت أنّ في داخلها كنزاً - يتحمّس غانابان.
- آخر من اقتربَ منها —يُخبرُ بوسكابيدا-ظهرَ مخنوقاً في الفجر. ظهر هناك، هل ترى؟ جاءت به الأمواج. دفنه الرملُ. كشفته الريحُ.

يضحك غانابان مُقهقهاً.

- أتراهن على أنّني أذهب — يصرّ .

يعبر القمرُ الهائلُ والأصفرُ ويقفز من صخرة إلى صخرة حتى صخرة اللسان البحري العالية. يراه بوسكابيدا يفعل ذلك دون أن يتحرّك. يغطي رأسُ غانابان **نجمة صليب الجنوب**. اشتعل وجهُ غانابان من الاعتقاد بأنّ في السفينة ينتظره هذا، هو الذي كثيراً ما ناداه دون أن يصغي إليه قط. الليل يُفيد في محو النهار والليل حيّ.

يناديه بوسكابيدا قائلاً إنّ سمكة هائلة ظهرت. لكنّ غانابان أصمّ، يقفز إلى البحر بثيابه وبكلّ شيء، ويصل إلى الهيكل الغارق. يتسلّقه. يرتعد، ينتفض. يُطلُّ. ما عاد يُلاحقُ الإلهةَ التي تشربُ، بحسبِ ما يقولون، دموعَ من ساءت معاملتهم وتحرفُ الآلامَ والرصاص. الحظّ الآن يكادُ يُلمَسُ باليدِ. الحظّ ولا شكّ أسيرُ بين أضلاع السفينة، التي تُطلُّ مثلَ هيكل حوت عبر الكساء الخشبي نصف المتفسخ. الآن الحظ السعيد الَذي سبق قوله هو الذي يطلبُ: أنقذني، يا غانابان، فأنا لك.

يصعدُ غانابان إلى ما بقي مِمّا كان الجسر، ومن هناك ينادي بصوتِ قبطانٍ ضخمٍ صديقَهُ. يمشي بحذرٍ على الألواح المتكسرة. يُحاولُ أن يتسلّق الساريةَ الكبيرة المكسورةً من منتصفها. ينزلقُ فيلقى صدمة عنيفة. تطرقُهُ دعامةٌ على وجهه. يُتابع سبرَ العالم الجديدِ دون أن يُعيرَ الألمَ الذي يعاني منه جبينه اهتماماً.

فُكّكت السفينة بلا رحمة. مثل جثّة اقتلعوا منها كلّ شيء بدءاً من الأسنان الذهبية وحتى العظام لصناعة الجيلي. بقيت

بكرة، بلا حبل ولا مِقبض وبضعة ألواح خشبية وحديدية مغطاة بالصدأ والعفن.

يسمع غانابان صوت بوسكابيدا. يُناديه واقفاً على صخرة.

-تعال! -يصيح له غانابان-. هذه ليست سفينة! إنّه بيت! أنا أشرب الروم! سأبقى لأنام هنا!

يبربطُ بوسكابيدا في البحر. يمد له غانابان يداً ويصعدُ به إلى السطح. يظهرِ بوسكابيدا وقد حَوَلَهُ البردُ والخوفُ، ترتعد عظامُهُ. ثيابه التي شفت من كثرةِ البلل تضغطُ على جسمه.

رأسه دوّامة، يدور، لكنّ جسده المتجمِّد لا يتحرَّك.

-أين الزجاجة؟ يسأل رافعاً بشقّ النفسّ قليلاً يدَهُ البنفسجية.

صوته يرتجف أيضاً.

يُشير غانابان إلى غطاء فتحة ملتصقة بالأرضية تعلوها طبقاتٌ من الصدأ قاسية.

-هناك في الداخل يوجد كثيرٍ. رومٍ، ويسكي، كانيا، نبيذ. يوجد أيضاً جين. كان القبطان سكّيراً كبيراً.

يقترب بوسكابيدا عارجاً. ينزلق فجأة فترفعه سجادةُ الطحالب في الهواء وتقذف به إلى المؤخرة وتفجره على سلم حديديّ مُفَكّك. ينادي بوسكابيدا أمّه؛ دموعُهُ تُبَلِّلُ صراخَه. سرطان يتسلق القدم المضمّدة.

ينهض قليلاً، متعلقاً بساق غانابان. يمخط. من المنديل تقطرُ ليتراتٌ من ماء البحر.

هو الآن أكثر هدوءاً. يأخذه غانابان من ذراعهِ. يعودان على أعقابهما نحو القيدوم.

-أما من أحد، يا رجل! —يسألُ بوسكابيدا—. أكيد؟ ألم تسمع أصوات سلاسل؟

يُشير غانابان إلى الفتحة:

-من هنا الذهاب إلى حجرة القبطان —يُخبره.
-من هنا الذهاب إلى المقبرة —يقول بوسكابيدا.

ينحني غانابان فوق غطاء الفتحة، لكنّ بوسكابيدا ينقر بسبابته على ظهره:

-لا، لا، دعني، دعني أنا —يقول، خبيراً ومستعيداً نفسه. يدلك عضلاته، ويشمّر كمَّي قميصه المبلل.
-اتركه لصديقك، فهو يعرف —يقول.

يشرعُ بوسكابيدا بالعمل.

-إنّه ملحوم —يقول.
-ائتني بمفتاح إنكليزي — يأمر.

يلقي غانابان نظرةً حوله ويهزّ كتفيه:

- لا يوجد.
- حسن. لا يهم. ائتني بمطرقة.
- أيضاً لا يوجد.
- إذن -يَخْلُصُ بوسكابيدا- لا يمكن.

يزيحه غانابان جانباً ويرفس الغطاء بكثير من الغضب الذي يهزّ السفينة كلّها. يُدخل بعدها أصابعه في الحلَقة ويشدّ بقوة. تُسمع طقطقة كطقطقة ضرس يُقتلع من عملاق. تنفتحُ الفتحة ويسقط غانابان جالساً ويضحكُ، ضاجّاً ومنتصراً ورافعاً الغطاء بيد.

يُفضِّلُ غانابان ألا ينظر إلى بوسكابيدا كيلا يسبب له إهانةً، لكن بوسكابيدا يستبقه ويقول:

- ما حدث هو أنّ صديقك لم يبذل أيَّ جهدٍ. هذا ما يحدث.

يدخل بوسكابيدا في الفتحة:

- أنا أوّلاً -يقول- أنا أدخل أوّلاً لأنّني لا أخاف.

لكن في الأسفل لا يُرى شيء، ويتعلّق بوسكابيدا مثلَ قرادة بذراع غانابان.

- اعطني كبريتاً.
- إنّه مُبلّل.
- ومصباح يدوي؟ -يسأل بوسكابيدا-. ألم تأت بالمصباح اليدوي؟

يتحدّثُ بوسكابيدا عن أهمّية المصباح في هذه الظروف والقرف الذي يُسبِّبه له الجبناء والاحتقار الذي شعر به تجاه الناس الضخمين الذين ما يزالون يُؤمنون بالأشباح والأرواح، يتكلّمُ دون توقّف، متعثراً بالكلمات بخببٍ يُكَوِّمُ همهمة وزعيقاً. بينما غانابان يتلمّسُ في الظلمة دون أن يجد شيئاً. بوسكابيدا لا يفلتُ ذراعَهُ، المتشبث به بكلتا يديه، وإن كان يحتاج على الأقل يداً واحدةً مرتعشة كي يستطيع كي يرسم الصليبَ.

-ألا تريد أن تسكت؟ -يُطالبه غانابان-. لا تتركني أفكّر.

يتمتم بوسكابيدا في سرّه أبانا الذي...ما يتذكره منها، بينما من أسفل بطنه يخرج قرقُ دجاجة. انعقدت أمعاؤه. يتحرّك غانابان. لا يبقى أمام بوسكابيدا غير أن يُشعل قميصه ويتبعه. ترى هل يستطيعُ الزنوج أن يروا كالقطط في الظلمة. لا يتشجّع على سؤاله. بالمقابل يتوسّلُ:

-انتظرني، يا غانابان. تمهّل.
-بي بردٌ. أنا دائماً كنتُ صديقاً لك، يا غانابان.

يتابع غانابان سيرَهُ بالتلمس ولا يعثر على كوة الإضاءة. كما لم يعثر على التلسكوب ولا البوصلة ولا المنظار ولا الغليون ولا مصباح علاء الدين المليء بزيت الحوت.

-يؤلمني كرشي، يا غانابان.

لا تظهر خطافات ولا حلقات ولا خناجر ولا صناديق مليئة بالنقود ولا بالياقوت ولا أرجل خشبية ولا لصاقات.

-أين الحمّام، يا غانابان؟

هناك سقف مُضعضع على وشك السقوط وأرضية فيها ثقوب ربّما تؤدّي إلى قاع البحر مباشرة. ابتلعت الظلمة الحظّ الحسن.

فجأة يُطلق بوسكابيدا صرخة حادّة، عواءً يخترقُ الحجرةَ ويُمـزّقُ الليـلَ ويوقظُ الأسماكَ والمواطنين. ينتفض غانابان ، يهزّ بوسكابيدا من كتفيه.

-ماذا؟ ماذا بك؟

الكلمات العالقة في نقرتهِ تتأخّر في الوصـول إلى فمـه. يـدفع بوسكابيدا مرتعشاً يدَ غانابان. تلمس اليدُ جِلداً بارداً.

-لكن، قلْ لي، ما بك؟ هل تريد أن تقول لي؟
-هيكل عظميّ!
- بلى —يقول غانابان، سئماً وهادئاً—. لكن لا تخف هو صديق.

غانابــان يتثبّــت في الظلمــة المطبقــة ويــتلمّس الســطح القاسي والخشن.

-ألا تجد إنّه بدينٌ قليلاً كي يكون هيكلاً عظمياً؟ —يسـأل. في حجرة القبطان الحرّ خانق. يُسْتَنْشَقُ هواءُ ميتٌ.
-ساعدني في الدفع —يأمر غانابان— ودعك من الحماقات.

إنّه صندوق هائل. يعالجان غطاءه. يبدو الصندوقُ فارغاً.

يغـوص غانابـان بذراعـه فيـه. يبقـى معلقـاً ورجـلاه في الهواء ويسقط في داخله. يصرخُ مـن عمـق الصـندوق: هـدف:

هناك تنامُ بعضُ القناني حلْمَها الأبديَّ بعضها فوق بعض في صف. يخرج غانابان ويُعانق بوسكابيدا. يحتفل بوسكابيدا باللقيا بضحكة عصبية.

-إنّه نبيذ –يؤكّد بوسكابيدا–. فرنسي. معتّق. ممتاز.
-آه، صحيح؟ وأنت كيف عرفت؟
-صديقك يعرف، جرّة. صديقك يمرّ بإصبعه ويعرف.

يعبران الظلمةَ بأذرع محملة بالغنائم ويتسلقان السلمَ ويصلان إلى السطح.

في الخارج، ينتهي الليل. يملأ غانابان رئتيه بالهواء المُنعِش.

يُداعب غانابان الزجاجةَ، يُهدهدها بين ذراعيه. يقول لها: "أنتِ لي، حبيبتي،، صغيرتي الحلوة". يريد أن يغمز بوسكابيدا غمزة تواطؤ. لكنّها لا تخرج معه. سنوات وهو يمارس الغمزَ، منذ نعومة أظفاره، وما زالت تغمض عيناه معاً مهما عمل من جهدٍ مقطباً أنفه ولاوياً فمه.

يغرز بوسكابيدا سبابته في علامة القنينة . يُشير إلى الجمجمة والعظمين المتصالبين على الأرضية السوداء ويوضح:

-مُعتاد على هذا جدّاً. تمعّن. نبيذ خاص بالقراصنة. يجب أن يكون من جزيرة تورتوغا.

يُحاول غانابان أن يُهجي الأحرف الغامضَةَ المطبوعة بحبر قرمزيّ وزخرفة عربية قديمة الحروف.

-هذا اسم مخمرة عرفت كيف تكون مشهورة في زمانها —يوضّح بوسكابيدا. كان يملكها الفرنسيون في أزمنة بحر الكاريبي القديمة.

كلمة **خطر**! تعبر العلامة، في الأسفل تستقرّ كلمة سمّ، لا يعثرُ بوسكابيدا على سنةِ الموسم.

-من النظرة البسيطة أستطيع أن أؤكّد لك أنّها من حوالي عام 1800. لا تتجاوزه. فعلاً معتّق.

يلحس غانابان شفتيه. لا توجدُ فتّاحة .

- لا يمكن الانتظار حين يكثر الإغواء. يفصل غانابان ذراعه كي يكسر عنق الزجاجة على صندوق السفينة حين ينتبه إلى أنّ الصندوقَ يتحرّك. في الوقتِ ذاته يرى أنّ بوسكابيدا يلتفت ويدور جاحظ العينين. يشعر غانابان بأنّ الأرضية تغور وتتقوّس بنعومة تحت قدميه ويُفكّرُ: هذا فعلاً شيء غريب، يدوخ الواحدُ قبل أن يذوق النبيذ.

يمتقع لون بوسكابيدا غضباً وهذه المرّة لا ينقصه حقّ. تنتفخُ الأمواجُ، وتقتربُ وتستعد لأنّ تنطلق للهجوم الأخير.. يلتوي السطحُ ويبدأ يختفي قطعاً والهيكلُ بكامله يتحطم ويتفكّك باحثاً عن الأعماق، بْلَبْ، بلَبْ، بْلَبْ، وببطء يبتلعهُ البحرُ. أمسك البحرُ بهذه الجثّةِ التي كانت قد نُسيت نصف مأكولة، يفتّتها الآن كما لو أنّه يأخذ بثأر قديم، ويبتلع شظاياها دونما استعجال. كلّ شيء يطقطق. يعودُ غانابان فجأة إلى الواقع. يتردّد. يتساءل، ما الذي يمكن أن يكون قد حدث، ولماذا اليوم بالذات، بعد كلّ تلك السنين أو القرون، لكنّ الماء ينزل ويرفعه من ربلتيه فيفقد توازنه ويتشبّثُ بأيّ شيء.

يغوص بوسكابيدا بزجاجة في كلّ يد.

-لينجُ من يستطِع ! — يصرخُ.

سرعان ما تختطفه الدوامة. يُحرك ذراعيه، يرفس: لا جدوى. لا يكاد يرى، الرأس يضيع في الزبد. يرمي غانابان بنفسه إلى البحر. بُحيرة تقفز من فمِ الضحيّة، تعود الحياةُ وتتدخّلُ نافخةً قليلاً في الجسد المسكين. وينبثق من الفم من بين آخر دفقات الماء خيطٌ من صوت: يسأل بوسكابيدا عن زجاجتي النبيذ.

يلهث غانابان منهكاً. يتمدّد على الرملِ ينظر نحو السفينة الشبح، يبحث عنها خلف الصخور. لا شيَء هناك. ولا حتى دخان صغير. يفركُ عينيه. يقرص ذراعاً. لا شيء. البحر يروح ويغدو، بلا رحمة، أخرسَ.

- أين حشرنا نفسينا يا بوسكابيدا. —يسأل غانابان—. ماذا كان هذا؟

صوت من وراء القبر يهمس واهناً:

-هم أغرقوها. هم أغرقوها.
-هم؟ من هم؟

الشاطئ بالنسبة لبوسكابيدا سرير احتضار هائل. يهمس:

-غضبوا.
-من همْ الذين غضبوا؟

يُتمتم:

- ذهبنا لنزعجهم، فغضبوا.
- طعناهم في صبرهم فغضبوا. الآن رحلوا إلى الأعماق التي لا يُسبَرُ غورُها.

يشعر غاناابان بأنّ أنفه يشتعل، وقد عضّه القزم اللعين في مشاجرةِ **فاسقة باريس**. كان قد نسيَ المسألة كلّها. يلمس انتفاخَ جبينه: هذا هو الشيء الوحيد الذي تبقى له من مغامرة السفينة العبثية.

- لا نُوَفَّق في شيء —يقول.

بلى دائماً. نتلقى الصفعات من أجل لا شيء. جسد حزين. يودّ غاناابان لو يغفر لنفسه ولا يُفكِّر.

كبريت وفوسفور في الأفق. قريباً ستشقّ الشمسُ طريقَها وستكبر وتسطو على السماء.

- تعال نُجفف ثيابنا —يقترح غاناابان.

يخلع ملابسَهُ خلفَ الصخور. وبوسكابيدا لا يتحرَّكُ من مكانه.

- إنّها تُشرقُ —يُعَلّقُ غاناابان، من بعيد، بينما هو يبول مطأطئاً—. علينا أَن نعود.
- نعود، إلى أين؟ إلى أين، هل يمكن أن أعرف؟

رقّ صوتُهُ أكثر، تخرج منه الكلمات مثل صفير مخنوق.

- أنا، فاشل -يقول- أنا، مفزور. لو كان عندك ثياب جيدة، لرجمتك بالحجارة، ولسرقتك كلّ شيء لو أنّ الأمر يستحق. لكن من أجل هذه الخرق!

يعطس. يسعل.

-بسببك، يا غانابان —يتهمه- بسببك زُكِمتُ.

يشدّ على بطنه.

-أريد أن أتقيّأ وكرشي فارغ.

يفرك خدَّهُ المتورّم، ويتباكى:

-بسببك، عاد لي ألم الأضراس.

يبتدع قوّة كي يزعق:

-هل تريد أن تعرفَ بماذا تُفيد؟ بالحظّ السيّئ! بهذا تفيد! بهذا، يا غانابان!

نشر غانابان بنطلونه على الصخرة. القميص يخفق، مثبتاً بفردتي الحذاء. هي ذا هناك كلّ أملاكه، تنتظر أن يصلها حرّ الهواء. غانابان عارٍ، يجلسُ القرفصاءَ بين الحجارة العالية. يتصوّر بوسكابيدا على بعدٍ أمتار منه، خلفه، وقد صار صوصاً مبلّلاً ونصفَ ميتٍ، صديق الأحداث الكثيرة والمحزنة، ويقول:

-سنبقى نغضب سويةً، يا بوسكابيدا.

وبعد هنيهة يُصرّ:

- سنستمرّ. وإن كانت المأثرة لا تستحق المعاناة.

ويقولُ أشياءَ كثيرةً من جحره بين الصخور. لكنَّ بوسكابيدا لا يردُّ.

حين ينهض غاناباان أخيراً وينظر يكتشف أنّه ما من أحد على الرمل المثلِج.

36. العودة

أمضيتُ في المدينة ليلةً ونهـاراً وحـالفني الحـظُّ. كـلّ شـيء سُوّيَ. زورقُ مهربين كان سينقلني إلى الضفّة الأخرى.

هربتُ لأمشي وكيسٌ على ظهري.

كان عليّ أن أعبرَ برّية واسعة كـي أصـل إلى النهـر. شـريد البراري، صعلوك، حارس طيور، مَشّـاء: كنـتُ أضـحكُ وحـدي. كنتُ واهناً ومتعباً جداً، لكنّني كنـتُ أشـعر طـوالَ الوقـت بـأنّني مجنونُ الرغبةِ بالجري والتمرّغ بالعشبِ مثل مهـر. لـن أنـدم بعـد الآن على أنّني حيّ، لقد أزحت الموتَ عنّي إلى الأبد.

كنـتُ أحـاول أن أتَعَـرَّفَ علـى العصـافير مـن طريقتهـا في الطـيران والزقزقـة. هكـذا كنـتُ أتسـلى وأشـعرُ بنفسـي مُرافقَـاً. أردتُ أن أكتشـف التشينغولو والبنتِبيو المبقع والأرملـة البيضـاء. الكلنـدريا[26] لم أكـن أثـق بهـا، لأنّني كنتُ أعـرف أنّهـا كانـت تُقلّد كـلّ شـيء. كـان التـوردو أخـرس في أوج حركته. كان تمييز الأصوات المخنوقة أسهل شـيء، غلـوب، غلـوب، غلـوب، كما في حويصلاتِ حمائمِ الجبل التي كانت تختبئ عند هبوط المساء.

كنـتُ أسـتلقي في الحفـر لأسـتريح، وحـين لا أسـتطيع، كنـتُ وأنـا أقضم أعشاباً عجيبة أتذكر فيبرّو كـثيراً. فأنـا مـدين لـه بفضـولي واحترامـي لأزيـز الحـور الفضـيّ الطلـق وأصـوات الضـفادع وقـوة نبتـة مفتـاح السـرايا والشلوة. كلّ حشرة ضوئية تُوَقِّعُ اسمَها في الهواء بحبر أزرق، وتجب معرفـة قراءته. كنتُ أُفكِّرُ بفيبرّو وهو يُعلمني هذه الأشياء. أفكِّر به وأُفكِّرُ بـأنّ المـرء لا يستطيع أن يستعيد ما انتزعوه منه، ولا أن يعيد الحياة لأحدٍ، لكـن علـى الأقل على المرء أن يُحاول أن يُرتِّبَ حساباته، وكنتُ أفكـر بحنـق بآلـة فـرم اللحم البشريّ وبالذين يريدون أن يُحوّلوا أرضنا إلى مفسَدة.

كنتُ أشعرُ بالحاجـة إلى أن أسمّـي كـلّ الأشـياء، كـيلا أفقـد أيّـاً منها. كانت الحشرات والنباتات كانت تُعيدُ إلـيّ الأسمـاءَ الـتي نسـيتُها

---

[26] أسماء طيور محلية. م.

والتي كانت ستُرافقني مدى الحياة. كنتُ أرى خطوط النهار فأملأُ رئتيّ بعبق أزهار الجبل، ولم أكُ قطّ بمثل تلك الثقة بحرّيتي وبأنّني غير مملوك، وبأنّني أحبّ هذه الأرض التي شكّلتني وأنا اخترتُها كي أعيش وأموت فيها. كنتُ أرى نقّار الزهر يعمل في الألوان ونقّارَ الخشب يعملُ في الجذوع فيضطرب صدري، لأنّني كنتُ قِطعةً من شيءٍ آخر أكبرَ بل وأفضل منّي بكثير. كنتُ أقول بصوتٍ عالٍ: أذهب لأعود. وعند العودة كنتُ سأبدأ الرحلة النهائية الحقيقيّة بالنسبة إليّ.

كنتُ أُفكِّرُ بالناس الذين بقوا خلفي. ليس بفييرّو فقط. كنتُ أُفكّر برفاق السجن، وخاصة بواحدٍ فُرم وحين استطاعَ أن يرى الزوجة، بعد سنة. دعاها لتناول التراب. كنتُ أُفكّر برفاق الصحيفة، بالقليلين الباقين أحياء، الذين لم يكونوا بعيدين ولا سجناء. وكنتُ أتصوّرهم يجتمعون كي يسكروا على ذكرايَ وسعداء لوجود ذريعة. كنتُ أُفكّرُ بأصدقاء السنوات الكثيرة. غوريون كنتُ أراه على الشاطئ بجانب النار المطفأة، واقفاً ويداه في جيبيه ينظرُ إلى سفينةٍ تمرّ وتضيع. الرونكو[27] كنتُ أتصوّره كما رأيته في آخر مرّة: أمام مرآة محطمةٍ ومسدسٌ يشدّ عليه في قبضته، متردداً، يرشحُ عرقاً، يائساً ووحيداً تماماً بسبب الأذية التي لم تكن لتندملَ أبداً في أعماق روحه.

وكنتُ أفكّر بكِ، يا كلارا. أراكِ ناسيةً لي. كنتُ أريدُ أن أمحوكِ وأن تستطيعي محوي. لم أكن أريدك أن تنتظريني. ثمّ إنّ الحرّية كانت تكفي كي يكون المرء سعيداً. ماهو أكثر من ذلك، يصير تمادياً. كنتُ قد أضعتُك، لكنّ هذا لم يكن يؤلمني. إذا ما أصابوني ذات مرّة برصاصة في نقرتي، فلن يبقى أحد، وثقب كبير أكثر من اللازم في صدره، وهذا ما كان يجعلني حرّاً. لكنّني

[27] الأجشّ. م.

كنتُ أتذكّرك عندما كنتِ تقولين لي: "سيكون هناك وقت للحزن. سنوات كي نحزن. وكلّ الموت، الطويل والطويل جداً. الآن لا. ليس من حقّنا". وكنتُ أتذكّرك حين كنتُ تكسرين آلة الزمن ونتبادل الحبَّ دائماً.

فكّرتُ كثيراً بك، وأنا سجين. بالأعالي التي صعدناها معاً وبالضربات التي حلّت بنا وفي كلّ ذلك الجمال، وفي ثمن الألم الذي يُدفَع. كثيراً ما تصرّفتُ مثل صبيّ نزوي. في السجن كنتُ أحاصر نفسي بسبب الحماقات التي ارتكبتها أو قلتها، حين كانت تنشبُ الأشباحُ مخالبَ بهائم شريرة في داخلي.

اضطُررتُ لأن أقضي وقتاً طويلاً كي أعرف أنّ باستطاعتي أن أشتاقَ بهذه الطريقة من الحبّ، طريقة الصبيّ الصغير، دون أيّ تلاعب. تحاببنا كما يمكن أن يكون الحبّ في أوّل أو آخر مرّةٍ، مرآة السماء كانت الجحيم، وهذا ما كان يجعل الواحدَ منّا نموذجاً مضحكاً كفايةً. لكن بعدها، ومع الزمن، عندما أصبحتُ أعيشُ على الجانبِ الآخر من النهر، عرفتُ أنّني فقدت هذه القدرةَ، وأنّني كنتُ بحاجة إليها، أتذكرين، يا كلارا؟ الأسئلة الاتهامية، شتيمة انعدام الثقة، جنون الغيرة على الماضي والمستقبل. أتذكرين؟. كلّ ترّهة كانت تقلب أمعائي. وعندها، كما أقولُ لك، وصل بي الأمر أنّني صرتُ أشتاق إلى تلك الخناجر اللطيفة. وأردتُك أن تعرفي أنّها آلمتني أنا أكثر.

وكتبتُ لك. لم أكتب أيّ شيء من هذا. كتبتُ لك أيّ شيء ولم تُجيبيني. حاولت أن أتدرّج في الاعتياد على الصمت. كنتُ أشعرُ بالخجل ولا أشعر بأي افتخار باكتساب هذه الاستقلالية غير المُجدية، بقوّة نكراني لكلّ ما كنتِ تمنحينه لي. فقد حولته إلى خراء. كنتُ قد نجحتُ. أنا، المتخصّص في التدمير، أنا، عدوّ نفسي.

لكنّني لم أكن أفكّر بهذه الطريقة حين كنت ذاهباً. جاء هذا لاحقاً. كنتُ ذاهباً وأتذكّرك كما لو أنّني أقول لك وداعاً أو أشكركِ. كنتُ أتحاشى الطرق العامّة وأصفر بقوةٍ وسْط البرّية فرحاً لأنّني مررتُ بكلٍّ ما مررتُ به وبقي لي أثر.

كنتُ أسير بتؤدة. تؤلمني ساقي العرجاء، وكانت قليلة الطاقةُ التي في جسمي. صرتُ سلكاً من كثرة النحول.

في صباح اليوم الثالث وقعتُ على ضيعة مهجورة. كنتُ أعرف أنّ عليّ أن أتفادى البيوت والناس، لكن الشيء الوحيد الذي كان قد بقي هناك هي رائحة الزرائب الفارغة وشارع ترابيّ وكان الغبار طافياً فوق هياكل البيوت والشمس الملتهبة، ولا أحد.

بحثتُ عن سقفٍ، عن ظلٍّ كي أستلقي تحته. جلستُ. تركتُ الكيسَ جانباً. أسندتُ ظهري وأغمضتُ عينيّ.

في هذه الأثناء سمعت صوتاً مُشلّلاً قال:

- الفتى مرهق.

التفت ورأيته. كان عجوزاً ويشرب المتّة وحده، واقفاً في باب شيء كان ذات يوم مخزنَ الضيعة.

مرّ سربٌ من دويبات أبي مقصّ، والعجوز قال إنّها قادمة من فنزويلا.. قال إنّ عنده ابناً في فنزويلا، لكن الابن لم يكن يعود في الصيف، لم يكن يعود أبداً. كان عنده ابن آخر في أستراليا.

كان العجوز يعتمر قبّعةً ويرتدي طقماً أقدمَ منه، سترته متصالبة، طياتها عريضة جدّاً مثل سترات الزواج قديماً، وقرنفلة هوائية معلقة إلى العروة.

كان عيد ميلاده. والعجوز يكمل لا أدري كم من السنين في ذلك اليوم، وكان وحيداً. مع كلبه، لكنّ الكلب كان قد نسيَ النباحَ لأنّه لم يكن هناك من ينبح عليه. كان العجوز قد موّهه، أي الكلب. وضع له قبّعة وفستاناً مزركشاً يجرجره المسكين ولا يتركه يحكّ البراغيثَ بسلام. كانت الخنازير والدجاجات تدخل وتخرج من البيت. وكان هناك بقرة حلوب في العمق. أكلتُ مع العجوز أشياء صنعها بيده: خبز ساخن ونقانق الأرزّ بالدم، نقانق وجبن. شربنا النخبَ نبيذاً منزلياً أحمر وقوياً. سألني لماذا كنتُ بمثل ذلك النحول. قلتُ له إنّني قادم من مكان على الناس أن يفتتوا الخبز كي يأكلوه، يجمعون نثراتُ اللب عن الأرض نثرةً نثرة، والبرد يقص العظمَ. قال لي هكذا هي الأشياء في الخارج وهو لذلك ما من أحد سيُحرّكه من أرضه.

أعطاني سريره لأنام. عندما استيقظتُ كان ينتظرني وبعض الأوراق في يده. كانت رسالة من ابنه، طويلة من ست وريقات، كتب منذ زمن بعيد جدّاً. قبل خمس سنوات كتب الابن تلك الرسالة، لكنّ العجوز طلب مني أن أقرأها له.

-لا، لا. بصوتٍ عالٍ —قال لي.

كانت الرسالة تحكي أشياء من عوالم أخرى. تتكلّمُ عن الألم الذي يُسببه الشعورُ بالغربة والمشيُ في العراء وحيداً، دون أن يكون عنده من يقول له ذلك، ولا من يعرف الكلمات.

سرعان ما ضجرت فقفزت فوق بعض الفقرات. قاطعني العجوز:

-هناك شيء ناقص — قال لي.

كان يعرفها عن ظهر قلب. أصغى إليها حتى النهاية، كما لو في قدّاس، بعينين مغمضتين، هازّاً رأسه كي يُعطيه الحقّ. لكنّه قال:

- كنتُ قد حذّرته. وكان يقول لي: تفيض عني رجولتي.. وها أنت ترى.

أسند أنفه إلى رأسِ إبهامه، ورفرف يده:

-هكذا يطير الأولاد، ألا ترى؟ - قال.

كنتُ أنا والكلب ننظرُ إليه. قال إنّ أكثر ما يزعجه الآنَ والولدان ضائعان هناك هو أن يُفكر أنّ عليهما أن يكذبا عليه كثيراً كي يستطيع أن يبقى على قيد الحياة.

-يكذب الإنسان مرتاحَ البال[28] كي يغفر الله —وضّح لي.

وتابع كلامه وأنا أشعر بالحاجة لأن أنفجر، مصارعاً الامتنان والحزن. قمتُ بحركة من سينهض فأجلسني بالإكراه:

-لا، لا. أنت لن تتحرّك من هنا. نحن نحتفل.

منذ متى لم يتكلّم مع أحد؟ كان قد بقي في الضيعة، مقبوراً حيّاً، شاهداً على مرورِ الفصول وعارفاً بأنه لن تظهر بعد الآن هناك قطارات ولا فرسان.

-هناك حاجة لكثير من الحرارة — قال - كي يخرج العصفور من البيضة. كثيراً من العش، كثيراً من الريش يحتاج.

---

[28] بالأصل ورجلاً فوق رجل. م.

عمل لي متة من نبتة ريش العروس، كي يشفيني كما قال. قال إنّه سمعني أتأوّه وأنا نائم.

كنتُ أسمعه وأنظر إليه، وكان من السهل عليّ أن أذهب و: وداعاً. لكنّني بقيتُ. كنتُ أفكّر بأرضنا التي فقدت براءتها وعوقبت وضُربت بالعصي والسياط، أُفرغَت وربّما اغتيلت. كنتُ أفكّر بالمغلولين والمنفيين، بالسجين الذي شنقَ نفسه وبالفتية الذين لا يُحصون وذهبوا. مرّات كثيرة اعتقدنا أنّ أرضَنا ماتت، حتى أنّنا شككنا، يا كلارا، مرّات كثيرة بما إذا كانت قد وُجدت ذات مرّة. أليس صحيحاً، يا كلارا؟ ندور، وماذا وراءنا؟ ثقب؟ هل تذكرين ذلك الذي كنّا نقوله دائماً؟ نحن لا ننحدر من الأزتيكيين ولا من الإنكيين ولا من المايايين: نحن ننحدر من السفن. هل تذكرين؟ هل كان هذا مزحة؟ وأمامنا ماذا يوجد؟ ثقب آخر أكبر؟ مبقرة، أرض يباب فارغة من البشر وفيها شاطئ للسيّاح؟ سوق نخاسة في عرض خاص؟ مصدر للحم بشري للبيع لبلدان تتكلم لغاتٍ أخرى وتشعر بطريقة أخرى؟ هل هذا ولا شيء غير هذا؟ قبر للسجناء، سجن للموتى؟ هل هذا؟ هل هذا والذاكرة المكلومة؟ لكن ما الذي يبقى من الواحد إذن. أما من أرض تحفظ لنا الأثر؟

في صباح اليوم التالي ودّعتُ العجوز. أهداني زوجاً من الأحذية. رأيته من بعيد يُلوح بمنديل كبير في يده والكلب بجانبه. تابعتُ طريقي وكلّ الوقت كنتُ أعارك تلك الأسئلة في رأسي. كنت من يتكلّم ومن يُجيب: وحسناً، ماذا؟ وإن كان يؤلمنا كثيراً وإن كان لا يدعنا ننام، وإن كان يسحق صدورنا. نحن أحرار بأن نخترع أنفسنا لأنفسنا. القدرُ فضاء مفتوح وللمئه كما يجب علينا أن نقاتل بكلّ قوة ضدّ عالم الموت السكوني والطاعةِ والمحرماتِ العاهرة. كنّتُ أفكّر: ويحكَ، سنصفي حسابنا معهم. ويحك.

كنتُ أشقّ طريقي بين الأعشاب وأشعرُ بأنّ أرضنا المسكينة تناديني وتأخذُ بيدي وتساعدني على الاستمرار بالسير، لأنّني كنتُ ابنها وتقول لي: لن تخسرَ الفرح، أَقْسِمْ لي بذلك، أَقْسِمْ أنّك لن تضيع السعادةَ أبداً، وأنا كنتُ أشعرُ بألم عضلات ساقيّ وأعصابِ قدميّ المكسورين للأبد وأُفكِّرُ: من ترابٍ مثل هذا لا بدّ أنّهم صنعوا آدمَ، وهذه الشمس لا بد أنها كانت الشمس القادرة على إنضاج الثمرة الممنوعة، وأفكّر: ويحك، وأفكّر: هذا يستحقّ المعاناة.

وصلتُ إلى النهر بعد يومين. عبر بي مُهَرّبٌ. كانوا يسمونه كينثِتيروس[29]. كان سفرنا ليلاً ولم يكن سهلاً. كبر المدّ واضطرب النهرُ. وعند الفجر كنّا على الطرف الآخر. كينثِنيروس لم ينزل من الزورق، أردتُ أن أدفع له فضحك وذهب.

---

[29] خمس عشرة طلقة. م.

37. تسكعات غانابان

شمسُ الصباحِ تُنَقّي الهواء، تـنير نباتـات الحديقـة، تغسـل بنـورٍ ذهبي جدرانَ المنازل. هنا يعيشُ الذين يحكمون وهم في منجاة، مسوّرين، محميين، دافئين: مايزالون نياماً. إذا ما رُفعت الستائرُ فجـأةً ، سـيطلون

على البحر من فوق الأسطح الحمراء، سيرون قارباً يمخرُ والنهارُ يكبر ويتأكدون من أنّ كل شيء ما يزال في نظام، تماماً مثل الأمس والغد: لن يسمعوا أيّ انفجار، لا شيء غير صوت الموج، الذي هو نفسه دائماً، وفي القريب، طنين ذبابة زرقاءَ تطير.

في الطريق يمشي رجل كان قد ضاع. يهزّ عصاه بيدٍ وفي الأخرى رزمةُ من أوراق اليانصيب. الأعمى ينادي بصلاته النشاز في الشوارع الخالية.

- من يريد الحظّ؟ -يسألُ الأعمى.

- من يريد أن يصير سعيداً؟ -يعرض.

- من يريد؟

يرفع أوراق اليانصيب، يقرأ رقماً، نهايةَ رقمٍ، ينادي: الجائزة الكبرى اليوم، خمسة عشر مليوناً.

- من يريد أن يشتري القمر؟

- من يريد أن يطير؟

- من يريد الحظّ؟ من يريد؟

غانابان يمر بالأعمى حتى دون أن ينظر إليه.

تنفك نعلة فردة حذاء غانابان فيمشي كاشطاً البلاطات. غانابان لا يشعر بالبرد ولا بدغدغات الشمس على جسده. يمشي ويتساءل: في أي دقيقة، في أي ساعة، في أي سن، كُسِرَ اللحن؟

يمضي مُفَكِّراً، : "لِمن أقول: أعد لي ما هو لي؟ أنا الـذي لم يكـن لديّ شيء، لمن أقول؟ قبل أن يأتي الموت ويقبض عليّ، لمن أقول؟" فيمـا مضى، حين كان غانابان صبياً، كـان يعتقـد أنهـم سيقتلونه وهـو نـائم. استحوذ عليه التفكير بهذا، واستطاع أن يعرف أنهم سيجزّون ذات مـرة عنقه بضربة سكّين، لكنـه حينهـا لم يكـن يخطـر لـه أن مـن الممكـن أن يحدث هذا، أن يشعر أنه انتهى مزقاً. كانت هناك أيام جميلة محجـوزة له، طالِعُه كان يقول ذلك، لكن يظهر أنّها تعبَت من انتظاره.

في الحدائق الوارفة هنا، صار للأشجار لون النحاس. تنفصلُ ورقـة وتسقط ميتةً عن الغصن إلى الأرض. تتَقَدَّمُ فـردة حـذاء غانابـان مفتوحـةَ الفم؛ لسان النعل يلعق الرصيف ويلتوي مع كل خطوة. العذراء صماء: لم تعد تتذكر غانابان ولا تستجيب له. لا تمد لـه ذراعيهـا. مضـت سنوات كـثيرة دون أي تواصـل. لا بـد أنهـا، العـذراء، بدّلت مكانهـا. غانابـان يغمـض عينيـه ويـرى امـرأة، لكـن مـن هـذه الأرض، امـرأة كانـت لـه وخسرها، يلغيها في الحال ويعود في الزمن إلى الوراء، يفكر كيف سـتكون العودة في الزمن لو أمكنَ، لكن العودة كثيراً إلى الـوراء، إلى الـوراء كليّـاً، قبل التشكّل والولادة، بل وقبل ذلك ، لو أمكن العودة إلى ذلك النوع مـن الموت اللذيذَ الذي كان فيه سابحاً إلى أن منحوا له وجهاً وذراعين ومصيراً واسماً ليحمله. لا بد أنّ هذا قد حدث هناك في أفريقيا، فكَّرَ، وكان هناك شموسٌ حمراء، وأسرّة مائلة للخضرة لكل جسد ولكل شيء.

يُجبرُ النعلُ المفتوح غانابان على أن يمشي مرفوع القدمين وبتـؤدة، كمـا لو أنه يمشي على بيض. يجلـس أخـيراً علـى حافـة الطريـق مفتـوح السـاقين، يحـدق في الأرض مُهشّم الرقبـة بـين كتفيـه الكـبيرين الكـرويّين. يبـدو مُهرجـاً ضخماً أُحيل إلى التقاعد لأنه ما عاد يستطيعُ أن ينهض حين يقع.

تمرُّ السياراتُ تدوسُ ظله. يشعر غانابانٍ أنّ فيه من العصير ما في ليمونة جافة. يشعر بأنهم كسروا عظامه، عظماً عظماً، ولا يعرف من هم. هناك عصا غير مرئية ما تزال تسنده من ظهره حين يمشي هناك. في داخله. غانابان يخشى الضربة الأخيرة التي تجعله يتدحرجُ وتحوله إلى طحين على الأرض، مع أنّ هذا سينقذه من أن يظل هارباً من الجوع والشرطة ومن ظلال نفسه التي تطارده في داخله. لأنّه إذا ما فكّر الواحدُ جيّداً، يقول غانابان لنفسه، فماذا يكون؟ لحم نيّئ وعظام في الفضاء الواسع الذي لا يبدأ في مكان ولا ينتهي أبداً؟ والعالم نفسه، إذا ما بدأت تفكر وتقارنه بحجم النجوم وكم هي بعيدة، ماذا يكون ؟ براز ذبابة. هذا.

تسمع أصوات نباح حادة خلف غانابان. يتجاهلها. النباح الوقح يُصرّ. يلتفت وينظر مدفوعاً بالانزعاج أكثر مما بالفضول. من خلف القضبان العالية من بوابة الحديد المطروق، يمد كلب خطمه ويكشّرُ عن أنيابه. إنه ينبح ليطرده من هناك. الكلب أو الكلبة، أو الصوت الهستيري في مواجهة الدخيل على المشهد. لا يستلطف غانابان إطلاقاً هذا الزعيق المسعور. يعبر الطريق زحفاً ويواجه الكلب. غانابان يعبس ويحدق به. هذا الكلب محلوق الشعر، ناعم ولامع الجلد، ليس فيه جروح ولا عظام ظاهرة: له أسلاف، عنقه من الاستراخان، وقفازات في كواحله وبطنه ممتلئة جداً. يغلق الكلب فمه، يكزبر طوق الشعر الأسود المجعد، يهزّ، ويرفع ذيله، يخدش بقائمتيه الخلفيّتين الحصى.

يزمجر غانابان على أربعته:

- يا ابن العاهرة ،! كلبٌ لوطي! يا ابن العاهرة!

غانابـان الآن هـو مـن أدخـل رأسـه بـين قضـبان البوابـة الحديدية، بينما تراجع الكلب وهو ينظر إليه، وقد نوّمه الخـوف مغناطيسيّاً، تراجع خطوة وأخرى إلى الوراء.

-يا ابن العـاهرة! -يصـرخ فيـه غانابـان دون أن يـنهض- أنت تأكل شرائح لحم المتن، يا ابن العاهرة!.

يضربه لكنّ الكلب بعيد. علـى أي حـال ينـبح الكلـب مـرةً ويهـرب نحـو البيـت. يعـبر الحديقـة محـدثاً جلبـةً هائلـة بينمـا غانابان يصرخ به، يشتمه ويهدده ويدعوه للقتال.

تنزلُ امرأة درجَ البيت الكبير وتصرخ: ماذا يحدث؟ من هناك؟ ما بك يا مـوزارت؟ اسـكت، اسـكت وخلّصْـنا، حبـيبي، مـاذا فعلـوا بـك؟ أرجوك اسكت. تتقدم المرأة في الدرب بـين الأشـجار. يراهـا غانابـان مـن البوابة، وهو ما يزال مطأطئاً تأتي، يرى من بعيـد مشـيتها المتثاقلـة لا تمت بصلة لنبرة صوتها. يراها تتمايل بملاحة؟ ويـرى أنّهـا تضـع مئـزراً منشّى ومنديلاً أصفر يتدلى من يـدها. يـنهض غانابـان بـبطء. شـعرها الآن مربوط إلى الوراء، لكنّ لها العنق الطويـل المـرن ذاتـه، الـوركين الواسـعين ذاتهما والساقين ذاتهما، غانابان واقف، ركبتاه ترتعشان. يشعر بحرقـة في الحلق. هي أيضاً عرفته. تتوقف مترددةً. تسير بضع خطوات.

تمنى غانابان أن يكبح جماح قلبه ويقـول شـيئاً، حتـى لـو مرحباً، لكن هي أيضاً لا تتمكن من أن ترمش أو تلقي السلام. بقيا واقفين برهة لا بـأس بهـا، يتبـادلان النظـر عـبر القضـبان، يبعـد الواحدُ منهما عن الآخر قرابةَ مترين وأيديهما كأنّها تفيض عنهما.

هي أول من يتغلب على الدهشة. تقول دون حراك :

-غانابان.

عندئذٍ يرد هو:

- بيتانغا.

ويتّكئ على البوابة لارتخاء عضلاته. يشعر غانابان برائحة واسمة في الهواء، كما لو أنّ الوقتَ لم يكن خريفاً، وبدل الأوراق اليابسة في الحديقة فواكه ريّانة وزهور متفتحة بكميات كبيرة.

هي تقتربُ. عضلات وجهها مشدودة وفي عنقها ينبضُ الوريد. صوتها لم يتهدج آن تقول:

- سعيدة برؤيتك، يا غانابان.

تدير رأسها، تنظر دون تحديد، تفرك المئزر بأحد أظافرها:

-هل كنتَ تبحث عني ؟ تسأل.

-أنا؟ –يسأل غانابان– بالطبع. في الواقع، أنا ... لا، لا.

صارت من القرب منه بحيث يسمع كلّ منهما نفس الآخر.

-أنا ... بحثت عنك سابقاً–يجيب غانابان– سابقاً رحتُ أبحثُ عنك هنا وهناك.

هي تأخذ مسافة. يراها غانابان وهي تدفع الحصى برأس قدمها.

- بلى - تقول هي- لتقتلني.

تنفلت من غانابان ابتسامة عصبية:

- ولم أعثر عليك. كان من حسن حظّك، أليس كذلك؟ نجوت.

ترتسمُ تجاعيدُ على جبهة بيتانغا، تسندُ يدها على وركها وتهصر المنديل.

- والآن؟ -تسأل- الآن وقد عثرت عليّ، هل ستحرقني حيّةً؟

- الآن؟ -يُباغَتُ غانابان- الآن، لا شيء.

تلعب بالمنديل الأصفر.

- لأنني لا أعني لك شيئاً، أليس كذلك؟ لم تعد تكرهني لأن أمري لم يعد يهمك قيدَ شعرة.

يتبادلان النظر، غانابان لا يجيب. هل هذا صحيح؟ إنه لا يعرف. من الممكن أن يكون كذلك . ومع ذلك.

يدور المنديل في الهواء دورة مِروحة.

- من ضربَكَ؟ -تسأل.

- أنا؟

- هل رأيتَ وجهك؟

يلمس غانابان جبينه وأنفه المتورِّم.

-آه، نعم، -يقول- لا، لا.

- أنت دائماً صاحب مشاكل، يا غانابان -تقول. ثمّ تحني رأسها بنعومة.

هو يصفر بصوت خافت. ماذا يسعه أن يقول؟ لم يعد هنالك سَكَرٌ، ولا لعب برمي الكرات في الميناء، لا مشاحَنة ولا فِلتشا، لا مغفرة ولا قارب ولا أشباح. لم يعد هناك بوسكابيدا. الأمس لم يعد موجوداً، الأمس طار ومضى: يومٌ أقلّ. لم يترك له طعاماً في بطنه، ولا نقوداً في جيبه، ولا فرحاً في صدره.

-تبدو في حالة مزرية يا غانابان -تقول له.

-المسألة أنّني قضيت ليلةَ البارحة بالتسكّع هنا وهناك. اليوم هو يوم عطلتي، هل تعلمين؟ أنا ... أعمل.

-ستقتلني من الخوف.

- أنا عامل هاتف -أخبرها غانابان دون تردد، ولكن برأس مُطأطئ. في شركة بان أمريكا. عامل هاتف في شركة بان أمريكا. هناك.

دوريٌّ يقفز بحثاً عن طعام بين الأحجار.

-غير معقول -تجيبه بجدية- وأنا، أنا مدرسة للغة الإنجليزية. هنا.

يرفع كلاهما رأسه في آن معاً. تلتقي العيون: كلاهما يضحك مُقهقهاً. يسكتان معاً، يصمتان برهة طويلة. إنه صمت

ثقيــل. لا يريــد غانابــان أن يــذهب، لكــن إن بقــي، فمــا الــذي سيفعله؟ ما الذي سيقوله؟

-تغيرت كثيراً — تقول هي أخيراً — ثيابُـكَ رثّـة، وجهُـك متعب. انظر إلى منظرك. يبدو أنها لا تعتني بك جيداً.

-من؟

-تلك التي في انتظارك.

-آه.

- يرفـع غانابـان نظـره إلى رؤوس الأشـجار الحمـراء نصـف العاريـة، هـل يستحق الكلام العناء؟ يشعر بالبرد في أصابع قدميه. يرفع الصمتُ الدمَ إلى رأسه.

- لا أحد ينتظرني. يقول أخيراً دون أن ينظر إلى بيتانغا.

ـ هل حقاً ليس عندك أحد يا غانابان؟ ليس هناك مَن ينتظرك؟

- الأولاد، إياهم.

يضغطُ غانابان علـى قضـيب بيـده اليمنـى. تبـيضّ مفاصـل أصابعه. أخيراً يتشجع:

- وأنتِ؟ يسأل مماطلاً.

- أنا؟ أنا أيضاً، تجيبه. ليس عندي أحد.

أجفان مُغمضة. مطر من الأهداب. الابتسامة الحزينة. بريق الأسنان بين الشفتين الحمراوين جدّاً.

- أنت أفضل بلا زينة ... – تمتم غانابان.

يلف غانابان نفسه بذراعيه مدلكاً أضلاعه.

- هي أذواق– تقول مزدريةً، تزمّ شفتيها.

يراها غانابان تُقوِّسُ رقبتها وتُنْزِل ذقنها نحو كتفها، تحكّ حنجرتها بكتفها، وحينئذ يراها عارية، تعضَ الوسادة، ويرى نفسه معها وعليها وفيها، ينسفحان، يشتعلان، يصيران مزيجاً من عرق ودخان.كان الزمن يكبرُ في ذلك الوقت، بدل أن يُستنفد؛ تلك الأيام كانت أكثرٍ بكثير من أربع وعشرين ساعة. لهذا السبب كان يعرفِ أنه لم يكن حباً عابراً من النوعِ الذي يمرّ ويُنسى. أحببتُها حتى النخاع، يُفَكِّرُ غانابان. ولكن ماذا يهم الآن؟ أراد غانابان أن يُقنع نفسه بأنَّهُ ليس بحاجة إلى أي شيء منها. تمنى أن يقنع نفسه بأنه لم يعد يحبها. هي خذلتني. هي خذلتني.

- حسناً أيتها الفيلسوفة. الترف والانحطاط لا يندمجان. لا يبحث أحدهما عن الآخر؛ لم يوجدا كي يمتزجا. أنا في مرحلة الانحطاط. أنا ذاهب.

وقتها تمدّ ذراعها، ومن بين قضبان البوابة تُداعِبُ شعره بيدها، تشبك أصابعها بشعر غانابان الكثيف الأشعث، ثم تسحب يدها على الفور وتخفيها خلف ظهرها. يشعر غانابان بقشعريرة في عموده الفقري.

- هيا يا غانابان– تطلب منه متمايلةً. ابقَ قليلاً. ماذا يُكلّفك؟

استعاد موزارت شجاعته وأخذ ينبح بعيداً من على الدرج.

- لديك ما تعملينه، – يقول غاناباان– أنت تعملين. إنهم هنا يُحسنون معاملتك.

- لا أستطيع أن أشكو.

- سيطردونك إن شاهدوك.

- لا يهمني قيد شعرة.

- أنا ذاهب يا بيتانغا.

- اسمعني أيها العنيد. تعال معي إلى المطبخ وسأسخن لك طبقاً من العدس. طبق لذيذ من العدس، ساخن جداً. تدخل من الخلف، لن يراك أحد.

- لست جائعاً– يكذب وينفخ صدره: لست محتاجاً. أنا أتدبّرُ أمري. لا أطلبُ ولا أقبل شيئاً.

ويرفع يده ويقول وداعاً. يخطو ثلاث خطوات. تفتح قفل البوابة وتدركه بقفزة.

يمشيان معاً دون كلام. قبل أن يصلا إلى الزاوية، يستند على الجدار ويداه غائصتان في جيبيه.

- صحيح أنّني تغيّرتُ –يقول– الواحد ليس نفسه. يتغيّر. عندما تتلقين اللكمة الأولى، تكونين شيئاً ثمّ تصبحين آخر،أو نصفَ أخرى بعد أن تتلقي اللكمة الألف.

تتكئ بجانبه على الجدار. تمرّ سيارات. واحدة، اثنتان، ثلاث. شاحنة حمراء معطوبة، تكحّ.

- أنا كنتُ أحبّك يا غانابان -تميل بوجهها، تنظر إليه من زاوية عينها- أعرف أن الأمر لا يُفهم جيداً، لكنّني كنتُ أحبُّك.

- انظري يا بيتانغا. في البداية، لو أمسكتك لقتلتك. لقطعتك إرباً. فعلتما حسناً بهربكما، أنت وكاراكولو[30] ذاك الذي كذب عليك.

- لم أستطع أن أتحمل أكثر. لم أكن أريد أن أكرهك.

- من كان هذا يا بيتانغا؟ كيف كان؟

ترفع كتفيها وتقوم بحركة كما لو أنها تريد أن تبصق.

- كنتُ أنام- يقول غانابان- ودائماً كنتُ أراه في حلمي بوجهٍ مختلف. أحلم بأنّني أقتله وأقتلك أيضاً، وأستيقظ منهكاً. بحثت عنكما، لم أعثر عليكما.

- أردت أن أذهبَ ولم أعرف كيف. لم تكن لتتركني. كنت خائفة. كنتُ أُحبُّك يا غانابان. كنت أُحِبُّك. لكني لم أعد أحتمل أكثر، أردت أن أغيّر حياتي، وكنت خائفة.

- ثمّ جاء بعدها الأسوأ. لأنني كنتُ لا أستطيع أن أنام، هل تدرين؟ كنت آوي إلى الفراش لكني لا أستطيع أن أنام. كنت أضرب الأطفال. لم أكن أحتمل أحداً. لم يكن عندي مكان أذهب إليه. لم يعثروا عليّ في أي مكان ولا مع أي أحد. لقد أخطأت في تعوّدي عليك يا بيتانغا.

---

[30] وجه المؤخّرة

مرّ غانابان بإبهامه على الندبة القديمة التي تقطع وجهه.

- كنت أسير دائخاً من الحزن. حين يسير المرء على هذه الحال، يصطاده الآخرون. لا تُريدين أنْ تري أحداً ولا أحد يريد أن يراكِ. الحزن جذام. كنتُ أُريدُ أن أسكر حتى لو بكحول موقد الكيروسين ، لكنك تعرفين مدى صعوبة أن أسكر. أنا كالإسفنجة عندما أشرب. هذه إحدى التناقضات الموجودة لديّ: قدرتي الكبيرة على التحمل. رحت أشرب وزاد هذا من غرقي. كنتُ كلّما شربتُ أكثرَ، كلّما ازددتُ تعاسةً وعدوانية. كنت أكسر أسنان أول شخص ألتقيه لمجرد أنّه زورني بنظرته، أو نظر إليّ مباشرةً أو لم ينظر. في نهاية المطاف، فقدت كلّ رغبة بالجريمة. لكنّ الحزنَ بقي.

تسند رأسها على كتف غانابان. لا يخبرها بأنه كان يستيقظ وهو يُردّدُ اسمها ويتلمّسها في الظلام.

اللحظة العظيمة، الوحيدة، ثم التدحرج نحو المجرور. كان هذا أكثر من مجرد رحلة أو حرب أو عيد. هذا. العسل الذي جرّبه فِلتشا وأدين به. هذا، ما هو الآن؟ يفاجأ غانابان بأنّه يشعر بالرقّةِ تجاه فداحة الألم الذي خلفته له. هل يمكن أن يُحَبَّ هذا الألم؟ أن يُحْتَضَنَ، يُرْعى، وأن يفسح مكاناً له؟ هذا. هذه القرحة. الأفضل له أن يذهب. أن ينسى من جديد. أن يكون وحده.

لكنها تنشب أظافرها في ذراعه بأظافرها فينفرج.

- هذا الحقير التافه- قالت. صدّقت كل ما قاله. حين استفقت، كان الوقت قد تأخر. أنا نلتُ عقابي يا غانابان. لا تصدق. أنت لا تعرف...

- بلى أعرف. عَرَفْتُ. عرفت لاحقاً.

- ماذا عرفت؟ تسأل.

يصعب الكلام على غانابان. الكلام يؤلمُ. لو كانت الهارمونيكا معه. لو لم تكن الهارمونيكا مكسورة. لو كانت معه الآن في جيبه الخلفي، لكانَ وضعها على شفتيه وعزف الكثير من الموسيقى ولتماوجت الموسيقى في الهواء وخَفّفَت منَ ألمه، ولما كان الألم يشدّ به الآن في داخله، لأن الموسيقى تقتلع الألم وتحمله بعيداً.

غانابان يقول:

- سمعت أنه جرّدك حتى من خاتمك. أنه قصّ شعرك وباعه لتاجر الشعر المستعار.

هي تنفصلُ عن الجدار.

- كان هناك ما هو أكثر من ذلك.

- ماذا أكثر؟

- لا يهم.

- أخبريني.

- أنتَ لا تعرف الأسوأ.

- أَخبريني بكل شيء. أُريد أن أعرف.

- من الأفضل السكوت.

- نعم. كلَ شيء.

الإصغاء يؤلم. ويغمض المرء عينيه ويشدُّ على جفنيه، يتمنى أن يتخيل أن الموسيقى تولد من نفسها، دون هارمونيكا. يريد المرء أن يشعرَ أنّ الموسيقى تخرج، تتذبذب، تكون خيطَ ماء، شيئاً من لا شيء يروح ينمو داخل المرء وتُبَلِّلُ الروحَ اليابسةَ، إنها قادرة على أن تحول الألم إلى ريح وموسيقى.

تمشي في أنصاف دوائر. أمام غانابان. تجرُّ حذاءها بكعبيها تنتزع شرراً من البلاط.

- أراد أن يجبرني على أن أعملَ في الشوارع.

- كل شيء. كل شيء.

- أرغمني على العمل في بارٍ من بارات الميناء.

غانابان يستمع مُغْمَضَ العينين.

- كان هناك قزم يراقبني –تقول– وامرأة مقززة تُريد أن تجبرني على... بعد ثلاثة أيام، هربتُ. كنت خائفةً حتى الموت. كنت خائفةً من البقاء، وخائفة من أمشي وحدي، وخائفةً من العودة إليك. لم تكن تعرف هذا، هاه؟

- بلى كنتُ أعرفُ – يقول غانابان بهدوء– البارحة عرَفْتُ.

- البارحة؟

هي تتوقف، مُشوَّشة، وغانابان يهزّ برأسه، يفتح عينيه، ويقول:

- والرجل، إذن، كان هو كاراليسا[31] الذي ... كان هو هذا ابن العاهرة.

---

[31] مرّ هذا اللقب ويعني الوجه الممسوح والعربيد والمجرم إلخ. م.

ابتسامة حزن ترتسم على وجهِ غانابان. ينظرُ إلى قبضة يده المطبقة، ينفخ عليها، يلمعها بقميصه. يقول:

-مزّقتهم جميعاً.

-كيف؟

-كما تسمعين. دفعت لهم ما يستحقونه .

-متى؟ ما الذي مزّقته؟ أنا لا أفهم.

-لا يهم.

-ألن تُوضِّح لي؟

-لا

يمر شرطيٌّ ويلقي عليهما نظرة. يحمل مسدس الخدمة على فخذه وسكيناً خشبية كبيرة معلقة إلى خصره.

لا يدوم طويلاً إحساسُ غانابان الغامض بالعدالة. الانتقام ينفخ رئتيه، والبارحة يكتسب قليلاً من المعنى، ولكن في نهاية المطاف هذا لا ينقذ شيئاً ممّا غرق. يردّ ضربةً، ثمَّ ماذا؟ ثقوب ما خسره الواحدُ، بماذا يسدّها؟

-حسن،- تُحلّي صوتها- أنا أصدقك. أنت قادر على تمزيقهم جميعاً مجتمعين. أنت قوي جداً يا غانابان.

تفك شريطة نقرتها الوردية فينسدلُ شعرُها. تغمض عينيها. تناديه بإبهامها. تُقَدّم له شفتيها.

غانابان يتأملها، شارداً بعيداً. الذاكرة تسرّ له بضغائن. هل نرقص معاً؟ منذ زمن طويل على آخر معزوفة عزفها على الأكورديون[32]. فجأة، يشعر غانابان بجرح ينفتح يخترقُ ذاكرته ويتخطاها إلى ما هو أبعد ويجرحه عميقاً.

- غانابان — تقول مُنتَظِرَةً.

يمد هو ذراعه ويرفعها من رقبتها، يدفعها بظهرها على الجدار. ترمش مذهولةً، خائفةً. تتعتع محتجة. يوقفها غانابان من عنقها بذراعه الممدودة، عضلاته مشدودة، وذراعه جذعٌ بعروق غليظة تلتف مثل نباتات متسلقة.

- الطفل- يشخر غانابان .

- أيّ طفل؟

تخيفها هذه النظرة التي تسدد عليها كالسلاح.

- طفلنا. الذي أخذته.

تعضّ على شفتها، وتنفي برأسها.

- ستخبرينني -يصرّ غانابان، وهو يمضغ ويبصق الكلمات ببطء.

- أفلتني وسأخبرك.

---

[32] Bandone'on، هو نوع من الأكورديون الطولاني، م.

غانابان يرخي قبضته. تستدير هي وتدفن وجهها في الحائط.

- ستخبرينني ماذا فعلت بالطفل ـ يصرُّ غانابان، خطيراً، غير مستعجل، مُكلماً ذلك الظهر الذي يرتجف مرتعداً من الإجهاش.

- أهديتُه يا غانابان.

يعود غانابان خطوة إلى الوراء، فاقداً الوعي بسبب الضربة على الفك. ينزّل ذراعيه. يشعر بيديه نائمتين. جسده كله نائم. أعصابه لا تعمل.

هي تبكي، ووجهها إلى الحائط.

- -أهديتِهِ — يقولُ غانابان.

يمسك بها من ذراعها ويديرها بعنف نحوه. يخترقُها بأصابعه. يكلمها ماضغاً وجهها.

- ألهذا أخذته معك؟ أخذت بيرينتشو[33]؟ أخذته لتهديه؟

على وجهها الذي ورمته وبللته الدموع تسيلُ أنهارٌ من المسكرة.

- وماذا كنت تنتظر مني أن أفعل؟ -تجهش-. هل تعتقد أني أحببت أن أهديه؟ أنا أعملُ خادمة. لن يقبلوك في أي منزل وأنت تحمل معك رضيعاً.

- وأهديتِ بيرينتشو. صغيراً ومُهدى، كما لو كان شيئاً – يقول غانابان مُحدّثاً نفسه، بصوت خافت، وفجأةً يُزمجرُ-: أن تتركيه لي! هذا ما أردته! أن تتركيه لي!

---

[33] Pipirinchoاسم الطفل وهو اسم طائر صغير تعلو رأسه أرياش طويلة. م.

تصرخ بصوت أعلى:

- لماذا؟

تعوي:

- أمن أجل أن يموت من الجوع مثلك؟

غانابان يبتعدُ. يقيسُها كي يشطرَ وجهها. يقول لها كازّاً على أسنانه: "عاهرة". يطبق قبضته. يرى الرعب في عينيها، فيتردد ويفلق الجدار بلكمة.

تنزلق هي نحو الأرض، كما لو في إغماء بطيء. يلعقُ غانابان الدم عن قبضته اليمنى. الجدار أقوى من قبضته. يشعر بألم براجم مُشظّاة. شيء ما تكسر هناك داخل الجلد. يشدّ غانابان على قبضته، ويرى النجوم.

فجأة يتعرّف على رائحة الشرطة المثيرة للغثيان. تنبثقُ يدٌ من الخلف وتمسك به من كتفه.

- لا تتحرّك ـ يقول الشرطي. أنت موقوف.

يغزّ فوهة المسدّس في أضلاعه. يلتفت يغانابان ويواجهه. يعتمر قبعة وكلّ شيء، الشرطيّ لا يصل إلى ذقنه. يلوي غانابان له رسغه فيهبط رجل حفظ النظام منكبّاً على وجهه وسطَ الشارع. يغادر غانابان بهدوء دون أن يدير رأسه. نعل الحذاء يسوط البلاط: بلاف، بلاف.

تنفض بيتانغا ملابسها. يحاول الشرطي الذي خبلته الضربة أن ينهض. بيتانغا تراه قادماً فتهرب. تدرك غانابانَ الذي يمشي ويداه في جيبيه. الشرطي يصفّر ويطلق عدة طلقات. يطل الجيران،

أحدٌ يصرخ؛ سيدة ترسم الصليب وتغلق الأبجور. غانابان وبيتانغا يركضان بكل ما أوتيا من قوّة، دون أن يلامسا الإسفلت. يهربان باتجاه الجادّة. شاحنة تفرمل فجأة: ينجوان بأعجوبة. يخلع غانابان حذاءه بلمح البصر. يرمي بحذاءه جانباً ويتابع الركض.

عند مدخل الشارع التالي يظهرُ رجالُ شرطة آخرون. يفلت غانابان من اثنين بحركة مخادعة من خصره، لكن الثالث يرتمي على قدميه فيدور هو في دوامة من اللكم والركل. شرطي يرفع عصاه من وراء غانابان ويريد أن أن يُحطّم رقبته، لكن بيتانغا تصل إليه بقفزة واحدة وتغرزُ كعبَ الحذاء في رأسه. تُسمع كلماتٌ بذيئة ومزيدٌ من الأعيرة النار وصراخ أهل الحي، لكن غانابان دبّابةٌ تتقدّمُ ساحقةً أعداءَ، وضاربة بمرفقيها، بقبضتها اليسرى وبقدميها وتمضي شاقّة طريقها، منيعةً، تتحوّل بعدها إلى طائرة تُحَلّقُ مع بيتانغا الممسكة بجناح من جناحيها في الجوّ، فوق الجميع.

وبسرعة خاطفة يحملُ غانابان يبتانغا من خصرها ويقفز بها إلى حافلة تسير. في الخلف بعيداً تبقى سحابة من غبار وعراك.

يشدان على بعضهما في فسحة الوقوف في الحافلة الفارغة.

- هل أنت كاملة؟

- ألم ينقص منك شيء؟

- أَنْفُكِ ، هل هو معك؟

- وذراعك؟

يتلامسان ويضحكان.

-سننزل الآن ونأخذ أخرى- يقول غانابان.

-سنذهب إلى المنزل ـ يقول غانابان.

-هل معك سيجارة؟ يسأل. أنا محتاج لسيجارة.

على الشاطئ يُستَنْشَقُ هواء نظيف وعليل. الصيادون ينحنون فوق الحبال، يجمعون الشبكة. بعض الفضوليين يتفرجون عليهم. في الشارع البحريّ، تصعد بيتانغا مع غانابان حافلة الضواحي.

حين تهمّ بالجلوس، تتردد:

-عليّ أن أجلب أشيائي. -تقول.

-غادرت بلا شيء ـ يقول غانابان- ولا أريدك أن تحضري أي شيء. لن تعجبني أشياؤك.

-حسناً. ولكن ...

هي تقضم أظافرها.

-تعالي معي-يقول غانابان- وانتهى الأمر.

-حسنٌ. طيّب.

-ماذا لديك هنا؟

تتفقد جيوب مئزرها:

- بعض من النقود للمهمات التي أكلف بها.

- وماذا أيضاً؟

- لقد أضعت المنديل أثناء الشجار. آه. والساعة، تلك.

- هل هي هدية من أحد؟

- أنا اشتريتها.

- لا تكذبي عليّ.

- كلفتني راتباً.

- حسنا. لا حاجة لأكثر. هناك تنتظرك ملابسك وما تركتهِ. لم يقربها أحد. أردت أن أحرقها كلها ولكن لا أعرف بماذا شعرت. أردت أن أبيعَ أشياءكِ ولم أستطع. لا أدري إن كنت جباناً. لم أجرؤ ولا على تمزيقِ صورتك.

غاناباان يتثاءب. قبضته المتورّمة تحرقه وتؤلمه. "عائد من الحرب،"يفكّر غاناباان." أنا معطل بالكامل. هل كسبت الحرب أم خسرتها؟ حرب ضدّ من ؟ يا للعهر! كم هي عنيفة الحياة! كل كم دقيقة يولد ويموت المرء؟ حياة عاهرة ".

يزمّ جسده ويتثاءب من جديد وينكبّ على كتف بيتانغا. هي ترتعشّ. الوسنُ ضباب دافئ يلفُّ غاناباان. كتف بيتانغا مكان حنون وآمن كي ينام عليه. العاهرة. ما يزال متعلقاً بالحياة **مثل كلب** ببقرة ميتة. العاهرة. نم الآن ـ يقول لنفسه: نم يا غاناباان. و بعدها شأنُ آخر ... ، فالعالم مرعى".

هي تقبله بلطف على قبضته المصابة.

يُقرقِرُ المحرِّكُ. لا يُسمع صوت آخر في الحافلة الخالية. صدْر غانابان، صدر الثور، يعلو ويهبط.

-غنّي شيئاً يا بيتانغا. ـ يتمتم غانابان. غنّي أغنية تانغو بصوت خفيض.

وبينما هي تغني كما لو في السرّ، يستسلم هو ويدخل في نفق الحلم.

38. المدينة

لأن الأرض مكلومة بالسلطةِ وانتصاراتِ أسيادِ الأرضِ والحرب، تهبُّ الريحُ من المروج القاحلة وتنتحب.

في العاصفة يُسمع خوار لحيوانات: يقتلعونها من مراعي ومرابع الجبل ويسوقونها إلى المسالخ ويدخِلونها في النفق: يدفعونها إلى الموت بعصا الصعق الكهربائي: يغلقون عليها المصيدة الخشبية: ويسحقون عظام جماجمها.

امرأةٌ تُغَنّي في المقهى المطل على الساحة والريح تسوقُ صوتها الرث، صوت الدوري، وتحمل عويل أوتار الكمان. الريح أيضاً تنقل الصراخ النكير لرجلٍ يكسر كأس نبيذهِ على الأرض ويقترح إغراق كل العجائز في قيء سم هائل، ويصرخون بالفتياتِ أن اذهبن، ما من جهة لَكُنَّ، انجينَ بأنفسكنّ، ارحلنَ إلى مؤخرة العالم. وتحمل أشياء أخرى الرياح، كما يمكن أن يكون، ودون أن نذهب بعيداً، زعيقُ سجين يُقَلّد كلباً ينبحُ ويتحوّل إلى كلب يقلد سجيناً ولا يترك باقي السجناء ينامون.

تُغيرُ الريحُ عاوية كحيوان وتكسر حبال الزوارق، تهينُ الأشجارَ، تُخلّعُ الأبوابَ، وتغزو البيوت: الرجل المحصور يقفز ويواجه الريح بإصبع على الزناد. الرجل المحصور ينام بعين واحدة فقط ويستيقظ قبل طلوع النهار. تخيفه أصداء خطواته نفسه وأضواء السيارات التي تنعطف في الزوايا. القطط التي تتدلّى من الأسطح أيضاً تخيفه. يمضي من ظلامٍ إلى ظلام، ملتصقاً بالجدران. الرجل المحصور يستطيعُ أن يذهب لكنّهُ يبقى مربوطاً إلى المدينة بدَيْن غامض تعرفهُ الريح. يبقى ويُحرّك برؤوس أصابعه ودون مفاجأة، ورقَ اللعِبِ البائسَ، الذي ينتظره.

الريح الشمالية تأتي مُحمَّلةً بالتراب؛ ريح الشرق، بالمطر؛ ريح بامبيرو[34]، بالبرد؛ وكلها ترمي بخناجر بعيدة على زجاج النوافذ، وتعلن عن الإعصار المجرمِ الذي سيأتي ذاتَ مرّةٍ بالنارِ، وسيكشف لنا عن الكلمة المطلوبة.

وريثما يحدث ذلك تصهل، في المراعي، الخيول المتهيجة، والريح تأتي برائحة الشهوة، التي هي رائحة اليوم الأول من الخلق.

---

[34] تريح تهبّ من منطقة بامبا على نهر ريّو دِ بلاتا

39. العودة / تسكعات غانابان

عاد ماريانو إلى طريق الهرب. يُريد إن يتخذ طريقَهُ على حافة الجدول، نحو بيت الرجل الذي آواه. يجوب هكذا، على ساقيه، المسارَ الذي قَطَعَهُ من قبل بكلماتٍ لكلارا. أيضاً في الأحلام كان قدِ مشى هنا مراتٍ كثيرةً، تَشدُّهُ صور أنقذته من فزَعٍ وكوابيس وكانت توقظه سالماً.

الطريق يطول كثيراً. في تلك الساعات، حين كان يجري محاصَراً بمجسات الآلة، منحهُ اليأسُ والفرحُ بالحرية قوّةً كي يَعبُرَ العالمَ بقفزة واحدة. الآن، من دون تلك الجزمة بفراسخها السبعة يتعبُ ماريانو بسهولة، وكثيراً ما يعتقد بأنه يضيع. هل أنا في الطريق الصحيح؟ هل الطريقُ من هنا؟ أيَستحق العناء متابعة البحث؟ يتعرف على أماكن، يتشوش؛ يتردّدُ ويتابع. الآنَ ما عادت الطلقاتُ تصفرُ، ولا زعيق صفارات الإنذار يثقب رأسه. الأنوار الكاشفة لا تعضُه من كعبيه. ولا يلاحقه الرجال ولا الكلاب.

يحلُّ المساء الآن. الخيول طليقة تستكشف العشب المليء بالأشواك. من أزهار دبوس الراعي، تفزعُ حشراتٌ دقيقة: ستقوم بجولاتها الليلية: كثير منها لن يشهد الصباح التالي.

فيما وراء منطقة مِكبات القمامة الشاسعة، العارية من الأشجار، يدورُ رجالُ الشرطة على ظهور خيولهم. تمضي خبباً؛ حوافرها تضيف غباراً إلى غبار الهواء. ترتفع أعمِدَةٌ طَويلة من دخان أبيض، قمامة محروقة، هنا وهناك. الرجال يختفون والكلاب تشتمُّ النفايات. قضبان العربات الفارغة تُصَوِّبُ نحو السماء. أوراقُ شجرٍ يابسة وأوراق صحفٍ تتطايرُ مع دخان القمامة الكثيف. ماريانو يمشي عَبر الروائح الفاسدة والرطوبة التي تُثقل، هلاميةً، في الهواء. خيولُ الشرطة تبتعد نحو المدينة. الأبنية الشاهقة، الرماد المحمرّ بآخر أنوار النهار، تنكمشُ في الأفق. المدينة: كوكبٌ آخر. المدينة غريبة، بعيدة، صعبة المنال. لكن هذا هو المكب الذي تنتهي إليه البقايا التي تفرمها المدينة وتلتهمها كلَّ يوم: هذه الصحراء من الذباب والزجاجات الفارغة والأشياء المكسورة والفاسدة. هذا المشهد، مشهد القمر المتسخ.

في السماء، متدلّيةً ومنخفضةً، تستبق الغيومُ الداكنة الليلَ. لا تهب ريح. يمكنُ أن تُمطر. يُسَرِّعُ ماريانو خطوه باتجاه صفِّ أكواخ التنك التي لوتها أعاصير وعواصفُ كثيرة.

ماريـانو لم يـرَ ولم يسـمع شـيئاً عنـدما كـان يجثـو في العربـة تلك، في تلك الليلة، منذ وقت مضى، ولكـن الآن يـترك نفسـه يـذهب وحاسة شم سرية ترشد خطواته وتُعلمُه بأنّه اقترب: فـاتر، فـاتر. مـن الأكواخِ، من بين الصفيح والخيش، يطل بين الحـين والآخـر زوجٌ مـن عيونٍ جامِدة: يرونه يمر دون فضول ولا تهديد، ولا خوف.

ماريانو يرى في البعيد حصاناً أخضرَ. يـرمش، يفـرك عينيـه: ، لا، لا، ظلالُ المساءِ اللعـوبُ لا تخدعـه. الحصـانُ الأخضـرُ موجـود هناك، وراء ألواح السياج، ويهز رأسه وعرفه الصغير الأخضـر، كأنـه يُحيّي. في الخلف، بالقرب مـن الحفـرة المائيـة، يرتفـع كـوخٌ متـداع، رسم عليه طفلٌ بقعاً وخربشـات. فـاترٌ، حـارّ، حـارٌّ، يحـترق: هـؤلاء الأطفال هم أولئك الأطفال. يتسلّقُ واحد منهم السياجَ ومـن هنـاك يقفـز على ظهر الحيوانِ ويمسك برقبتـه. يضـطربُ الحصـانُ قلـيلاً ويُـذعنُ. لكنَّه يُحرّكُ لاحقاً ردفه غدراً، ويسقطُ الولدُ بوجهه على الأرض.

الصبي اسمه أبروخو. لديه عينا قرصان، وهو كذلك.

يـنهض أبروخـو[35] ويـركض. يـدخل إلى الكـوخ ويـندفع نحـو تنـورة بيتانغا: حينها ينفجر بالبكـاء. هـي تُـداعبُ رقبتَـهُ، تـدهنُ كوعَيْـه المكشـوطين بالبصـاق، وتـنفخ. غانابـان لا يلقـي بـالاً. أبروخـو لا يـزال يبكـي. غانابـان مشغول. يُريدُ أن يُشعِلَ النار بحطب رطب. هـو حطـب صـنوبر، يعطـي جمـراً سيئاً، ولكن لا يمكن الحصول على ما هو أفضل ومرميّ هناك.

غانابان يتحدث عن الحصان:

[35] اسم نبات شوكي يُشبه لسان الثور عندنا. م.

-أتيتني بالحظ يا بيتانغا – يقول- ممثلاً، كان. نجم سينما. الآن لا يزولُ لونُهُ بالمطر ولا بالمحسّة.

يشعل كرة من ورق صحيفة، يدخلُها بين الجذوع. الورقة تلتهب، تلتوي وقبل أن تنطفئ تماماً تتفتت إلى قمامات صغيرة سوداء تتراقص في الهواء. يُصْدِرُ الخشبُ دخاناً من دون نار، دخاناً حريفاً وكثيفاً.

- سحقاً للعاهرة التي ولدته، هذا الحطب اللعين – يسعل غانابان.
-أعطني كيروسين – يطلب، وهو يسعل-. هل بقي؟

فجأة تظلم بوابة الكوخ.

غانابان، جاثياً، يدير رأسه.

-مساء الخير – يسمع.

عيناه تدمعان من الدخان، لكنّه يتعرَّفُ على الصوت. يسكبُ قليلاً من الكيروسين على الحطب. يفرك عودَ ثقاب، يشعرُ باللهب يُفرقع.

-حسبتُ أنّك لن تعودَ أبداً – يقول، أخيراً، بدون اندهاش.
-عانيتُ في التعرّفِ على البيت – يُوضِّحُ ماريانو، من الباب-. لم يكن ممكناً أن أسأل عن الاسم . لم أعرف اسمك أبداً.

يخرج غانابان. يتعانقان. الأولاد يقفزون على ظهر ماريانو، يشدّونَهُ من بنطلونه. ماريانو يرفع واحداً، ثم آخر: يجعلهم يتشقلبون في الهواء.

بيتانغا تخرج أيضاً، وتُسلّم على الوافد الجديد رافعة المكنسة.

-المريض! عاد! هل تذكرين يا تشيسبيتا[36]، أنهم أصابوه بالعين؟ الآن غيّر لونه وصار له شوارب.

تشيسبا الكبرى تتذكر، وربما أيضاً تشورّينتشي[37]، رغم أنه لا يبدو مقتنعاً جداً، لكن أبروخو ينظر بعدم ثقة من خلف الملابس المنشورة. أبناء غانابان وأبناء زوجته. يُلاحظُ ماريانو أن واحداً غائب، كان حديث الولادة حين كان هو هناك.

غانابان يقتربُ من الحصان، يربت عليه:

-ماذا تقول لي عن الشريك الذي حصلتُ عليه؟ - يبدي اعتزازاً-. لا ينفعُ للعمل، لأنّهُ كهلٌ جداً. أهدوه إليّ اليوم. عادت بيتانغا وأتتني معها بالحظ.

ماريانو يلقي في الهواء غطاء عبوة كوكاكولا، يُقلّبها على ركبته، يلهو بها بمشطِ القدم، قليلاً، ويركلها بقدمه اليسرى، أبروخو يتصدى لها. أبروخو يقترب، يبدأ يشعر بالثقة.

-أنتَ، ما أنت؟- يسال.
-أنا؟ ساحرٌ.
-أتعرف كيف تحرك أذنيك؟

غانابان يصعد وينزل عن الحصان، يتراجع بضع خطوات ليراه بشكل أفضل:

---

[36] تشيسبيتا تصغير تشيسبا وتعني شرارة. م.
[37] اللقب هو اسم طائر أمريكي لاتيني، الذكر ملوّن أحمر الصدر والبطن، والأنثى رمادية كلّها. م.

-وضعت له اسم فوليرو[38] – يشرح-. ذاك الذي كان عندي ماتَ. أنا لم أعد أستطيع العمل. الآن، مع فوليرو، سأعود إلى تجارة القمامة. مقابل الزجاجات الفارغة لا يدفعون لك تقريباً شيئاً. مقابل الأوراق لا يقولون لك حتى شكراً. ولكن شيء ما يجب أن يكون هناك، شيء لخداع البطن.

يفرك له شعره الأخضر، يقتلع بعض الأشواك من بطنه.

-واضح أنه ذكي – يقول-. سيرافقني، فوليرو. إنه كهل قليلاً، لكنه عمل في فيلم، هل تعلم؟ كان مُكرّساً لهذا في الآونة الأخيرة. من هنا جاء هذا اللون الذي هو فريد من نوعه في التاريخ العالمي للخيول والبشر. ما قولك؟

-إنه أفضل من الآخر – يقولُ لمجرّدِ القولِ ماريانو.

فوليرو يتثاءب. إنه ضجر للغاية، لكن كذلك منذُ سنين طويلة.

- عملت كحصان، هل تعلم؟ - يحكي غانابان-. بين العيدان، أنا حصان على قدمين. تخيلْ. هكذا لم يكن تسير الأمور جيداً. لم أكن لأمشي وأنا أضرب نفسي بالسوط. سوطي، أتعرفه؟ انظر. انظر يا لها من ضفيرة طويلة وتصفر. على الرغم من أنه مع فوليرو لن أحتاجها. سوف نتفاهم بالكلام.

في مينا ساعةِ ماريانو تدورُ عدة عقارب لامعة وغامضة، تشيسبا تطلب استعارة الساعة منه. تضغطها على أذنها، تهزها. هي لديها جديلتان واقفتان مثل قرني استشعار، مربوطتان بشرائط حريرية صفراء.

---

[38] كما في كلّ الأسماء في هذا العمل، اسم الجواد يحمل معانٍ كثيرة : غشاش، محتال، ثرثار، أخرق، أحمق ...إلخ. م.

بـدأت تمطـر، بنعومـة، وغانابـان وبيتاغـا متعانقـان بجانـب الحصان، مبتسمان ملءَ وجهيهمـا، كمـا لـو أنهمـا ينتظـران أن تُلـتقَط لهما صورة. ماريانو يشعر بدغدغة المطر على وجهـه، تيـب- تـوب- كلوك، والأولاد يُغَنون: فلتُمْطِرْ، فلتُمطِر. يغلق ماريانو أجفانـه لحظـةً. العجوزُ في المغارة، يُغَنّي أولاد، وماريانو يستسلم للرذاذ، يخـزُهُ ويبقـى كأنه أصم، وغانابان يُضطرّ لتكرار دعوته لدخول المنزل.

-ستبتلّ يا رجل — يقول له-. تعالَ. لنأكل شيئاً.

أبروخـو يخـرج راكضـاً. يـدخل بعـد برهـةٍ الكـوخَ ومعـه زجاجتان بين ذراعيه.

-أنا، لا أحتاج راحةً أكثرَ، - يقول غانابان-. ولمـاذا أُريـدُ راحةً أكثر؟ الراحةُ تروّضُـك علـى المـدى الطويـل. في القـدر تغلـي المعكرونة. ترشُّ بيتانغا الملح؛ وتحركها.

يلعـقُ وهـجُ النـارِ الأحمـرُ صـورتَي غـاردل[39] والعـذراء فاطمـة، ويـرتعشُ فـوق المـثلات اللاتـي يرتـدين البيكـيني والمنـاظر الطبيعيـة السويسرية، التي تغطي الجدران من الأعلى إلى الأسـفل. أوراق المجـلات القديمة والتقويم منتفخة بسبب دمامِل الرطوبةِ وبصماتِ الذباب.

الجوُّ في الداخل حارّ. يطنُّ البعوضُ وحشراتٌ أخـرى لاذت هنـاك هربـاً مـن المطـر. يضـع غانابـان المغرفـةَ في القـدر؛ يُمسـك بمعكرونـة طويلـةٍ بأسـنانه؛ يتـذوقها. يـدورُ بـين الأرجـلِ أطفـالٌ

---

[39] Carlos Gardel (188؟- 1935) مغن ومؤلف موسيقي وممثل سينمائي مشهور . سُجّل صوته في عام 2003 في اليونيسكو في برنامج ذاكرة العالم. م.

ودجاجاتٌ وكلبٌ. يُطلُّ الحصان المُبَلَّلُ بخطمه من الباب. ينخـرُ، يطلبُ. مكان، لا يوجد. يُطرَد.

تسكب بيتانغا المعكرونة. الأطبـاقُ لا تكفـي. تشيسـبا تأكـلُ جالسةً على ركبتي ماريانو. بجانب المعكرونة، تظهرُ بعـضُ عظـامٍ عليها قليل من اللحم .

- خذ بالاعتبار أنّه لحمُ متنٍ – يُشيرُ غاناپان، مطقطقاً لسانه.

يأكلُ بيدِهِ اليُسرى. اليمنى مُخبأة بين ساقيه.

-ينقصنا توكو[40] جيّد – يشرح–. وضعنا لها فلفـلاً حمـراء وفلفلاً حاراً، الذي عندي منه كمية كبيرة. لكـنّهم اليـوم لم يقبلـوا أن يبيعوني بالدين لا زيتاً ولا بندورة ولا بصلاً أخضر.

علـب المحفوظـات تُسْتَخْدَم كؤوسـاً. يجـبُ شـربُ النبيـذِ بحذر، لأنَّ الحوافَّ يمكنُ أن تجرحَ الشفاه.

- الحمد لله، النبيذُ موجود – يقول غاناپان–. لاحِظْ أنه نبيذٌ جيد.

يختلِسُ تشورينتشي رشفةً من كأس ماريانو. يُكَشِّرُ ويسعل. تنزلـق تشيسبيتا عن ركبَتَيّ ماريانو وتقفُ بجانبِ غاناپان؛ تستكشفُ الشيبَ في شعره. أبروخو يلعبُ بأعوادِ الثقاب. يحكّها بحافّةِ العلبةِ الرمليـة ويُلقـي بها على ماريانو. ماريانو يُغمِض جفونَهُ ويبتلع ريقه، ولكن الحمـدُ لله أنَّ أعوادَ الثقاب تنطفئ في الطريق.

---

[40] نوع من المرق الكثيف، مشهور في الأرجنتين قوامه الأساسي لحم العجل والبندورة والبصل. م.

-إنَّها مشاعل — يُعلِمُ المهووسُ بإشعال الحرائق.

يعجن كراتٍ من فتاتِ الخبز. حين تصبح القذائفُ صلبةً ، يُصَوِّبُها ويرمي بها وجهَ ماريانو.

-إنَّها قذائفُ مدفعية — يقول المدفعي.

بيتانغا توجِّهُ له صفعةً قويّةً ينجو منها بقفزةٍ واحدة: يترنَّحُ القدرُ، تنزلقُ جمرةٌ، تسقطُ على الأرض مطلقةً وابلاً من الشرر. تخفقُ دجاجةٌ بجناحيها؛ يَعطسُ الكلبُ ويلعقُ خَطمَهُ المحروق.

أبروخو يُوضِّحُ، مُزدرياً ومشيراً إلى ماريانو بإبهامه:

-هذا الكاذبُ يقول إنَّهُ ساحرٌ ولكنَّهُ لا يعرف كيف يُحَرِّكُ أُذُنَيْه. كلُّ السحرةِ يعرفون. عندي صديق ساحرٌ حقّاً ويعمل في التلفزيون. هو، إن أراد، يُحَرِّكُ أُذُنَيْه بسرعة كبيرة ويطير كالطائرة.

-اخرجوا من هناك! هيّا إلى النوم! — تأمر بيتانغا—. إلى النوم جميعاً! هيّا!

يشد تشورينتشي من ذراعه. هو يقولُ في أذن ماريانو:

- عندما أكبرُ سأصبحُ لاعبَ كرةَ قدمٍ وسيكون لدي سريرٌ لي وحدي.

يغوصُ الثلاثةُ في السرير. الشجارُ طويلٌ؛ يتضمنُ بكاء وصراخاً. وأخيراً توزّعهم بيتانغا، تشورينتشي في جانب، تشيسبا وأبروخو في جانبٍ آخر، لكنَّ الركلاتِ تستمرُّ تحت الأغطية.

بيتانغا تكشطُ الصحونَ، تضعُ البقايا في القدر. تغسلُ الصحونَ في سطل الزاوية. غانابان أشعلَ مصباحَ الكيروسين، المصباحُ زجاجُهُ متسخٌ بالَشحار وفتيله قصير يصدر دخاناً. الفراشاتُ الرمادية تحومُ حول المصباح؛ الظلال تدورُ على الجدران.

تنحني بيتانغا لتُطفِئ النارَ. ينظرُ غانابان إلى وركيها، المشعين والمنسابين مع الضوء الأصفر.

الكلبُ يتثاءب، يحكُّ البراغيثَ؛ يدورُ عدّةَ دورات، مُتردّداً، إلى أن يستلقي في الزاوية وينام.

لا أحد يتكَلّمُ. تأخذُ بيتانغا صحيفةً قديمة كي تُغَطّي رأسَها وتُوضّحُ من الباب، قبل أن تدخلَ في المطر:

-عليكما أن تتحدّثا. سأذهب إلى السيدة أنونثياثيون. سأعودُ بعد قليل.
-لا، لا من فضلك، ابقي - يقول ماريانو، وينهضَ، منزعِجاً، لكنّها تقول:
-عليّ مساعدتها. هي لوحدها لا تستطيع. يجب أن نُعطي الدواءَ للعجوز ونطعمَ البقرة.

يبقى الرجلان وحيدين. يُسمع صوتُ تَنَفُّسِ الأولاد، الذين غلبهم النعاس، وموسيقى المطر المتكررة.

يعرضُ ماريانو عليه سيجارة.

-ماذا حصل ليدِكَ؟ ووجهِكَ؟

ينظر غانابان إلى قبضةِ يده اليمنى، المنتفخة مثل بالون. يهزُّ كتِفَيْهِ:

-كنتُ في وضعٍ سيّئ.

يبتسمُ من دون رغبة:

-عندما يكونُ المرءُ في وضعٍ سيّئٍ، حتى العُقاب يُدير له على ظهره. الأصدقاء يُكلّمونك بازدراء.

-لكن الآنَ – يقول ماريانو– الريحُ تتغير.

-وإن كان. من يدري؟

-ممكن أن يكون.

-من يقولُ لك؟

يسندُ غانابان ظهرَهُ إلى الحائط. يُدَخِّن، مُطْبِقاً عينيه قليلاً.

يُصَفِّقُ ماريانو فتسقطُ بعوضة. يقومُ غانابان بحركة مفاجأة. بعوضة أخرى تفلتُ.

-في الحياة القادمة – يُقرّرُ غانابان– نحن سنكونُ بعوضاً والبعوضُ بشراً. هناك، نعم، سوف ننتقم.

-في الحياة القادمة – يقول ماريانو–. هذا إذا كان هناك حياةٌ قادمة. أتعتقد ذلك؟

-أنا، لا أعلمُ. أقولُ، ليس أكثر.

وماذا إذا لم يكُنْ لدينا؟ يفكر غانابان. وإذا كانت المقبرةُ هي آخر محطةٍ للترام؟ هذا الرجلُ طاردوه بالرصاص، يُفَكِّرُ. هل شعرَ

بالموت في نقرتِهِ؟ بماذا تُراه فَكَّرَ؟ ما من رشوةٍ ولا توضيحاتٍ تُفيد مع الموت. الموت: هناك من يجلسون بانتظارِ أن يصلَ وهناك من يخرجون ليبحثوا عنه.

ينظر ماريانو إلى قبضته عن قرب.

- أليس من المُستَحْسَن أن يراك طبيب؟ - يسأل.
- سوف يزول.
- هل تؤلمُكَ؟
- حين أكونُ هكذا ساكناً، لا أشعر بها. هذه تُشفى لوحدها.
- هل دائماً تَشفي نفسَكَ هكذا؟
- هل تعلم كم عمري يا صغير؟ - يسأل غانابان ويجيب-. تسع سنين. تسع سنين أتممتُها توّاً - يضحك-. أنا ولدتُ يومَ 29 شباط. لهذا.

يشربُ رشفةً طويلةً من النبيذ. يسكبُ المزيدَ للاثنين. ينتزعُ، فلينةَ الزجاجةِ الثانية: بومْ.

ينهضُ ويلتقطُ من الأرض كيساً مليئاً بأعقابِ السجائر. ينشرُهُ على الطاولة. يبدأ بفتحها، عقباً تلو الآخر، ويجمعُ التبغ في جبل صغير.

- هل أستطيع المساعدة؟ - يعرض ماريانو.

غانابان يناوله أوراقَ اللف.

- إن كنت تُريد أن تبدأ باللفّ - يقول.

يصنعون سجائرَ من التبغِ المستخدم. لا يتشجّعُ ماريانو على تقديم علبةِ سجائره المُفلتَرَة. يحدسُ بشكل غامض بأنها ستكون إهانة. والنقود؟ أسوأ. ماريانو يعمل، يوزع التبغ بعنايةٍ، يضغطه قليلاً، يلفّهُ ويلصق الورقةَ بلعابه. لكن السجائرَ التي يلفّها تبقى ملتوية قليلاً، ورفيعة للغاية، وفيها انتفاخ. غانابان يعملُ بيدٍ واحدة، لكنَّ سجائرَه ممتازة. يعملُ بصمت، وماريانو لا يعرف ماذا يقول.

بنما هما في هذه الحال، يقلبُ الكأس بكوعِهِ من دون قصد. لحسن الحظ أنّ النبيذ لا يُبَلّلُ التبغَ؛ كان الكأسُ شبهَ فارغ. غانابان يقول له:

- لا تَهتَمّ.

يُبَلِّلُ السبابةَ في بحيرة النبيذِ ويُرَطِّبُ جبين ماريانو. يُحَدِّقُ به بثبات ويضيف:

- أنتَ سوف تحتاجُهُ، أليس كذلك؟ أنت سوف تحتاج الكثير من الحظ الجيِّد.
- أنا... — يتردد ماريانو- أنا كنت أريد...
- ماذا كنتَ تعملُ عندما كنتَ سجيناً؟ - يسأل فجأة غانابان.

يُفاجَأ ماريانو.

- أنت تعلم أن...؟
- بماذا كنت تتسلى؟ أكنت تلف السجائر حين كنت مسجوناً؟

-كنت أحاول أن أنام - يقول ماريانو-. الليل هو نفسه بالنسبة للحر وبالنسبة للسجين. أقول إن استطاع المرء أن ينام. على الرغم من أنّه كانت تأتي أحياناً الكوابيسُ أو الجنود.

واحد من الأطفال يسعل. آخر يتقلب غير مرتاح في السرير. ينهض ماريانو، يلقي عليهم نظرة؛ يخاف أن يسقطوا. لكن لا.

بتمريرة لسان دقيقة، ينهي غانابان سيجارة. يضعها في أعلى الهرم الصغير الذي راح يتشكل، شيئاً فشيئاً، على الطاولة. يعاود ماريانو الجلوس. ينظر الرجلان في عيني بعضهما.

-لماذا هربت؟ - يسأل غانابان.
-من أجل... الفضول. من أجل معرفة كيف تكون الأيام القادمة، والليالي، خارج الزنزانة.

يومئ غانابان موافقاً برأسه.

ماريانو يريد أن يعرف:

-أنت كيف...؟
-عرفت - يقول غانابان-. عرفت، لا أكثر.
-هم جاءوا، أليس كذلك؟ جاءوا ليتحروا.
- مروا من هنا. كانوا يبحثون عن رجل أضاعوه هناك بجانب الجدول.

المطر يُطقطق، قوياً، على سطح الصفيح. هناك تسرّبات في كل مكان. غانابان يضع رجلاً فوق أخرى؛ يهز قدماً حافية. ماريانو ينظر إلى الإصبع السمين الذي يصعد ويهبط وكأنه يُعطي إشارات.

- ولا أي جار فتح فمه – يقول غاناباﻥ، نافخاً صدره-. الحي أخرس.

يفتح ضحكة عريضة:

-وأنا، ما كانت علاقتي بالأمر؟

يضحك ضحكة مليئة بالأسنان البيضاء:

-لا أتورّط أبداً. صحيح؟. كلا؟ فليراجعوا سجلي.

يربت ربتةً قويّة على ظهر ماريانو.

-أنا جئت كي أقدم شكري – يقول ماريانو، متشردقاً-. لهذا أتيت. وأيضاً...

غاناباﻥ يزمجر، يحك كرشه من بين أزرار القميص المفكوكة. في الجوّ رائحة كيروسين وطعام.

- أنا كنت أدرسك – يقول غاناباﻥ-. حين كنت هنا، درستك. في الحقيقة وقعت موقعاً حسناً في نفسي. لكن كنت تتمتع بآداب رجل غني، ولم أظن بأنك ستعود. الحقيقة كانت رؤيتك مفاجأة لي.

فجأة يدوي صوتٌ بعيدٌ وغريبٌ، طويلُ الصدى. كلاهما يُرْهِفُ السمعَ. يسمعان متوترين وصامتين، صوتَ السوطِ الذي يئزُّ في الهواء، أقوى من المطر. يرتجفُ الصدى حزيناً: يهتزُّ: يستمرُّ في الأذنين.

لاحقاً وببطء يخفّ التوتر. كلاهما يشعل سيجارة. فقط يستمعان إلى المطر.

عندئذ يسندُ ماريانو كوعَيْهِ إلى الطاولة، يَتَقَدَّمُ بوجهه للأمام:

-وأيضاً...
-نحن في مأزق - يقول غانابان.
-علينا أن نفعلَ شيئاً، أليس كذلك؟ - يقول ماريانو.
-نعم، نحن في وضع حرج، ولكن علينا أن نفعل شيئاً.
-أنا أعتقد ذلك.
-نعم. لا يكفي التنَفُّس لا. أنا...

لم يبق للفانوس المسكين إلا القليل من اللهب.

يقترب الظلان العملاقان من بعضهما على حائط الصفيح.

أفكرُ الآن بأننا كنا نضحك لأمور سخيفة، ونتفوّهُ بهذه العبارة البذيئة أو تلك، مغرورَين، ساخرَين، دون أن يذكر أيٌّ منا فرحةَ العودة للقاء من جديد أو أي شيء من هذا القبيل. فهذه هي الموضة، أليس كذلك؟ الموضة الوطنية: ما نسميه الرصانة. وأنا أعلم أنه تكفي معرفة أنّ هناك أحداً يؤمن بك حتى تُنقذ نفسك، وأن الأمور الهامة تموت حين تُذكر بالاسم، وأنه يجب عدم الثقة بالكلمات المستنفدة بالاستخدام. أعرف هذا كله. إنه لمن المخزي أن تنفعل ويظهر عليك الانفعال. أنا أعلم. هي أشياء أقولها أنا نفسي دائماً. ولكن بسبب الموضة الوطنية، كان آخر ما أتذكره من أفضل صديق لي شيئاً مخزياً.

يصعب عليَّ أن أتخيّل كل هذا الضوء في الهواء. الهواء مفعم بالمطر، وكل شيء يسطع بنور أبيض. في المدى امرأةٌ ظهرها إلى جدار، تنتظرني. ابني يأتي صوبي راكضاً، وبقفزة واحدة يتسلّقني، ونغرقُ في عناق طويل. ضربات القلب على الصدر. ضربتان: أنا حرّ، أنا حيّ. هذه الحاجة إلى المشي في أيّ اتجاهٍ وإلى أجل غير مسمّى، أمشي للمشي، لأنني أريد، لأنني أرغب بالمشي. الحريّة. انظرْ. عندي لك ديدان لبِّ الخبز هذه. صنعناها نحن جميعاً.

المطر قادم. الغيوم الفاحمة تتدلى من السماء. هواء منتصف النهار المنتفخ. عندما تكتشفُ أنَّ العالمَ مُنظَّمٌ كي تقتل الأحبَّ إليك ...



دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339



9789933523275